الإقتصاد البشري

للدكتور بشير العظمة

... هل حققت المهن الطبية في بلادنا
اهدافها القومية والاقتصادية والاجتماعية؟!
وهل تأميم الطب هو الحل الوحيد لمشاكلنا؟!

الهدف البديهي للعلوم والفنون جميعاً ، تيسير المزيد من الراحة الجسمية والفكرية ، وتأمين العيش الكريم للانسان ، واخضـــاع عوامل الطبيعة والفناء لارادته . ويبقى الانسان العنصر الرئيسي للانتاج ، وسيلة وهدفا ، فالصاروخ الموجه ، والآلية الذاتية automation ، والعقل الالكتروني ، كلهـا مخترعات أوجدها الانسان القابع وراء مخبره ومصنعه .

فالانسان في عرف الاقتصاديين آلة منتجة وهي تستحق العناية لأنها كذلك لئلا تكون مستهلكة وغير اقتصادية .

يبدأ الانسان كمشروع استثماري عند ولادته ويستمر كذلك حتى يصبح قادراً على العمل والربح ، فاذا مات قبل استثماره المهني ، أو اذا اصيب بالعجز أو بالبطالة ، فان ذلك يعني أن استثمارنا الرأسمالي كان غير كامل أو أنه خاسر ، وانقلب الانسان المنتج الى مستهلك . وانتاج الانسان استثمار رابح بأكثر من قدرته الفيزيائية ، فان تفتق حيلته واتقانه المهني بؤهلانه ليكون استثماراً ناجحاً .

وقد استثمر المجتمع الزراعي منذ القديم ، وكذلك الصناعة في القرن الثامن والتاسع عشر ، الاطفال على ضعف قدرتهم العضلية ، وكانت حصيلة ذلك أمراض وعاهات وانحراف ، ومنعت تشريعات عمالية هذا الاستخدام حفظاً لصحة الاجيال الصاعدة . وما يزال استخدام الاطفال شائعاً بل وعاديا ، في غير الصناعات الكبيرة على الاقل ، وفي جميع البلاد العربية .

ان الهدف المادي للصحة الجسمية والنفسية والتعليم ، وجميع الخدمات الاجتماعية ، هو اطلاق الطاقة البشرية للانتاج ، والمعنى الاقتصادي للمرض والعطالة والجهل والخوف من الغد ، شلل هذه الطاقات وانقلاب الانسان المنتج الى مستهلك .

والمجتمعات مجموعة أفراد ، عليهم أن يتعاونوا ليكون اقتصادهم مزدهرا متطورا ونامياً ، ولا يكون كذلك الا اذا توفرت للافراد امكانيات كافية للانطلاق ، عاملين ومنتجين . وبالعكس يكون اقتصاد المجتمع متخلفاً وأعباؤه متزايدة كلما ازداد المرض وتفشى الجهل ، وسيطرت الاتكالية بين أفراده .

فالانفاق على التعليم والصحة والخدمات الاجتماعية لايمكن اذاً أن يكون هدراً للأموال بل هو استثمارات رابحة ماديا .

وليس المهم متى ستدخل أرباح هذه الاستثمارات الصندوق العام للاقتصاد الوطني ، ولمن ستدخل ، فان أثرها المباشر يكون للمستفيدين منها ، أما نتائجها المتأخرة فردها الى المجتمع حيث يعيش هؤلاء الافراد .

تستهدف الخدمة الصحية الحفاظ على الثروة البشرية ، ويزيد التعليم من قدرة الانسان على الانتاج ، ومن تطلعه وتفتق حيلته وابداعه . وتضمن الخدمات الاجتماعية الاخرى دفع شرور الغد ومفاجئاته .

ان الكيف البشري مفضل على الكم فيه .

فالشعوب الصحيحة المتطورة قادرة على العمل والانتاج والدفاع عن بقائها في الارض ، بينما تبقى الشعوب المريضة المتخلفة مستثمرة ومستعبدة ولو كان تعدادها مئات الملايين .

لقد تعاونت شعوب الارض معاً للقضاء على أوبئة جائحة فتم النصر عليها ، ولا تثير أوبئة وأمراض قديمة ومقيمة اهتمام المسؤولين ، ولا تحفزهم للقيام بتنظيم خطة قومية للخلاص منها .

فالاعتياد على رؤية البؤس يضع غشاوة على أبصارنا فلا نراه ، أو أنا نعتبره جزءا طبيعيا من حياتنا ، ويعتبره الاتكاليون ضروريا .

ان العامل الفقير الجائع الجاهل والمريض أيضا ، أعباء اجتماعية يحتمل أثارها المجتمع بكامله بشكل مباشر أو غير مباشر . لقد كان تحرير العبيد عملا رابحا اقتصاديا بالاضافة الى قيمته الأخلاقية . أشار Canton في القرن الثامن عشر باستثمار العبد حتى آخر قواه ثم بيعه ، وتبين أن الرأي خاطئ . وأشار Xenophon قبله أن على السيد أن يعامل عبيده جيدا ، ليقوموا على خدمته باخلاص وبامكانيات أفضل . ومنذ عصر النهضة يؤكد (جان بودان) أن لاثروة ولا قوة الا من خلال الوجود الانساني الصحيح .

لقد سيطرت آراء آدم سميث « القرن الثامن عشر » عن ضرورة الموازنة بين الانتاج والاستهلاك وكفاية الحاجة ، وأنها مقدمة على المصالح التجارية واختزان الثروات ، وعرف القرن التاسع عشر ازدهار الاقتصاد الحر في العمل والربح دون قيود أو التزامات .

وكان حصاد هذه الحرية بمفهومها البدائي أن ضاقت صدور القلة المحظوظة بمشاكل توظيف واستثمار رؤوس الاموال ، وضاقت صدور الآخرين من ضيق الرزق وظلام المسكن وبؤس المرض ومصائب اليوم والغد .

ومع حركة الاصلاح الاجتماعي التي قادها لافوازيه وكوندورسيه وكودوين واوفن Owen وأوغست كونت وبرناردينو مازيني ، الذي بدأ البحث في الطب الاجتماعي ، أن دخل الفكر الاشتراكي في الحقوق والتعليم والطب .

ومهما اختلفت النظم السياسية ، وتباينت الأساليب التي اتبعت من أجل فرض العدالة الاجتماعية فقد أخضع الاقتصاد ، وفي جميع البلاد ، للتوجيه والرقابة عن طريق نظام النقد والضرائب والاجور والاسعار والجمارك والاقراض والنقل ، او عن طريق مباشرة الدولة للنشاط الصناعي والزراعي . والهدف الاخير من جميع أنماط الحكم اقامة الانسانية الاقتصادية humanisme économique .

وتعني كلمة الانسانية الاقتصادية أن يكون لجميع العاملين في الانتاج حصة معقولة فيه ، وان يقوم التكافل الاجتماعي بين المواطنين ليضمن الاقتصاد وللجميع الحد الادنى للعيش الانساني .

والصراع دائر بين اتجاهين ، يؤكد الاول منهما أن مصالح الافراد تؤدي لصالح الجماعة ، وهم مجموعة من الافراد . بينما يناهض ذلك رأي يؤكد أن الصالح العام يضمن مصلحة الأفراد .

ومهما تكن التيارات الفكرية التي تباعد بين رجال السياسة والاقتصاد القائلين بالرأي الاول ، أو المؤمنين بصحة القول الاخير ، فان الوقاية من المرض وعلاجه يضمن مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ايضا .

وعليه فان الرأسماليين والاشتراكيين ، أوما بينهم ، متفقون على أن الوقاية من الامراض وعلاجها ضرورة تحتمها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة معاً .

لقد بلغت خسارة الولايات المتحدة الامريكية من المرض والعجز ، وبتقدير لجان حكومية ، مبلغ عشرة مليارات دولار سنويا ، يصرف للوقاية من الامراض وعلاجها ثلث هذا الرقم ، ويمثل ثلثيه قيمة القدرة المهدورة بسبب العجز عن العمل أيام المرض وبعده اوبسبب الوفاة.

واذا اعتبرنا ان الانسان لابد وأن يمرض ، وان بعض الحوادث لايمكن طرحها من حساب الاحتمالات ، فان نصف العشرة مليارات على الاقل يمكن توفيرها لاقتصاد الولايات المتحدة بالتنظيم والتخطيط ونشر الوعي .

لقد كانت الزيادة المطردة في متوسط عمر الانسان ، نتيجة اكيدة لارتفاع المستوى الصحي والمعاشي ، بين سكان اوروبا والولايات المتحدة .

لم يزد متوسط عمر الانسان في القرن السادس عشر وفي مدينة جنيف عن ٢١ عاماً، وقد ارتفعت متدرجة حتى بلغت ٧٣ عام ١٩٦٣ . هذا ومتوسط عمر مواطن في الولايات المتحدة الامريكية ٧٧ سنة ولايزال متوسط عمر المواطن الهندي ٣٣ عاما .

وتمثل هذه الزيادة في السنوات ، زيادة في قيمة الانتاج ، وزيادة في الدخل القومي .

ان عمليات الحمل والولادة وموت الاطفال ، تستنزف قوى بشرية ضائعة وتزيد من فقر البؤساء وشقائهم بكثرة ولاداتهم ، وكثرة اطفالهم وكثرة وفياتهم ، بينما ارتفاع عدد الشيوخ القادرين على الانتاج ، يزيد من الفعالية الانتاجية القومية . وهكذا نرى كيف يزداد شقاء الشعوب المتخلفة ويزداد تقدم المتطورين .

فاذا خلصنا من ذلك الى ان الصحة ركيزة اساسية لكل برامج التطوير في الانتاج والتصنيع ، فكيف يمكن ان نوفرها للعاجزين عن شراء خبزهم ، والعاجزين عن ادراك او ضمان ظروف مادية معقولة ، من اجل غدهم . كيف نفرض الصحة أو على الاقل نوفرها للفقراء المرضى الجاهلين ؟ !

تبين من تحقيق أجري في الولايات المتحدة الامريكية ان المواطن الامريكي يحتاج وسطيا لثمانية استشارات طبية سنويا ، نصفها من طبيب ممارس عادي والباقية اختصاصية ، وانه بحاجة لجراحة كل ثمانية سنوات . ولاتشمل هذه العناية الاجراءات البسيطة كالتلقيح او الولادة ولا الفحوص الوقائية .

وتبين في احصاء أجري في بلجيكا ان نسبة اهمال مراجعة الاطباء في الامراض المزمنة تصل حتى ٤٤٪ منهم ، ومعظم المصابين بهذه الامراض لايتابعون علاجها . وبتحليل الاسباب الداعية لهذا الاهمال تبين ان في مقدمتها الجهل والاستسلام للقدر والمصير المحتوم ، واحيانا عدم الثقة بالطب والاطباء . ويبدو ذلك ظاهرة كثيرة التصادف عندما تكون العلاقة بالدفع مباشرة بين المريض وطبيبه .

ان التطور السريع المذهل لوسائلنا الطبية في مختلف الاختصاصات تؤدي الى زيادة كبيرة من اكلاف العناية الطبية .

يقول هيزمان Hezemann لقد تطور الطب تكنيكياً وازدادت وتعقدت اختصاصاته واجهزته . لقد أدى تطور التكنيك في الصناعة لانقاص أسعار منتجاتها فدخل البراد والغسالة بيوت الطبقة المتوسطة .

أما العمل الطبي فلا يمكن أن يخضع للانتاج المتسلسل أي أن نعامل الانسان فيه وكأنه قطعة حديد أو قطعة قماش ؟ فالعناية الطبية لايمكن إلا أن تبقى معاملة انسان لأنسان . ولكل فرد مشاكله ومتاعبه وأمراضه الخاصة به .

وعليه فان نتيجة التطور في العلوم الطبية تؤدي حتما الى زيادة الادوات الطبية وزيادة في عدد الفنيين العاملين عليها ، فلم يعد بالامكان أن يكون الطبيب لوحده أداة العناية الطبية بل عليه أن يستعين بزملاء وفنيين ومخابر كلها تزيد من اكلاف هذه العناية .

ونتيجة كل ذلك تجعل الخدمة الطبية وقفا على القادرين على دفع اكلافها وتبقي جميع الناس تقريبا عاجزين بوسائلهم الخاصة عن الحصول على هذه العناية عندما يحتاجونهم أوأهلهم اليها . تهـــدد الطوارىء والمرض بجميع أشكاله كل انسان لا في صحتـــه فقط بل في ميزانيته العامة ولأعوامه القادمة أيضاً .

ان اصابة بالسرطان اوبالدماغ او بالقلب او بالعين تحتاج لعناية اختصاصية لايمكن الا لفئة ضئيلة ان تستفيد منها .

ان مشاريع الضمان الصحي الاختياري يقوم بها الافراد الواعون اولا والقادرون ثانيـاً على دفع اقساط هذا الضمان . وتبلغ نسبة المنتسبين الى الضمان الصحي في فرنسا مثلا ٨٠٪ من الشعب الفرنسي العامل .

وفي اوسع تقدير لايزيد عدد العمال المنتظمين في نقابات ولهم دخل ثابت عن مئة الف عامل وما نقل للآخرين الذين يبلغ تعدادهم خمسة ملايين ومئة الف من المواطنين العاملين في الزراعة او في المهن التجارية او الصناعات اليدوية Artisanat ؟!! وجميع هؤلاء لايفكرون الا في خبزهم اليومي ولا سبيل لاقتطاع اي شيء من مواردهم غير الثابتة لحساب هذا الضمان .

واذا كان الجدل لايزال قائماً وجائزا حول العلم للعلم والفن للفن ، فاني واثق من أن الطب لابد وان يكون في خدمة جماهير الشعب اولا ، وان البحث الطبي وتطور التكنيك فيه لايجوز اطلاقا ان يباعد بينه وبين امكانيات المحتاجين لخدماته . وعلى الخدمات الطبية ان تنزل لتتجاوب مع امكانيات واستعداد المواطنين المصابين بالامراض وتكون في خدمتهم .

بلغت نسبة الرد الخاطىء للكسر في بريطانيا والتي انتهت بعطالة الطرف ٣٧٪ من الكسور عامة ، وذلك عندما قام بالعناية بالمكسور طبيب غير أخصائي . وبالمقارنة لاتزيد احتمالات حدوث ذلك عن ١ ٪ عندما تكون العناية من قبل أخصائي .

ولكم أن تتساءلوا مرة اخرى كم عدد الكسور التي يردها خبراء وكم عدد العاطلين في بلادنا نتيجة لهذا الاهمال وفي هذا المجال الصغير جدا ؟!!

لست أريد ان انتهي للقول بأن تأميم الطب هو الحل الوحيد للمشاكل الطبية الاجتماعية في البلد المتخلف ، فان الخدمة الطبية جزء لاينفصم عن سياسة الدولة الاقتصادية والاجتماعية ، ولكني أريد لكم ان تتساءلوا فقط كم تحقق المهن الطبية في بلادنا أهدافها القومية والاقتصادية والاجتماعية ، في الوقاية والاسعاف والمداواة ؟! وكم تسهم في دفع عملية التطور وتتجاوب مع ارادة وتصميم مواطنينا جميعاً للخلاص من التخلف والبؤس ؟!!

يخفف الضمان الصحي من العلاقة المادية بين الأطباء والمرضى ، ويجعل من الخدمة الطبية حقا يطالب به العامل أو الموظف او المستخدم عند حاجته اليها ، لاعبئا يعجز عن احتمال أكلافه فوق شقائه بمرضه . وتقوم فيها علاقة الطبيب مع الانسان الصحيح ، ومن مصلحة الطرفين منع حدوث المرض ، ويعيش الطبيب فيها ، من صحة مرضاه لامن شقائهم بأمراضهم .

واذا كانت مشاريع الضمان الطبي في العالم الغربي تدرك أن من مصلحتها الاشراف على سكن المنتسبين اليها وطعامهم وتجري لهم الفحوص الدورية وتنظم مخيمات لهم .. الخ . حتى وتقوم بأبحاث علمية بحتة ، فحري بصناديق التأمين الحكومية في بلادنا أن لاتتوخى التوفير والاقتصاد في خدماتها كما نرى في بعض الأحيان .

واخيراً اليكم بعض الارقام عما تصرفه الدول المتطورة على الصحة والاسعاف وحماية الطفولة والأمومة والتعليم والتربية البدنية ومشاريع الاسكان وتحسينها والطعام الشعبي وكفاح الاوبئة الاجتماعية كالكحول والمخدرات .. الخ . أي اجمالا في مجالات الطب الوقائي والتعليم وتحسين السكن . بلغت هذه الارقام قبل الحرب العالمية الاخيرة في بريطانيا ١٠٪ من الدخل القومي ، لامن ميزانية الدولة ، و١٧٪ في ألمانيا و ١٩ ٪ في الدانمرك . وتبلغ مصاريف تأميم الطب في انكلترا ٦٠٠ مليون جنيه استرليني والانفاق في البلاد الاشتراكية بارقام خيالية من أجل الاقتصاد الانساني الرابح دائما .

حديثي نقاط استفهام متراصة تنتظر اجوبة وحلولا .

ان لكل بلد مشاكله بل ولكل اسرة ولكل فرد متاعبه. وتزداد هذه المشاكل والمتاعب تعقيداً كلما ارتقى الانسان في تفكيره من خبز يومه الى غده ومستقبل اولاده ثم الى مستقبل وطنه الصغير والكبير واخيراً مستقبل الانسانية بكاملها .

ولنعد الى انفسنا افلا نرى باننا نغرق كل شيء ونغرق انفسنا ايضاً بالسياسة ؟! افلا ترون معي بان في تعميمنا للمشاكل وفي انتظارنا للحلول من اعلى دائما شكلاً للتملص من المسئولية والهروب من العمل الايجابي وان في ذلك كله شكلاً جديد من التواكل الكسول .

تتجلى سلبية هـذا الجيل في تضخيم المشاكل بدل تجزئتها ولن يؤدي اجترار الافكار والنقاش البيزنطي الا لمزيد من الفرقة والتناحر ولن نتوصل الى ماتريد من حلول لكل مشاكلنا مرة واحدة . ان العوده الى تجزئة المشاكل ، مع وحدة هدف التفكير ، تمكننا من ان نكون ايجابيين نفعل في محيط المهنة والنقابة والمجتمع من اجل خير جميع مواطنينا من اجل مستقبل اولادنا جميعاً كمواطنين متضامنين ومتعاونين في المصير الموحد لشعبنا العربي في هذا القطر .



المعرفة الإنسانية لا تزال تحبو

للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

ان التقدم العظيم الذي احرزه علم الفيزياء حتى أوائل القرن التاسع عشر ملأ العلماء في ذلك العهد غروراً وخيلاء ، وجعلهم يظنون انهم قد فرغوا — أو كادوا — من بناء صرح العلم ، وانهم قاب قوسين أو أدنى من وضع آخر لبنة فيه . ولله در ماكس بلانك حين وصف حال علماء الطبيعة آنذاك فقال :

« عندما كنت في مستهل ابحاثي الفيزيائية سالت استاذي الجليل فيليب جولي ان يسدي اي النصح فيما يتصل بظروف عملي وافاقه ، فصور لي علم

(*) استاذ الفلسفة بجامعة بيروت العربية

الطبيعة عاماً بلغ من النمو مبلغاً بعيداً واشرف على نهايته ، ولابد له عاجلاً ان يتخذ شكله النهائي الثابت ، كيف لا وقد تكلل نوعاً باكتشاف مبدأ بقاء الطاقة ! لاجرم انه كان لايزال من الممكن اقتناص هباءة ما أو نزعها (هنا وهناك) او (الوقوف على) جسم غريب في هذه الزاوية او تلك (من الكون) ولكن النظام العام في مجموعه كان وطيداً ، وكان علم الطبيعة النظري يقترب اقترابا محسوساً من درجة الكمال الذي كانت الهندسة قد بلغته منذ قرن » .

لقد كان بناء القواعد النهائية للصرح الكوني يبدو بسيطاً: فقد كان كثير من الفيزيائيين يتخيلونه على صورة جزئيات أو ذرات متجانسة لاتتجزأ ، تفعل بينها قوى الجذب والدفع الثابتة . وان فكرة ارجاع جميع ظواهر الطبيعة الى هذا المخطط قد عبر عنها مثلاً العالم الفيزيائي الالماني المشهور هلمهولتز . وقد اعتبر علماء الطبيعة — خطأ — قانون بقاء الطاقة او تحويلها — وكان اعظم اكتشاف وصل اليه العلم آنذاك — دليلاً على امكان ارجاع جميع صور حركة المادة الى الصورة الميكانيكية . لكن قامت صعوبات في وجه هذه النظرة تتصل ببناء الاثير وبصورة عامة نظرية الاشعاع وانتشار الضوء ، فالاثير بصورة خاصة لم يكن ليتفق مع مخطط هلمهولتز . الا ان العلماء ظلوا يأملون ان تكون هذه الصعوبات عابرة او سحابة صيف لاتلبث ان تنقشع ، ان لم يكن ذلك حسب مخطط هلمهولتز ، فعلى الاقل بروح يظل ميكانيكياً على كل حال . فالمادية كانت ترتبط في اذهانهم بتصور فيزيقي للطبيعة على انها نظام ميكانيكي يتألف من عناصر لاتتغير وتخضع حركتها لقوانين الميكانيكا . فالصورة الميكانيكية للكون كانت مطمح آمال العلماء .

وفي أواخر القرن التاسع عشر وقع مالم يكن بالحسبان ! فالصورة

الميكانيكية للطبيعة اخذت تنهار ، وقد وجهت اليها الضربات الاولى بظهور نظرية مكسويل الخاصة بالعمليات الكهرطيسية وتهافت الصورة الميكانيكية الأثير. ولما كانت هذه العمليات لا حامل مادياً لها في الفضاء فقد افترض مكسويل انها مظاهر لبعض التغيرات الميكانيكية الطارئة على الاثير. ولكن هذا الفرض لم يثبت ، كما لم تثبت ايضاً سائر الفروض الميكانيكية ، الاخرى التي وضعها الفيزيائيون بسخاء وتحمسوا لها. وعندما اتضح فيما بعد في اعقاب ميكلسون ومور لي وميلر أن الصور الميكانيكية للأثير لا يمكنها تفسير العمليات الكهرطيسية وأن الاثير لا يمكن اثباته تجريبياً ، فان فكرة وجود اثير مالىء للكون كوسط متجانس ، مرن ميكانيكي ، قد نبذت الى غير رجعة. وكم عانى العلماء من المشقة في طرحها من الاذهان.

لقد ثبتت النظرية الكهرطيسية ، ونجحت نجاحاً باهراً. ولكن العمليات التي تصفها هذه النظرية تجري في « الفراغ » حيث لا وجود للمادة كما يعهدها علماء الطبيعة ، اي المادة بالمعنى الضيق ، ذات الخصائص التي تعزوها اليها الميكانيكا التقليدية ؛ فلاول مرة في تاريخ علم الطبيعة ، وضعت نظرية على اكبر جانب من الخطورة ، ولكنها غير مفهومة ابداً ، اذ نجد فيها معادلات تصف حركة ما ، ولكن حيث « لا أثر لمادة تتحرك » أي ان النظرية الجديدة لا تعتمد على التصورات الميكانيكية للمادة ولحركتها.

لقد بهت العلماء لهذه النتيجة غير المتوقعة ، وهاك قول احدهم في العالِم المادي العتيد : لورنتز.

« وبعد أن احس بالاهلية القصوى لهذه النظرية (نظرية مكسويل) شرع في دراستها ، ولكنه اقتنع أنه لم يفهم منها شيئاً — اللهم الا المعادلات — وانه لا يمكنه أن يستنتج منها شيئاً. وعندما نمي الى علمه ان ملخصاً لنظرية مكسويل

قد نشر بالفرنسية ، انطلق الى باريس ظناً منه الـكاتب الذي لخص مكسويل لا بد ان يكون قد فهمه ، لكن كاتب الملخص قال له ان من المستحيل عموماً فهم نظرية مكسويل وانها ذات صورة رياضية بحتة مجردة غاية التجريد ، وانه لايمكن ان يكون لها معنى فيزيائي ».

وهكذا ولدت في اذهان علماء الطبيعة فكرة جديدة عن المادة كانوا يجهلونها حتى ذلك الحين جهلا تاماً وهي فكرة المجال (الحقل) . فالمجال شكل من اشكال المادة ، ولكنه مع ذلك مرتبط بقوانين الحركة ، والمادة والمجال مظهران فيزيائيان لشيء واحد هو الطبيعة ـ مظهران لا تفصل بينها حدود ثابتة مستقرة ، يندغمان في وحدة ديالكتيكية متكاملة ، لقد بدأ علماء الطبيعة يقتنعون ان المادة والمجال نسبيتان ، أي ان الاولى تتجلى كمادة بالمعنى الضيق ، اي كمجموعـــة من الجزيئات في بعض الحالات ، وتتجلى كمجال في حالات اخرى . فالقسمة التقليدية الى جزئي ومجال ، وهي القسمة التي ظلت باقية في الميكانيكا الـكمية غير النسبية ، لا أساس لها وليس لها الا قيمة نسبية .

ولكن هذه اولى نذر انهيار التصور الميكانيكي للطبيعة . ففي نفس الوقت تمخضت افكار جديدة عن طبيعة المادة بالمعنى الضيق ، وظهرت في اواخر القرن التاسع عشر في شكلها النهائي . فقانون الخصائص الدورية للعناصر الكيماوية الذي اكتشفه مندلييف عام ١٨٦٩ ألقى ضوءاً قوياً على بناء الذرة المعقد . ثم جاءت الاكتشافات الخاصة بالطيف ، وتبعها اكتشاف النشاط الاشعاعي عام ١٨٩٦ وسلسلة من الظواهر الاخرى ، فأكدت ما سبق الوصول اليه عما يجري في اعماق الذرة . واما الافكار الخاصة بالجواهر النهائية الثابتة التي انتجتها قرائح الفلاسفة فقد مضى عهدها .

وفوق ذلك فان الابحاث الجديدة قـــد اظهرت ان طبيعة الذرات ليست ميكانيكية ، وان بناءها ذو طابـــع كهرطيسي مصدره تفاعل الشحنات التي في الذرات . وظهر ايضاً ان الشحنات العنصرية ـ الكهارب ـ ذات كتلة ليست ثابتة بل هي تتغير وتتذبذب بحسب سرعة حركتها ، وان جزءاً على الاقل من هـذه الكتلة يمت الى اصل كهرطيسي . وهكذا اسقط في يد الفيزياء التقليدية ، وفقدت ميكانيكا نيوتن صفة الاطلاق .

ولم تعد حركة المادة اليوم يُنظر اليها كما كان ينظر اليها في زمن مضى وانقضى عندما كان الامر مقصوراً على معرفة العـالم على الصعيد الاعلى ، اي على صعيد عالمنا المحسوس ، فهي ليست صفة خارجية للمادة ، أي مجرد انتقال للاجسام . في العالم على الصعيد الادنى ، اي عالم الذرات فما دونها ، ليست الحركة مجرد انتقال ، انهـا ايضاً شكل اعقد من التغير في حال الاجسام الدنيا ، وتحول في كنه المادة يرتبط به مظهرها العيني .

ولا يفوتنا ان نذكر أخيراً ذلك الارتباط الذي كشفت عنه نظرية النسبية بين الزمان والمكان واعتبارهما امرين نسبيين متوقفين على السرعة ، فالعوالم التي تختلف سرعاتها لا مجال لتوحيد الزمان بينها .

وبذلك شيع علماء الطبيعة آخر أمل لهم في أن علمهم مؤذن بنهايته وانهم على وشك الوصول الى العلل النهائية والاخيرة للعالم . ومن السهل ان ندرك مبلغ الحرج لقوم شبه لهم انهم اشرفوا على الحافة وادركوا الغاية ، فاذاهم في اول الطريق واذا المسير بعيد لا تبدو له نهاية .

الحقوق الدولية

في أعمال الأمم المتحدة

دراسة وعرض للجهود التي بذلتها منظمة الأمم المتحدة
في تدوين وتقنين مواد الحقوق الدولية خلال عامين

بقلم عدنان نشابه

يتميز تاريخ عالمنا المتطور بظواهر بناءة تواكب ميادين نشاطه المختلفة. وان الغاية من كتابتي لهذا المقال هي ان انقل الى القارىء العربي المتتبع لدراسة القانون الدولي والشؤون الدولية احدى هذه الظواهر التي رسمت خطوطها جهود منظمة الامم المتحدة الا وهي تدوين وتقنين مواد القانون الدولي (Codification).

فلقد نصت الفقرة الاولى من المادة الثالثة عشرة لميثاق الامم المتحدة بان تشجع الجمعية العمومية للامم المتحدة التطور التقدمي للقانون الدولي وتدوينه ، والجمعية العمومية عاكفة منذ السنوات الاولى لنشأتها على تحمل هذه المسؤولية تساعدها فيها لجنة القانون الدولي[1] Commission du Droit International أداتها العلمية في هذا الميدان ، التي قامت في دورتها الاولى عام ١٩٤٩ بوضع قائمة بمواد القانون الدولي التي يقتضي تدوينها وتقنينها فحصرت هذه المواد في خمس وعشرين مادة ثم اختارت منها اربع عشرة مادة أدرجتها في قائمة مؤقتة ، تاركة الباب مفتوحاً لحذف بعض موادها أو اضافة مواد جديدة اخرى وفق ما تراه اللجنـــة أو ترغب فيه الجمعية العمومية .

لن أتعرض الى جميع الجهود التي بذلتها الامم المتحدة في الاعوام الماضية في تدوين وتقنين القانون الدولي بل اني سأقتصر في هـذا البحث على الجهود التي بذلتها الجمعية العمومية خلال الدورتين الاخيرتين السابعة عشرة والثامنة عشرة وقد تناولت هذه الجهود ثلاث مواد هي :

١ — المعاهدات والاتفاقات الدولية .

٢ — العلاقات القنصلية .

٣ — مبادىء القانون الدولي المتعلقة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الامم المتحدة .

وستكون هذه المواد الثلاث : الموضوعات التي يدور حولها هذا البحث .

---

(١) انشئت لجنة القـــانون الدولي بموجب قرار الجمعية العمومية رقم / ١٤٧ / تاريخ ٢١ / ١١ / ٩٤٧ وهي تتألف في الوقت الحاضر من / ٢٥ / عضواً ينتخبون من قبل الجمعية العمومية ويختارون من مرشحي الحكومات ومن الشخصيات المعترف لها بالكفاءة في ميدان القانون الدولي ويراعى في انتخابهم تمثيلهم لمختلف القارات ولمختلف النظم القانونية السائدة في العالم .

موضوعات البحث :

١ — المعاهدات والاتفاقات الدولية :

كان موضوع تدوين وتقنين القواعد الناظمة للمعاهدات والاتفاقات الدولية المادة الاولى التي عنيت بها لجنة القانون الدولي ، فقد سجلتها في جدول اعمال جلستها الأولى عام ١٩٥٩ وتابعت دراستها خلال دوراتها السنوية حتى عام ١٩٦١ . وقد صدر عن الجمعية العمومية للامم المتحدة قراران الاول رقم / ١٥٠٥ / تاريخ ١٩٦٠/١٢/١٣ والثاني برقم / ١٦٨٦ / تاريخ ١٩٦١/١٢/١٨ يقضيان بمتابعة الجهود التي تبذل في هذا المضمار .

وكان اتجاه لجنة القانون الدولي عام ١٩٥٩ ان تضع القواعد الناظمة لشؤون المعاهدات الدولية بشكل « مجموعة احكام ذات صفة عامة (Code de caractère général) » وليس بشكل اتفاقية ذات طابع الزامي وذلك تمكينا لاكبر عدد ممكن من الدول من الاخذ بهذه القواعد وتفاديا للحد من عدد هذه القواعد في حال صهرها في صيغة اتفاقية ذات صفة الزامية .

الا ان اللجنة في دورتها الثالثة عشرة عام ١٩٦١ غيرت هذا الاتجاه فدعت مقررها الى وضع مشروع من المواد يكون اساساً لاتفاقية دولية وذلك تحت تأثير اعتبارين اساسيين : اولها ان وضع هذه القواعد في صيغة اتفاقية يجعلها أكثر فعالية ، والثاني ان صهر هذه القواعد في صيغة اتفاقية دولية يعطي للدول الجديدة الناشئة امكانية المساهمة مباشرة في تدوين القانون الدولي ، فتقوم بذلك القواعد الناظمة للمعاهدات على اسس اوسع واكثر ثباتاً .

وقد اقرت لجنة القانون الدولي في دورتها الرابعة عشرة عام١٩٦٢مشروعاً

قدمه اليها مقررها مؤلفاً من / ٢٩ / مادة تناول موضوع « عقد المعاهدات ووضعها موضع التنفيذ وتسجيلها » وقررت استمرار السير على هذا النهج باقتراح مشروعين آخرين في دورتيها القادمتين عام ١٩٦٣ وعام ١٩٦٤ يتناول اولها موضوع « صلاحية المعاهدات ومدتها » ويتناول الثاني « تطبيق المعاهدات وآثارها» أما بشأن ما اذا كان يقتضي دمج هذه المشاريع الثلاثة في متن اتفاقية دولية متعددة الاطراف ، واحدة ، أو وضع كل منها في اتفاقية على حدة ، فقد ارجأت اللجنة البت في هذا الامر لحين الانتهاء من انجاز المشاريع جميعاً .

وناقشت اللجنة السادسة (القانونية) للجمعية العمومية للامم المتحدة في الدورة السابعة عشرة عام ١٩٦٢ هذا المشروع الاول في تقنين القواعد الناظمة للمعاهدات واتخذت قراراً ووفق عليه ايضاً بالاجماع في الجمعية العمومية ، يقضي بالتوصية بمتابعة لجنة القانون الدولي اعمال التقنين التي تقوم بها فيما يتعلق بالمعاهدات على ضوء الملاحظات التي ابديت على المشروع الاول ومع الاستئناس بما ستتقدم به الحكومات من آراء في هذا الصدد .

أما المشروع الثاني المتعلق بتدوين وتقنين القواعد الناظمة لصلاحية المعاهدات ومدتها ويتألف من / ٢٥ / مادة فقد اقرته لجنة القانون الدولي في دورتها الخامسة عشرة وناقشته اللجنة السادسة (القانونية) للجمعية العمومية في الدورة الثامنة عشرة عام ١٩٦٣ ، وقد تضمن القرار الذي اتخذته اللجنة السادسة بشأن هذا المشروع والذي ووفق عليه بالاجماع ايضا في الجمعية العمومية ، شكر لجنة القانون الدولي على الجهد والنتائج التي توصلت اليها في هذا المضمار مع التوصية بمتابعة عملها وأن تأخذ بعين الاعتبار الملاحظات التي ابديت في الدورة الثامنة عشرة للجمعية العمومية على مشروع اللجنة وكذلك الملاحظات التي قد تتقدم بها

الحكومات فيما بعد بصدده ، وذلك كي يقوم عمل اللجنة في تقنين القواعد الناظمة للمعاهدات على اوسع الاسس واكثر وثوقاً .

وتجدر الملاحظة هنا ان لجنة القانون الدولي في مشروعيها المذكورين قد راعت بوضوح التطور التقدمي الحاصل في ميدان القانون الدولي كما تجدر الملاحظة ان مندوبي الدول الحديثة قد ساهموا مساهمة فعالة في تقنين مواد هذين المشروعين فقد انقضى الزمن الذي كان فيه القانون الدولي اداة في يد الدول الكبرى تسير احكامه وفق مشيئتها وما تقضيه مصالحها في معالجة الشؤون الدولية ، واصبحت دول عالمنا الحاضر ، كبيرها وصغيرها ، قويها وضعيفها ، سواسية في وضع القواعد الناظمة لشؤون المجموعة الدولية .

وقد تناولت الملاحظات التي ابداها المندوب السوري على المشروع الاول مواده الخاصة بتعريف المعاهدات والاتفاقات الدولية وبالانتساب الى المعاهدات والاتفاقيات متعددة الاطراف وكذلك المواد المتعلقة بالتحفظات في المعاهدات والاتفاقيات العامة متعددة الاطراف ومدى اثر هذه التحفظات في مثل هذه المعاهدات والاتفاقيات ، بينما تناولت ملاحظاته على المشروع الثاني المبدأ المسمى Principe de la Séparabilité des disbositions des Traités وهو المبدأ الذي يقضي بعدم مساس المعاهدة او الاتفاقية بمجموعها عندما يقع خلاف بشأن مادة او اكثر من موادها ، بل ان يقتصر وقف مفعولها بين الاطراف المتعاقدين على المادة او المواد موضع الخلاف وبذلك تبقى بقية احكام الاتفاقية سارية المفعول بين المتعاقدين .

هذا وقد كان المندوب السوري في العام الماضي قد اظهر فائدة اتباع هذا المبدأ ، بالنسبة للمعاهدات العامة متعددة الاطراف ، وبصدد اثر اعتراض دولة

مافي مثل هذه المعاهدات على تحفظ ابدته دولة اخرى على مادة او اكثر من موادها . ويين انه من الافضل ان يقتصر مفعول هذا الاعتراض على المادة او المواد التي جرى التحفظ بشأنها ، بينما تبقى بقية احكام المعاهدة او الاتفاقية نافذة المفعول بين الدولة المتحفظة والدولة المعترضة ، مالم تكن هذه المادة او المواد — اذا ما استبعدت — مفرغة للمعاهدة او الاتفاقية من اساس مضمونها او كان التحفظ بشأنها لا يتفق والغاية او الهدف المقصود من قيامها . وقد نوه المندوب السوري بفائدة اتباع هـــذا المبدأ ، بصورة خاصة بالنسبة للمعاهدات والاتفاقيات متعددة الاطراف العامة التي من مصلحة المجموعة الدولية ان يصبح طرفا فيها اكبر عدد ممكن من الدول .

كما تناولت ملاحظات المندوب السوري بصدد المشروع الثاني بعض مواده . منها المادتان اللتان خصصتا لموضوعي الخطأ والتدليس في عقد المعاهدات ، والمادة /٣٧/ الخاصة بما يسمى بالـ Jus Cogens Stantibus والمادة/٤٤/ المتعلقة بالقاعدة المسماة Rebus Sic والخاصة بالتغيير الاساسي للظروف التي عقدت فيها المعاهدة او الاتفاقية . ومبررات اعادة النظر فيها نظرا لهذا التغيير .

هذا ومن المرتقب ان تقدم لجنة القانون الدولي مشروعها الثالث المشار اليه اعلاه قبل حلول الدورة القادمة التاسعة عشرة للجمعية العموميـــة للامم المتحدة ، فتكون بذلك قد انجزت المشاريع الثلاثة التي تولت وضعها في هذا الميدان .

٢- العلاقات القنصلية :

ان موضوع « العلاقات والحصانات القنصلية » قــــد ادرج بين المواد

الاربع عشرة التي وضعتها لجنة القانون الدولي عام ١٩٤٩ في دورتها الاولى، والتي تبين لها بصددها ان الحاجة أو الرغبة ظاهرة لتقنينها .

إلا ان هذه المادة لم تعط اولوية معينة بالنسبة للمواد الثلاثة عشرة الاخرى. ولذلك لم تباشر لجنة القانون الدولي بدراستها إلا في دورتها السابعة عام ١٩٥٥ ثم انها لم تتصرف بصورة محدية لهذه الدراسة الا في الدورة الثانية عشـــرة عام ١٩٦٠ حيث عكفت على دراسة تقريري مقررها في هذا الشأن ومشروعه المؤلف من (٦٠) مادة حول هذا الموضوع .

وقد اقرت اللجنة في دورتها الثانية عشرة المذكورة مشروعاً مؤلفاً من (٦٥) مادة ، مرفقاً بتعليقات عليها ، احيل عن طريق الامين العـــام للامم المتحدة الى الدول الاعضاء لبيان ملاحظاتها عليه .

ثم في دورتها الثالثـــة عشرة ، وعلى ضوء الملاحظات التي تلقتها من الحكومات وبعد ان استعانت في عدة نقاط باحكام اتفاقية فينا للعلاقات الدبلوماسية الموقعة في ١٩٦١/٤/١٨ ، درست مواد جديدة تقدم بها مقررها الخاص في هذا الشأن ، فأقرت مشروعاً اخيرا مؤلفاً من (٧١) مادة ومن اربعة فصول تناول اولها ــ بعد المادة الاولى الخاصة بالتعاريف ــ العلاقات القنصلية بصورة عامــة وتناول الثاني التسهيلات والامتيازات والحصانات الممنوحــة للموظفين القنصليين المسلكيين الفخريين أما الفصل الرابع فاقتصر على احكام عامة .

وقد قضى قرار الجمعيـــة العمومية رقم ١٦٨٥ تاريخ ١٩٦١/١٢/١٨ بالطلب من الدول الاعضاء في الامم المتحدة موافاة الامين العام للامم المتحـدة قبل ١٩٦٢/٧/١ بملاحظاتها على المشروع وكذلك بالدعوة الى مؤتمر دولي يعقد في فينا في اوائل شهر آذار ١٩٦٣ لوضع نص نهائي على اساس المشروع المذكور

لاتفاقية متعددة الاطراف من العلاقات القنصلية مماثلة لاتفاقية العلاقات الدبلوماسية الموقعة في فيينا عام ١٩٦١. كما قضى القرار المشار اليه بادراج موضوع « العلاقات القنصلية » في جدول اعمال الدورة السابعة عشر للجمعية العمومية وذلك كي يفسح المجال مرة اخرى امام حكومات الدول الاعضاء لتبدي وجهات نظـــرها ولتناقش مشروع لجنة القانون الدولي المنوه عنه .

واستعرضت اللجنة السادسة (القانونية) للجمعية العمومية هذا الموضوع في دورتها السابعة عشرة عام ١٩٦٢ وقد اكتفى اغلب المندوبين بالاشارة الى وجهات نظر حكوماتهم التي سبق ان قدمتها بشأنه .

أما المندوبون الذين تناولوا أساس الموضوع فقد تعرضوا بصورة خاصة لمواد الفصل الاول المتعلق بالعلاقات القنصلية بصورة عامة ولمواد الفصل الثاني الخاصة بامتيازات وحصانات الموظفين القنصليين ويمكن تلخيص الخطوط الرئيسة لما دار من مناقشات حول هذا الموضوع بمايلي :

آ ـــ اثنى المندوبون على المشروع الذي انتهت اليه جهود لجنة القانون الدولي واكدوا الفائدة التي تراها حكوماتهم في تقنين قواعـــد القانون الدولي تنظم العلاقات القنصلية .

ب ـــ اشير الى أن عقد اتفاقية متعددة الاطراف بشأن العلاقات القنصلية وهي مادة لايتوفر بشأنها الانسجام والتوافق في الاصول المرعية لدى مختلف الدول كمادة العلاقات الدبلوماسية مثلا ـــ سوف يحقق تقدما هاما في ميدان تقنين القانون الدولي ، فضلا عن انه يساعد في تعزيز العــلاقات الودية بين الشعوب والدول في الميادين السياسية والتجارية والاقتصادية والثقافية والعلمية .

ج ـــ اجمع المندوبون على أن المشروع المقدم هو في مجموعه أساس مقبول

لاعمال المؤتمر الذي سيعقد في فينا في اوائل شهر آذار ١٩٦٣ كما أعرب عدد كبير منهم عن موافقته على المبادىء الاساسية التي تضمنها المشروع .

ـ أشار عددمن المندوبين الى أن مواد المشروع قد عكست في خطوطها الرئيسية تطور القانون الدولي بشأن هذه المادة ، وانها بذلك قد حررتها من «نظام الامتيازات الاجنبية» (Regime des capitulations) الذي لازم في الماضي الاعمال القنصلية في بعض انحاء العالم وفي الشرق خاصة ، لتقيم العلاقات القنصلية على أساس من المساواة بين الدول كبيرها وصغيرها .

هـ ـ اختلفت وجهات النظر حول موضوع الحصانات والامتيازات القنصلية اذ بينماذهب البعض الى أن العلاقات القنصلية والعلاقات الدبلوماسية تتضمن نواحي متشابهة ، اكد البعض الآخر أن هذه النواحي المتشابهة لاتعني في ذاتها أن النظامين متماثلان اذ أن الاعمال الدبلوماسية تتميز في الاساس بصفة التمثيل السياسي بينما الاعمال القنصلية تتصف بصفة التمثيل الاقتصادي والتجاري .

هذا وقدشارك المندوب السوري في وضع النص النهائي للمشروع المذكور وقد تناولت ملاحظاته موضوع «الوكلاء القنصليون» Agents Consulaires المشار اليهم في المادة الاولى والتاسعة من المشروع ، ومهمة القنصل فيما يتعلق بعقد الزواج بين رعايا دولته ورعايا الدول الاخرى ، موضوع المادة الخامسة من المشروع ، كما تناولت هذه الملاحظات احكام الفقرة الاولى من المادة (١٥) الخاصة بممارسة المهام القنصلية بصورة موقتة من قبل احد موظفي القنصلية الاداريين أو الفنيين مع الاشارة الى ضرورة موافقة الدولة المعتمدة لديها القنصلية في هذه الحالة والى ضرورة حصر الصلاحيات الممنوحة الى مثل هؤلاء الموظفين بما هو ضروري لممارسة عملهم ، كما تناولت ملاحظات المندوب السوري احكام الفقرة الثانية من

المادة نفسها والمادة (٢١) مع تأكيد ضرورة اتصال رئيس البعثة القنصلية ليس مباشرة مع وزارة خارجية الدولة المعتمد لديها كما جاء في المشروع بل عن طريق البعثة الدبلوماسية التابع اليها القنصل ان وجدت وتعرض المندوب السوري الى المادة (٣٧) من المشروع الخاصة بواجبات الدولة المعتمدة لديهـــا البعثة القنصلية وأضاف الى هذه الواجبات وجوب اخطار البعثة القنصلية بشأن أي اجراء يتخذ حيال اية طائرة او مركب بحري او نهري يحمل جنسية دولة البعثة كما تعرض الى احكام المادة (٦٠) من المشروع الخاصة بمنح الحصانة اللازمة للسجلات والوثائق التابعة لقنصلية يشرف عليها قنصل فخري فأكد ضرورة وجود هذه السجلات والوثائق في اماكن معزولة عن بقية المعاملات الخاصة بالقنصل الفخري .

وكانت الجمهورية العربية السورية من بين الدول التي اشتركت في مؤتمر فينا بتاريخ ١٩٦٣/٣/٤ والذي انتهى الى وضع اتفاقية فينا للعلاقات القنصليـة بصيغتها النهائية ومن الملاحظ ان معظم الملاحظات التي ابداها المندوب السوري على مشروعها الاخير قد اخذت بعين الاعتبار . وقد ضمت هذه الاتفاقية ٧٩ مادة أما فصولها فهي الفصول الاربعة نفسها التي وردت في المشروع الاخير للجنـــة القانون الدولي .

وقد الحق بالاتفاقيـــة بروتوكولان احدهما خاص بالجنسية ويقول بأن اعضاء البعثة القنصلية وافراد عائلاتهم ، الذين لايحملون جنسية الدولة المضيفـــة لايكتسبون جنسيتها حكما عملا بأحكام تشريعها ، والثـاني خاص بحل المنازعات التي تنشأ عن تفسير أو تطبيق احكام الاتفاقية باللجوء الى محكمة العدل الدوليـة ومن الملاحظ ان مندوبي المجموعة الاسيوية — الافريقية هم الذين تقدموا باقتراح هذا البروتوكول خـــروجاً من المأزق الذي اعترض اعمال المؤتمر اذ ان دول

الكتلة الشرقية وبعض الدول الاخرى لا تعترف بالاحتكام الالزامي لمحكمة العدل الدولية وهي بالتالي لا توافق على أن ينص على ذلك في صلب الاتفاقية كما جاء في مشروع لجنة القانون الدولي .

هذا وان الدوائر السورية المعنية عاكفـــة على دراسة موضوع انضمام الجمهورية العربية السورية الى هذه الاتفاقية والى اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية الموقعة في ١٨/٤/١٩٦١ مشاركة بذلك بقيـة الدول في اقرار هذه النصوص الهامة الناظمة لهاتين المادتين الرئيستين من مواد القانون الدولي .

٣ ـ مبادىء القانون الدولي المتعلقة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقا لميثاق الامم المتحدة .

يرجع تاريخ هذا الموضوع للدورة الخامسة عشرة للجمعية العموميـــة للامم المتحدة حيث قضى قرارها رقم ١٥٠٥ تاريخ ١٢/ ١٢ / ١٩٦٠ بادراج موضوع « الاعمال المتعلقة بميدان تدوين وتقنين القانون الدولي وتطوره التقدمي » في جدول اعمال الدورة السادسة عشرة للجمعية العمومية ، وبـــدعوة الدول الاعضاء لتقدم خطياً الى الامين العام للامم المتحدة ما ترغب تقديمه من آراء وملاحظات في هذا الخصوص لتكون موضع دراسة الجمعية العمومية .

وكان من بين الآراء التي ارسلت الرأي القائل بتقنين مفهوم التعايش Coexistence على اساس مبادىء التعاون السلمي بين الامم المتحدة وفق ما جاء في مقررات مؤتمر باندونغ . وقد استعرضت اللجنة السادسة (القانونيـــة) هذا الموضوع في الـــدورة السادسة عشرة للجمعية العمومية ، فتقدمت كل من : افغانستان ، كومبوديا ، سيلان ، غانا ، اندونيسيا ، العراق ، ليبيا ، مالي ، الجمهورية العربية المتحدة ، رومانيا ، تشيكوسلوفاكيا ، يوغوسلافيا بمشروع قرار اقترحت

فيه ادراج « دراسة مبادىء القانون الدولي المتعلقة بالتعايش السلمي » بين الدول، في جدول اعمال الدورة السابعة عشرة للجمعية العمومية ، بينما تقدمت كل من شيلي ،داهومي ، الولايات المتحدة الاميركية ، اليونان ، ايرلنـــدا ، اليابان ، الباكستان ، تركيا . بتعديل على مشروع القرار المذكور يهدف الى استبـدال « التعايش السلمي بين الدول » بعبارة « العلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقاً لميثاق الامم المتحدة » وقد قبل اصحاب مشروع القرار هذا التعديل على نص مشروعهم ، فاقر بالاجماع وقضى قرار الجمعية العمومية رقم ١٦٨٦ تاريخ ١٨ - ١٢ - ١٩٦١ بادراج هذا الموضوع في جدول اعمال الدورة السابعة عشرة للجمعية العمومية .

ناقشت اللجنة السادسة في دورة الجمعية العمومية للامم المتحدة السابعة عشرة هذا الموضوع مناقشة علمية مستفيضة انتهت منها الى القرار رقم ١٨١٥ تاريخ ١٩٦٢/١٢/١٨ والذي قضى بما يلي :

(أ) اقرار المبادىء السبعة الآتية في ميدان العلاقات الودية والتعاون بين الدول وهي :

— مبدأ عدم اللجوء الى التهديد أو استعمال القوة ضد حرمة الاراضي أو الاستقلال السياسي لاية دولة او اتباع اية طريقة اخرى لا تتفق واهداف الامم المتحدة.

— مبدأ حل المنازعات الدولية بالطرق السلمية .

— مبدأ عدم التدخل بشؤون دولة اخرى عملاً بميثاق الامم المتحدة .

— مبدأ وجوب تعاون الدول فيما بينها .

— مبدأ المساواة في الحقوق وحرية تقرير مصير الشعوب .

— مبدأ مساواة الدول بالسيادة .

— مبدأ قيام الدول بحسن نية الالتزامات التي ارتضتها وفقاً للميثاق .

(ب) ادراج المبدأ الاول والثاني والثالث والسادس في جدول اعمال الدورة الثامنة عشرة القادمة لتكون موضع دراسة ، وتعيين مبادىء اخرى يقتضي دراستها في دورات لاحقة مع ترتيب اولويتها .

تابعت اللجنة السادسة في الدورة الثامنة عشرة للجمعية العمومية دراستها للموضوع وقد ظهر في جلساتها الاولى اتجاهان مختلفان بين منـــدوبي الدول ، **أما الاتجاه الاول** ويتزعمه الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وتدعمه الدول الشيوعية فهو يدعو الى اقرار اعلان (déclaration) يتضمن تعيين تسعة عشر مبدأ متعلقة بالتعايش السلمي ويدعو الى التعجيل في تقنين وتدوين هذه المبادىء بحيث يتم انجاز هذا العمل في الدورة التاسعة عشرة للجمعية العمومية للامم المتحدة ، **واما الاتجاه الثاني** وتتزعمه الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا فهو ينادي بأن تجري دراسة كل مبدأ من المبادىء الاربعة المشار اليها في القرار رقم ١٨١٥ على التوالي بكل ترو وعدم التسرع في صياغة أي تقنين في الوقت الحاضر لهـــذه المبادىء الى أن تتم دراسة عميقة لكل مبدأ وبعد أن تعين المبادىء الاخرى التي يقتضي تقنينها مع الاخذ بعين الاعتبار مسلك الدول بشأنها وضرورة توفر اوسع قاعدة لها في ميدان التعاون بين هذه الدول .

وقد حاول مندوبو دول عدم الانحياز التوصل الى حل وسط بين الاتجاهين المذكورين فتقدموا بمشروع قرار تضمن مايلي :

— تسمية لجنة خاصة مؤلفة من الدول الاعضاء يراعى في تسميتها مبدأ التمثيل الجغرافي العادل وضرورة تمثيل النظم القانونيـــة الرئيسية في العـــالم ، وتكون مهمتها وضع تقرير يتضمن **اقتراحاتها بشأن التطور التقدمي للمبادىء الاربعة المنصوص عنها في القرار / ١٨١٥ / وتقنينها .**

— اجتماع هذه اللجنة منذ الدورة الحالية والتقرير عن اعمالهـــا الى الجمعية العمومية للامم المتحدة في دورتها القادمة .

— دراسة الجمعية العمومية في دورتها القادمة فضلا عن هـــذا التقرير المبادىء الثلاثة الاخرى المشار اليها في الفقرة الاولى من القرار /١٨١٥/ وهي : مبدأ وجوب تعاون الدول فيما بينها وفقا لميثاق الامم المتحدة ومبدأ المساواة في الحقوق بين الشعوب وتقرير مصيرها بنفسها ومبدأ قيام الدول بحسن نيـــة بالالتزامات المترتبة عليها وفقا للميثاق .

ثم ادخلت بعض التعديلات على هذا المشروع تناولت مهمة اللجنة الخاصة بحيث تكون « وضع تقرير يتضمن نتائج دراستها وتوصياتها في سبيل التطور التقدمي للمبادىء الاربعة وتقنينها » (بدلا من اقتراحاتها كما جاء في صيغة المشروع الاول) ، كما تناولت تاريخ مباشرة اعمال اللجنة فاصبح هذا التاريخ في اقرب وقت ممكن « بدلا من المباشرة في هذه الدورة » وبعد ادخال هذه التعديلات ثم قبول المشروع بالاجماع .

شارك المندوب السوري في دراسة المبادىء الاربعة المشار اليهـا اعلاه فاوضح بالنسبة الى كل منها ضرورة الاخذ بعين الاعتبار التطورات التي طرأت على عالمنا الحاضر منذ توقيع ميثاق الامم المتحدة عام ١٩٤٥ ملاحظا بان المبادىء التي يزمع تقنينها وتدوينها لا بد لها لـكي تفي بالغاية فتساعد على التطور التقدمي للقانون الدولي وعلى تعزيز العلاقات الودية بين الدول من ان تراعي هذه التطورات .

كما استعرض بالنسبة لـكل مبدأ بعض العناصر الاساسية التي يجب ان يشتمل عليها ومراحل تكوينه وتطوره ومدى تقبله في المجموعات الدولية المختلفة القائمة في عصرنا الحاضر مشيراً بصورة خاصة الى مقررات مؤتمر باندونـغ والى

مؤتمر بلغراد لدول عدم الانحياز (١٩٦١) والى احكام منظمة دول امريكااللاتينية والى منظمة الوحدة الافريقية (١٩٦٣) والى منظمة جامعة الدول العربية وذلك لاظهار الركائز الواسعة التي تقوم عليها هذه المبادىء في المجموعة الدولية والتي اصبحت تسمح بتقنينها .

لقد حاولت فيما تقدم ان انقل الى القارىء العربي المتتبع لدراسة القانون الدولي والشؤون الدولية صورة موجزة وواضحة للظاهرة التي اشرت اليها في مستهل هذا البحث والتي بدت في تدوين وتقنين مواد القانون الدولي وما ذلك الا لالفت انتباهه الى اهمية هذه الخطوة الجريئة في سبيل تقدم القانون الدولي وتطوره والتي ترمي الى وضع قواعد ثابتة وناظمة لأهم مواده فلا يترك الامر بشأنها لاراء واجتهادات رجال القانون الدولي وفقهائه وقرارات المحاكم المختصة فحسب ، التي غالباً ما يتباين بصددها الرأي ، ويختلف الموقف ، ومما لاشك فيه ان وضع هذه القواعد المدروسة التي تجمع على اقرارها الدول المعنية والتي تشارك في وضعها الدول الحديثة ، له أهميته الكبرى اذ يساعد على تعزيز العلاقات الودية بين الدول وعلى تحقيق التعايش السلمي المنشود فيما بينها .

العرب بين الفتوح والتحرير

بقلم سلامة عبيد

الفتوح العربية او فتوح البلدان ، تعبير لايزال يطلق على تلك الانطلاقة العربية الفكرية والعسكرية في فجر الاسلام ، تلك الانطلاقة الهائلة المتدفقة التي غمرت بحضارتها وراياتها اوروبا الجنوبية الغربية وكل اواسط آسيا .

في رأيي ان هذه المرحلة من تاريخ العرب لا يصح ان تعتبر مرحلة فتوح بقدر ماهي مرحلة تحرير وفتوح معاً .

ان دقة التعبير والامانة التاريخية والاخلاص لقوميتنا تستوجب جميعها ان نميز بين التحرير وبين الفتح ومن

ثم أن نميز بين حركات الشعوب المغلوبة ، لا على أساس العصيان والتهديم والمجوسية والشعوبية فحسب بل على أساس من المشاعر القومية أيضاً .

كان الفرس يسيطرون على العراق العربي قبل الاسلام ، وكانت القبائل العربية بل الامارات والممالك العربيـة في العراق تنتقض على حكامها الاعاجم في محاولات استقلالية متكررة يائسة ، ولا أدل على ذلك من وقعة ذي قار الشهيرة ، فلماذا يريد لنا المؤرخون ، عن تقليد أو قصد أو عن عدم دقة ان نعتبر اجـــلاء السيطرة الفارسية عن أبناء قومنا في العراق فتحاً Conquête في حـين تستوجب الامانة والدقة والحقيقة القومية ان تكون تلك المعارك تحريراً Liberation .

وفي الشام كان الرومان ، حتى الرومان ، يطلقون على المنطقة الجنوبيـة والوسطى من سورية باسم الايالة العربية أو الولاية العربية Provincia Arabia . وكان الغساسنة العرب ملوكاً وحكاماً في ظـــل النسر الروماني ، وكان الشعراء العرب يفـــدون اليهم من الجزيرة يمدحونهم بكل ما في العرب من مكارم ومن اعتزاز بالانساب والسيادة .

وفي تدمر ، لاتزال آثار المملكة العربيـــة تأخذ بالالباب وتوحي بتلك الحضارة الرائعة والعظمة ، ولاتزال اصداء ثورة زنوبيا الاستقلاليـة تدوي في ارجاء سورية بل في ارجاء العالم كله .

فلماذا نظل نعتبر الموجة المنطلقة من شبه الجزيرة ، العارمة بالايمـان ، المتفانية في سبيل تبليـغ رسالتها ، موجة فتوح ، ونتناسى بلامبالاة فاضحة انهـا موجة تحرير لأبناء العمومة والخؤولة، واستعادة لسيادة عربية فوق ارض عربية ؟! —

اما اذا سمحنا لأنفسنا ان نعتبر العرب دخلاء على سورية وعلى العراق كانت

كلمة « فتوح » هي الأولى . فهل نريد لأنفسنا ان نظل ننظر الى حركة التحرير العربية الكبرى في فجر الاسلام على انها حركة فتوح في سورية والعراق ؟!
لا اعتقد ذلك .

وعندما تجاوزت الجحافل العربية برزخ السويس متجهة نحو المغرب ، لم يكن الرومان هم سكان البلاد الاصليين بل كانوا حكاماً احتلوا البلاد بحد السيف، أما السكان اصحاب البلاد الاصليون فهم ليسوا من الرومان على كل حال ، في حين تؤكد كل الدلائل ومن ثم النتائج ان قسما منهم ، من حيث العنصر والمصدر ينتمي الى مصـــادر عربية بدوية استقرت بعد ترحال كبني سليم وبني هلال او ساحلية ركبت البحر لتبني حضارة جديدة وامجاداً تاريخية على شواطىء قرطاجه حيث لم القائد الذائع الصيت هانيبال او بالاحرى « هاني بعل » .

ان العرب حتى في شمال افريقيا لم يكونوا فاتحين بل محررين .

ومع ذلك فقد يتساءل الكثيرون وعلى الاخص المغرض من المؤرخين :
واذا سلمنا جدلاً ، قد يزعم هؤلاء ، بان العرب المسلمين كانوا في المشرق والمغرب العربي محررين فلماذا تحولوا الى فاتحين يحطمون سيادة اقوام اخرى ليقيموا عوضاً عنها سيادة دخيلة على تلك الاقطار الشاسعة المختلفة عنها في لغاتهـا واجناسها ومذاهبها ؟ ..

في الحقيقة ان الفتح هو الفتح ولا يمكن الهروب من التاريخ ، الا ان الرد على هؤلاء يمكن ايجازه .

١ـ بان روح العصر كانت هي روح الفتوح والغلبـة المطعمة بشيء من الفروسية وان كنا لا نصدق مثلا ان الاسبان هم الذين زينوا للعرب دخول بلادهم واحتلالهـا .

٢ ـ بان العرب كانوا اجمالا على كثير من مكارم الاخلاق في تعاملهم مع الشعوب المغلوبة حتى عرفوا بانهم ارحم الفاتحين .

٣ ـ كان العرب في فتوحاتهم يصدرون عن مثل روحية آمنوا بها فعلاً وقاتلوا من أجلها فعلاً ، كانوا يشعرون ويثقون بأنهم اصحاب رسالة روحية ، ولم يلاحظ اجمالاً في فتوحاتهم أنهم تساهلوا في هذه الرسالة أو تهاونوا بها على حساب مطامع استعمارية توسعية .

وبالرغم من كل ما امتازت به الفتوحات العربية نسبيا من رحمة وحسن معاملة ، لايجوز لنا اليوم ان نظل نهذي بتلك الفتوحات وان تظل تربيتنا التاريخية مصممة في توجيهها الضمني على استعادة « ايامنا بالخليج وليالينا .. » كما أنه لم يعد يجوز لنا أن نستغرب ان يكون الفتى العربي في شعب « بوان » « غريب الوجه واليد واللسان » ...

وفي رأيي انه لم يعد يحسن بنا أن نربي ابناءنا على غرار بعض القبائل العربية في « غينيا » التي لاتزال تعلق في ظهور الذكور من اطفالها مفاتيح لبيوت وهمية في الاندلس مسقط رأس اجدادها القدامى .

ان عهد الفتوحات فترة من أبرز وأعظم فترات التاريخ العربي الاسلامي الا انه لم يعد من اللائق ان تظل معالجتها التاريخية ولاسيما في كتبنا المدرسية بتلك الروح التي تبدو متعطشة الى ان تعيد فتحا وهميا عدائيا آخر .

من هذا يمكن الوصول الى حقيقة تاريخية اخرى نتجاهلها عمداً ، بل أن مؤرخينا يشوهونها ويظلمونها وهي ان الاقوام التي غلبها العرب على امرها ظلت رغم كل ما عرف عن العرب من مودة وتسامح وعمران وتطلع الى الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، ظلت تلك الاقوام تكافح من اجل استعادة سيادتها القومية

أو المحلية على ارضها واتهمت بنكث المواثيق والعهود والغدر .

قد يكون كثير من تلك التهم صحيحاً في واقعه الا أن العوامل الخفية لمقاومة الحكم العربي عن وعي أو عن تحسس كانت عوامل ودوافع قومية في أعماقها من حقنا كمؤرخين صادقين قوميين ان نمنحها شيئاً من الانصاف وان نعيد اليها بعض اعتبارها فليست كل تلك الحركات سبة في جبين الدهر والتاريخ لأن في اعماق بعضها بذور تحرر لا يجوز ان ننكرها او نحقد عليها .

ان الروح العربية القومية الأنسانية تدعونا الى ان نعيد النظر في اسلوب وروح التاريخ العربي حتى لاتتحول معارك التحرر الى فتوح وانتفاضات الشعوب المغلوبة الى اعمال تخريب واباحية، وحتى لاتنشأ الاجيال العربية تنشئة متلبسة بالفاشية .

ان تحرير الوطن والحفاظ على استقلاله ووحدة ترابه وتماسك ابناء شعبه شيء والتحريض المبطن على الفتح والامبريالية شيء آخر



الطريق إلى النجوم *

للمهندس حيدر طرابلشي

— ٣ —

منذ قديم الزمان والانسان يتجه بانظاره الى الكواكب السابحة في الفضاء الواسع المحيط بارضه التي يعيش عليها . منذ الأزل وهو يحاول أن يتعرف الى هذه الأجرام السماوية ويحاول أن يربط بين وجودها وبين الكوكب الهادىء البارد الذي يعيش عليه ، فعاداها حينا وراضاها حينا وعبدها احيانا اخرى ، وهو في كل طور من أطوار توجهه اليها كان يعمل على كشف سر ماهيتها وسر علاقتها به. ولم يفتأ يتوسل بالسبل الفعالة لمشاهدتها عن قرب فاستعمل المجاهر المكبرة وانشأ المراصد الضخمة وسهر يراقب حركتها وتنقلاتها . ولكنه لم يقتنع بمشاهداته عن بعد وتخميناته التي توحيها اليه هذه المعلومات فقرر الاقتراب منها وركب من أجل ذلك الصاروخ وخاطر بحياته في القرن العشرين ليقترب منها ما استطاع وليرى واقعها وطبيعتها .

(*) الحلقتان الاولى والثانية من هذا البحث نشرتا في عددي (المعرفة) رقم ٢٤ ورقم ٢٥

وقد تكلمنا حتى هـــذه المرحلة عن الاخطار والصعوبات التي تنتظر الانسان المسافر في قمر صنعي على عتبة الفضاء وذكرنا ان الشروط الاولية لحفظ دورة حياة الانسان في سفينة الفضاء يمكن تحملها بالرغم من انهـا مفصلة وصعبة جدا . على ان هناك عدة مشاكل لاتزال بدون حل اولها عودة الانسان الى الارض من سفينـــة الفضاء سالما ، وهذا مايسمى بمشكلة العودة (Re-entry problem) . لقد برهن انه من السهل استعادة أي كائن حي من صواريخ على ارتفاعات عالية جدا اطلقت في بلاد عديدة ، لان الصاروخ يبدأ بالاتجاه الى الاسفل في طريق عودته الى الارض في اللحظة التي تستهلك فيها سرعته المكتسبة بتاثير قوة الجاذبية الارضية . لقد اوحت هذه الظاهرة استعمال المظلة العادية ولكن يجب ان نلاحظ ان هناك فرقا كبيرا بين القفز بالمظلة من ارتفاع (١٥) كيلومتراً وارتفاع (١٥٠) كيلو متراً . وهذا الفرق لايعني الفرق بين زمني الهبوط فقط بل يعني ان قوة الشد في الطبقات الاولى من الهواء الملاصق لوجه الارض اي (الستراتو سفير) كبيرة بحيث تكفي ان تحفظ سرعة جسم يهبط خلالها هبوطا حرا من الوصول الى سرعات كبيرة وبذلك يستطيع الانسان تحمل اللحظة التي تتغير فيها سرعة هبوطه بافتتاح المظلة .

ويمكن اعتبار القفز من ارتفاع (٣٠٠) كيلو متر قفزا متأخرا (Delayed jump) لسبب بسيط وهو ان كثافة الهواء على هذا الارتفاع منخفضة ولا نستطيع تعديل سرعة هبوط الجسم . كما ان تسارع جسم يسقط سقوطا حرا لايمكن الغاءه بلطف بواسطة مظلة عادية . لذا فقد وجد ان احسن طريقة للتخلص من الخطر هو ان تطلق المظلة الى الخلف (Retro Firing) من الصاروخ الذي يتجه نحو الارض بسرعة عظيمة .

ولقد اصبحت هذه الطريقة معروفة ومتعارفاً عليها في الطائرات النفاثة .
ان مقاذف (Catapults) ومظلات مصممة تصميما جيدا يمكن ان تعيد الكلاب والقردة ، التي تحملها الصواريخ الى اعالي الفضاء حية وبصحة جيدة الى الارض . كما تستطيع هاتان الاداتان مجتمعتين اعادة الاجهزة الدقيقة كالسبكتروغراف (Spectrograph) وغرف الغيوم (Cloud Chamber)والصفائح الفوتوغرافية (Photographic Plates) سالمة الى الارض من ارتفاعات عالية جدا .

وهكذا نرى انه اصبح من السهل اعادة الحيوانات الى الارض من صواريخ تسير بسرعة كيلو متر الى كيلو متر ونصف في الثانية ، كما ان القفز من ارتفاع يتجاوز (٤٥٠) كيلو متراً قد اصبح ممكنا في جميع الاحوال الجوية . وحتى من صواريخ تدور بسرعة عظيمة . ولكن استعادة سفينة قد اخذت مدارها حول الارض بسرعة لا تقل عن (٨) كيلو مترات في الثانية مسألة تختلف كل الاختلاف عما تقدم من المشاكل لان المظلات لن تكون كافية للتخلص تدريجيا من سرعة كالتي ذكرناها والتي يمكن ان تكون منتظمة في الحدود العليا من محرك القذف وفي جو اكثف . للاسباب المذكورة فقد اوجد العلماء والمهندسون طرقاً فنية عدة لتخفيف التسارع . واحدة من هذه الطرق تنصح بمركبة شراعية تساعدها اشرعتها (اجنحتها) فتخلق قوة رفع تجعلها تتبع طريقا طويلا ومتدرجا في الهبوط .

ولكن يعترض تصميم طائرة تطير بسرعة فائقة صعوبات جمة . ويعترض التحكم بطيرانها لمسافات تتجاوز مئات الآلاف من الاميال صعوبات اكبر . لذا فقد لجأ مصمموسفن الفضاء الى امكانية اخرى وهي استعمال صواريخ العودةذات

الدفع العالي (High Thrust Retro - Rocket) في المرحلة الاولى من دخول سفينة الهواء محراك طريق عودتها .

وهنا يجب ان نلاحظ عاملين اساسيين عند استعمال صواريخ العودة ذات الدفع العالي وهما الحاجة الى توجيه اصلي دقيق عند بدء اطلاق صاروخ العودة والحرارة الكبيرة التي يتعرض لها الصاروخ من نتيجة احتكاكه مع الهواء والتي تبلـــغ (١٠٠٠) الف درجة مئوية .

اما المشكلة الاولى وهي التوجيه الاصـــلي لصاروخ العودة فيمكن الحصول عليه باستعمال محرك نفاث صغير قادر على ادارة الطائرة في الاتجاه المطلوب او باستعمال جيروسكوبات ضخمة تغير عدد دوراتها لتقوم بتوجيه الطائرة في الاتجاه المطلوب . ويتحكم بهذه الادارات القيادية بواسطة جيرويات (Gyroscopes) حاكمة ستوصف في مكان آخر من هـــذه السلسلة او بواسطة خلايا كهروضوئية (Photo - Sensitive) قادرة على ادارة المركبة الى الزاوية المطلوبة بالنسبة للشمس التي تشكل قائداً موثوقاً به .

ولقد استطاع العلماء ايجاد بعض المواد القادرة على تخفيف الحرارة الناتجة عن الاحتكاك ولهذه المواد توصيل حراري منخفض جداً وسعة حرارية كبيرة جداً ، ويمكن تصاعدها عن سطح المركبة بدرجات حرارة عالية جدا . وهـذا التبخر للمواد هو واحد من الطرق الرئيسية لنشر الحرارة ، بينما التوصيل الحراري المنخفض يجعل بالامكان تأمين شروط حرارية مقبولة نوعاً داخل القمرة اثنـاء هبوطها السريع جداً .

ولكن قبل ان تحل مشكلة اعادة سفن الفضاء في سنة (١٩٦٠) كان العلماء يعتمدون على الاتصالات اللاسلكية والالية البحتة (Automation) للحصول على المعلومات المطلوبة في ابحاث الفضاء .

وقد كانت الاجهزة الالية البحتة مع اجهزة الارسال اللاسلكية هم (المسافرون) في الاقمار الصنعية لاجراء تجارب فيزائية عديدة . ولم يكن هناك اى مبرر لوضع اى جهاز علمي في هذه الاقمار اذا لم يتمكن المختصون من تأمين الاتصال اللاسلكي الدائم على المسافات مابين الكواكب . كما لا يمكن ان نتجاهل ابداً اهمية الاتصال الدائم مع رواد الفضاء في الاقمار الصنعية الحديثة .

ولقد كانت الخطوة الوسيطة في سبرغور الفضاء هي استعمال مراكب فضائية ارسل فيها حيوانات يتحكم بمسارها من الارض ومجهزة بكاميرات تلفزيونية . اما شروط المواصلات الرديوية مع الاقمار الصنعية واحتمال تأثير التداخلات غير المرغوب فيها فقد عرف عنها الكثير قبل بدء عهد الاقمار الصنعية بواسطة الصواريخ التي تذهب الى ارتفاعات عالية جدا .

ولقدوجد ان مشاكل المواصلات اللاسلكية تنحصر في الجو حول الارض وبكلمة ادق في المنطقة الخاصة التي نسميها بالاينوسفير . وهذه الطبقة المتأنيةوالتي يبلغ ارتفاعها عن سطح الارض بين (٧٠) كيلومتراً و(٣٠٠) كيلو متر هي الطبقة الصعبة على انتشار الامواج الرديوية . ويتغير حال هذه الطبقة وبالتالي تأثيرها على المواصلات اللاسلكية مع الزمن . ويجب ان ندرك تماماً انه ليس باستطاعة اية موجة رديوية اختراق الاينوسفير .

بل ان الامواج الرديوية المتناهية في القصر (Ultra Short wave) والتي يقل طولها عن (٢٠) متراًهي وحدها تستطيع المرور خلاله على شرط ان يكون شعاع الموجة يتبع خطا عموديا على سطح الاينوسفير .

اما أذا شكل الشعاع زاوية مع سطح الاينوسفير فانه ينكسر بشدة عند اصطدامه به ومن ثم ينعكس ليعود الى الارض . اما بعد ان تجتاز الامواج هذه

المنطقة وتصل الى الفضاء بين الكواكب فانها تسير على خط مستقيم لا يعترض طريقها عارض وتتلاشى تدريجيا كلما بعدت عن مصدرها .

ولقد كانت اجهزة الارسال التي استعملت مع السبوتنيك الروسي الاول ترسل اشاراتها على امواج متناهية في القصر اطوالها بين (٧,٥) متر و (١٥) متراً ولقد كان من السهل سماع الاشارات ليس في الاجهزة الخاصة والمعدة لهذا الغرض فقط بل في اجهزة استقبال الهواة . من هنا نشعر بأنه ليس هناك صعوبة خاصة في حل مشكلة المواصلات الرديوية بين الكواكب .

اما المدى الذي يمكن ان تستعمل عليه هذه الطريقة للمواصلات اللاسلكية فيتوقف بصورة اولية على استطاعة جهاز الارسال .

ولقد برهنت تجارب الاقمار الصنعية ان حالة الاينوسفير وبالتالي جودة المواصلات وانتشار الأمواج المتناهية في القصر يحددها النشاط الشمسي وبكلمة ادق يحددها وجود او عدم وجود الانتشارات (السيلية) وجداول الجزئيات (Corpuscular Stream) التي سنبحث امرها في المستقبل من هذه السلسلة .

المملكة الآلية والسيبرنتيك(١)

لولا التوجيه الآلي الموثوق به كل الثقة لكان من المستحيل ان تصل اية مركبة من مراكب الفضاء الى مدارها حول الارض . ولم يصل من الصواريخ الى المستوى الذي يسمح بارسال انسان في صاروخ الا حديثا جدا . ولكن على اية حاله فان طاقم كامل من رجال الفضاء لا يكفي لملاحة سفينة فضائية وايصالها الى مدارها حول الارض ، والسبب هو ان الزمن الفاصل بين لحظة انطلاق السفينة ودخولها في مدارها حول الارض زمن قصير جداً بالاضافة الى التحكم

(١) السيبرنتيك (Cybernetics) احدث العلوم قاطبة ويبحث في طرق ارسال المعلومات وتخفيضها والتحكم الآلي بالاجهزة والادوات .

الدقيق جداً والقياسات الآنية التي يجب اخذها بعين الاعتبار والتي تحدد اتجاه وسرعة الصاروخ دائماً .

ويكفي ان نذكر ان دقة الاطلاق المطلوب لا تسمح بأن يكون هناك خطأ يتجاوز درجة واحدة في توجيه الاطلاق ولا تسمح بأن يتجاوز الخطأ في التسارع كسور بالمائة منه .

وبرنامج التحكم بمسار واطلاق وابطال وتنفيذ مراحل القذف يجب ان تحضر مقدماً كما يجب ان تتابع وتنفذ بدقة لتأمين احسن مردود ممكن للمحروقات ولتخفيف الحرارة الناتجة عن الاحتراق . كما يجب ان يكون المسار الاولي للصاروخ في اكثف منطقة من مناطق الجو مساراً عمودياً بينما دخوله في مداره يجب ان يكون افقيا . اما بين هذين الوضعين فمن المستحسن ان يترك الصاروخ يسير حسب قوته بحيث يخرج من الطبقات الجوية الاولى قبل ان يكتسب سرعته الفضائية .

ولكن اصعب مشكلة هي ان تحمل الصاروخ ذكيا الى حد يصبح باستطاعته تصحيح اي انحراف في الوقت المناسب عن مساره او سرعته الذي قد تسببه احد العوامل الخارجية او الداخلية الكثيرة جدا والتي لا يمكن التنبؤ بها مقدما . وهذه المتطلبات تفرض تسليم حاكم التوجيه (Steering Control) الى مجموعة من الاجهزة يجب ان تفوق رجل الفضاء في دقتها وسهولة ادارتها والاعتماد عليها .

ولهذا السبب يعزى فضل تطوير فنون توجيه الصواريخ الى مايسمى بالطيارين الآليين (Robot Pilots) الذي انتجه صناع الطائرات . والقطع الرئيسية في هذه الاجهزة هي مايسمى بالادوات الجيروسكوبية (Gyroscopic Devices) التي تستعمل خاصتين متلازمتين من خواص الجيروستات (Gyrostat) وهما التاليتان :

١ ـ حفظ الجيروسكوب لاتجاه محوره الدوار حكما في الفضاء دون ان يتأثر بالقوى الخارجية او تسارع الصاروخ الحامل .

٢ ـ تفاعله مع مايسمى بعلم الفلك بالاستقبال (Precession) وهي عملية دوران محاوره ببطء حول مساره الاصلي عندمايؤثر عليه بقوة خارجية.

ويمكن استخلاص الفائدة من الخاصة الاولى بأنها تساعد الجيرو(١) على التحكم بنسبة مدخل تصليح الانزياح عن المحراك الاصلي ، بينما الخاصة الثانية تستعمل في جمع ازدياد تسارعات الصاروخ لقياس سرعته الحقيقية في كل لحظة .

ان هناك اجهزة اكثر تعقيدا مما سبق شرحه كالجهاز المسمى التابع الآلي للنجوم (Automatic Star Tracker) وهو يعين احداثيات الصاروخ بالنسبة لنجم ويقيس باستمرار المسافة التي قطعها الصاروخ من نقطة انطلاقه وبحسب موضعه الافقي.

وبصرف النظر عن براعة الطيار الآلي فان كل مايستطيع عمله هو حل نصف مشكلة التحكم بمحراك الصاروخ وادخاله في مساره حول الارض . اما النصف الثاني من المشكلة فهو التحكم بالاجهزة المركبة في الصاروخ جميعاوارسال المعلومات الى الارض .

والغاية من التحكم باجهزة القياس هو تحقيق البرنامج الموضوع للابحاث

---

(١) الجيروسكوب: يطلق هذا الاسم على أجسام شكلها كروي أو دولابي أو اسطواني مركبة بعضهامع بعض بشكل يجعلها حرة الدوران في أي اتجاه . وهذه الاجسام تستعمل إما لاستعراض هذه الخاصة — خاصة دوران الاجسام الحرة — أو لتمكين الانسان من الشعور بحركاته في الفضاء . وللجيروسكوب — وتعني الصلابة في الفضاء (Rigidity in space) تطبيقات كثيرة اخرى ويسمى الجيروستات عندما يكون محدوداً في دورانه الا حول محور واحد الى جانب محور دورانه الاصلي . يستعمل في الطيران الآلي ويسمى طيار اجيرو (Gyropilot) كما تستعمل الجيرويات في الدفعية المضادة للطائرات للتنبؤ بوضع الهدف بعد معرفة زاوية السمت وزاوية النظر .

الطبيعية وفحص أعمال بعض الاجهزة وابطال عمل بعضها الآخر حسب تغير بعض الشروط الفيزيائية وحسب تغير المحيط وموضع الصاروخ في الفضاء .

كما أن هناك مهمة اخرى لعقول الصاروخ وهي العمل على تقرير نقاط مراجع هذه الاجهزة وبالاحرى تقرير نقاط مراجع القمر الصنعي بأكمله بالنسبة لبعض الاجرام السماوية .

والذي يجدر ذكره أن هذه هي الطريقة التي استعملها السوفييت في محطة ما بين الكواكب في سنة (١٩٥٩) لتصوير الوجه الخلفي للقمر . ونحن لن نتوسع في شرح الطرق التي تجعل الاجهزة تحقق تنفيذ البرامج الموضوعة وارسال القراءات التي يسجلونها الى الارض . انما كل ما نريد قوله هنا أن الترتيبات الراديوية للقمر الصنعي مع محطات المتابعة الموجودة على الارض قد يختلف قليلاً عن الاجهزة اللاسلكية التلغرافية التقليدية بان تكون سعته كبيرة بحيث يستطيع ارسال ملايين الارقام والكميات الهائلة من المعلومات التي تجمعها الاجهزة المكتشفة .

ويجب أن نتذكر أن قراءات الاجهزة ترسل باشارات قصيرة ولذلك فان التشويشات التي تدوم لفترة قصيرة جدا يمكن أن تغيرها الى شكل لا يمكن التعرف عليها .

وهذا مادفع الى استعمال الترتيب الوسيط لترجمة قراءات الاجهزة من لغتها التقليدية الى نبضات رتبت بصورة خاصة لديها المناعة الكافية ضد جميع انواع التداخلات .

ان طرق الترميز (Coding) المباشر لتحويل الاشارة ومشاكل

اخرى مشابهة يهتم بها علم السيبيرنتيك، والسيبيرنتيك هو أحدث العلوم يبحث في مبادىء ارسال المعلومات (Data transmission) وتخفيضها وبالتالي يبحث أيضاً في أعم طرق التحكم بالاجهزة والماكينات وكل انواع العمليات .

والسيبيرنتيك يمكن أن يعرف ويستقصي أعم مواصفات ومبادىء التحكم بأي نوع من أنواع المواصلات وكانت النتائج مشجعة وبرهنت على فعالية ممتازة في حقول كثيرة من حقول النشاط الانساني وقد أمكن التخفيف عن العقل البشري بالقيام ببعض نشاطاته باستعمال أدوات التحكم الآلي (Automatic control Devices) .

ان اكثر هذه الادوات أهمية هي الحواسب الاليكترونية (Computer). والحواسب لا يقتصر عملها على حل اكثر المسائل الرياضية تعقيدا وبسرعة تفوق سرعة أي رياضي بل تتعداها الى ايجاد اكثر الطرق موافقة لحل هذه المسائل وترتيب برامج هذا الحل . ولكن حتى هذه الماكينات لا تستطيع أن تتنبأ بدقة بالحراك الذي سيتبعه الصاروخ أو تقيس طريقه في الفضاء .

كما أن هناك شبكة للقياسات والحواسب لملاحقة صواريخ الفضاء الطائرة على أبعاد كبيرة جداً من الارض . ولقد استعملت محطات رادارية آلية أرضية لحساب عناصر مسارات (Orbital elements) صواريخ القمر الروسية والمجس الفضائي فينوس .

ولقد اخذت قراءات اجهزة القياس في هذه المحطات ورمزت (Coded)

بواسطة حواسب (Computers) ومن ثم ارسلت بواسطة اشارات نبضيـــة (Impulse signaling) الى مركز التخفيض (Reduction Center) لتتغذى من هناك آليا ومرة ثانية الى حواسب اليكترونية تستعمل هـــذه المعلومات لحل المعادلات وتعــبر عن الحركات النسبية للشمس والقمر والارض والزهراء والصاروخ .



الكتاب والموضوعات

الآداب

أحمد الصافي النجفي

البلبل والراديو والشاعر



جوقتي لا يحسها البلداءُ ... أذنهم من ضجيجهم صماءُ

فخرير المياه لحن نديٌ ... وعزيف الرياح عندي غناء

وحفيف الغصون جوقُ غناءٍ ... عنه تعيا النعوت والاسماء

في السكون المريح للسمع لحن ... نعمت في سماعه الشعراء

وغناء الورى يشوش لحناً ... عزفته الطبيعة الخرساء

بلبل الروض فر من «راديات» ... ازعجته اصواتها النكراء

ليتني مثله أطيق فرارا ... فكلانا في ذا البلاء سواء

ليته دلني ، لأي مكان ... يلتجي ، علّ لي يكون التجاء

زاد قيدي جسمي الثقيل ، وهذا ... خف جسماً فطار حيث يشاء

ولئن طرت طالبا لسكون ... فرفيقي الاخطار والضوضاء

شكت الارض من غلاظات ناس ... ثم طاروا فاليوم تشكو السماء

ليس عيبا في الكون فالعيب فينا ... حار فينا الهداة والانبياء

قد رجونا بالعلم راحة نفس ... فاذا العلم ضجة وفناء

اننا مزعجون أين وجدنا ... منذ بانت لآدم حواء

(*) عُرف الشاعر بتحليل مفارقات العصر ، في اكثر من قصيد . وهذه الابيات هي احدث ما أنشد الاستاذ الصافي .

أغنية

شعر السيدة عزيزة هارون



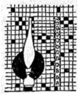
لا زهر لا رقة لحن والهوى حائر
أغنية سحرية يشدو بها طائر
رشفتها في ظلمة الليل وظلمه الجائر
لا اشتكي ياشعر فالركب بنا سائر

مكانك الرحب الذي يعرفه الزهر
والدمع ان الدمع في لهفته شعر
عدا عليه ثائراً يحرقه النهر
مكانك الرحب الذي يعرفه الزهر

هذي أنا ياشعر أشتاق هنيهات النغم
اشتاق ان ارشف عن جفنيك اسرار الألم
ياحرماً ضممته مذ كان في روحي حرم
اغنية قدسية تلفني منذ القدم

أشواقي المغلقة الرحيبة الرجا
تركتها ضائعة في عتمة الدجى
وتهت في بيدائها يسالني الحجى
عن ساذج في دهره من دهره نجا

ياشعر ياعذب الرؤى جرّحت أحلامي
ضيعتني سلبتني الوان أيامي
وأنت من أنت أنا يا بحوري الطامي
أسكرتني وقلت لي على الشذى نامي



" فذكر ان نفعت الذكرى "

صفحة من تاريخ

جهاد المغترب العربي

في سبيل بلاده

رسالة الى المعرفة من الشاعر القروي

الاستاذ رشيد سليم الخوري

---

* يسر (المعرفة) أن تتلقى من الصديق العزيز ، والشاعر العربي الكبير الاستاذ رشيد سليم الخوري ، هذه الرسالة التي تنشرها بكل اعتزاز كما يؤسفها في الوقت نفسه ان تكون فيها حزة ألم من اثر مقال نشره الصديق العزيز الاستاذ نظير زيتون في العدد ٢٧ ـ أيار من المعرفة ، عدد فيه اسماء كثيرين من ادباء المهجر وشعرائه، ولم يرد اسم الشاعر القروي معهم لاسيما في مهرجان المتني المشهور في (سان باولو) الذي ذكره الاستاذ نظير ، بل ورد تلميحا ضمن هذه الكلمات:

(وهناك آخر غاب اسمه عن ذاكرتي) ..!!

ان هذه المراسلات من القيمة الادبية بحيث لا غنى عن تسجيلها في (المعرفة) بالأخص وانها تنطوي على صفحة من التاريخ المشرف الذي كتبه المغتربون العرب في المهاجر البعيدة .

ليست الاولى ، ولانذكر رقمها الصحيح بين الصفحات ، ولكنها احدى اخواتهاالبارزات اللائي علت حولهن الضوضاء ، وحشد لهن الاستعمار اكثر من جريدة يومية ، واكثر من كاتب بين لغوي مدقق ، وناشىء يتمرن بصناعة القلم ، ونصف امي رضع الحقد على العرب والعروبة مع حليب امه ، واحب فرنسا الى درجة العبادة والتقديس .

وسبحان الله . نشبت المعركة في المهجر البرازيـلي شهر ايار سنة ١٩٢٣ ، واليوم في الشهر ايار ، بعد ٤١ واحد واربعين ربيعا ، يشاء قضاء الله وقدره لاديب نعده في مقدمةالاصدقاء ان يجود بغيث عميم من دموعه على زمان الوصل في تلك الاندلس الجديدة وان يعدد اصحابه في المهاجر والاوطان ، خالطاً القمح بالزوان ، جامعاً بين الكفر والايمان ، حريصا الا يسقط من حسابه شعوبيا او انفصاليا، حرص الشحيح الا يضيع من هميانه فلسا. ثم هو يتناسى شاعرين(١) شقيقين من خلص اخوانه ، اذا ذكر الادب المهجري عُدا في طليعة المجلين من فرسانه ،وعمودين من اعمدة بعلبك الخالدة في بنيانه . بيد ان عبرة من عبرات اديبنا الباكي ، ضلت سمتها الى جدث استاذه (اللغوي المدقق) رحمه الله لتقع على عين سميه النائمة ابداً عن اساءات المسيئين اليه ، فتوقظه ، لا على الثأر ، معاذ الله ، بل على الذكرى المجيدة : ذكرى تلك الصفحة الوضاءة ، الفاصلة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين الوطنية الصادقة المتوثبة الطامحة الى السؤدد والمجد ، والعمالة الرجعية الحقيرة المتسولة عابدة السحت . .

فنحن اذ نشكر للاخ الاستاذ الكاتب الهمذاني ، مأثرته الطارفة ، بعثه الذكرى المجيدة الخالدة ، من مرقدها المحفوف بالعزة والجلال ، فانا نكر اليوم شريطهـا الذي سجل ادوار ابطالها وفي مقدمتهم (اللغوي المدقق) تسجيلا حرفيابريئاًمن كل زيف وتصحيف، وافراط وتفريط .

وانا ليسعدنا ان نخص به مجلة (المعرفة) الدمشقية الرصينة ، لان المعركة كانت في سبيل حرية سورية واستقلالها ، وكان المغتربون العرب جميعا في ذلك الحين ينتمون اليها ، على اختلاف اقطارهم واقاليمهم .

ولن يساورنا الشك في ان قراء هذه المجلة ، لايفوتهم ماالنشر المطوي من صفحات جهاد اخوانهم المهاجرين من طرافة وسحر ، لاسيما عند الـكلفين بتدوين هذه السير ، المعنيين بصادق الخبر ، وصحيح الأثر .

اما قول قائل ، ان الراوي عن نفسه لايرمي الى غير التبجح ، فردود .

اولاً لانه لم يقل الا منفملاً بما قيل .

ثانياً لانه لم يأمن الأريخ وهو حي يرزق ، أفيأمنه غداً وهو عظم رميم !

---

(١) الشاعران هما الشاعر القروي بالذات واخوه قيصر ـ الشاعر المدني ـ الذي ستنشر (المعرفة) له في العدد القادم شعراً جديداً —— المعرفة ——

ثالثاً هل يلام المرء ، وقد تهيأ له الظرف ، اذا هو ذاد عن نفسه وادبه ، ببرهانه القاطع ، ودليله الناصع ، وشاهده الحي الذي لايمين !

رابعاً لماذا يحق لمن اصابهم الطغيان في اجدادهم ان يذكروا مأساتهم ، ويبرزوا ندوبهم ، وبدلوا بنفيهم واعتقالهم ، جهاداً في سبيل الله والوطن ؛ ولا يحق مثله للألى سبوا واهينوا وشهروا ، لنفس السبب ، من نفس اخوانهم ومواطنيهم ، كتيبة الاستعمار الخامسة ؟ ان جراح النفوس آلم واعمق . وان الاشرار الغلاظ الاكباد ، اذا لم يستطيعوا الضرب والخلع والسحل ، فلقد يجترحون ماهو اشد وادهى لقتل المعنويات بالهمسات المسمومة ، والافتراآت الشنيعة ، ودس انفاسهم الخبيثة ، في قوارير السمعة الطيبة ، جريا على سنة اسيادهم حكماء صهيون في بروتوكولهم المشهور .

خامساً انه ليس من الوطنية ، ولا من الاخلاص للتاريخ ، ولا سيا في عهدنا الجديد السعيد ، عهد ثوراتنا التي تناولت كل الاوضاع ، واحاطت بكل المواضيع ، ان يسدل الحجاب الابدي ، على اخبار المعارك القلمية المثيرة في المهاجر ، بين احرار العروبة والوحدة ، وخصومهم صنائع الاستعمار ، ودعاة التفرقة والفوضوية والتعصب الطائفي . في حين يقبل الكتاب والمؤلفون في كل قطر عربي وغير عربي ، على البحث في شعرنا المهجري ، ونقده وتحليله ، وغربلته ونخله ، اقبالاً مذهلاً بالغاً حد الهوس والفوضى ، من النروة الذين يدلون الشاعر على ملامح جميلة في شعره لم يلحظها ، الى الاقزام والقرازم الذين يقيمون الدليل على جمال القصيدة باختيارهم اردأ اياتها ..

وبعد فلابد لنا من الاعتراف باننا لانعرض هذا المشهد ، الا وعلى جبيننا مسحة كآبة ، وفي نفسنا عصرة انقباض وألم . ذاك لان المرحوم اللغوي المدقق صاحب الدور ، اصبح بعد فترة من الزمن صديقا لنا . (١) وعبر عن صداقته بانه لم يعد ينظر الى منظومنا ومنثورنا بعين السخط . وتقاربت حافتا الهوة التي كانت تفصل بيننا تقارباً يسر التخطي وأمن العبور . . ككثيرين سواه ممن نهجوا اولا نهجه ، ومشوا في صفه ، ثم صح فيهم القول : ان الله تواب رحيم . ويقيم عذرنا هنا ، بل يشرفنا ، اننا لم نتعرض لشؤونه الخاصة ، ولا دسسنا انفنا في حياته الشخصية ، شأن المحتجين بان الحقيقة اغلى من الصداقة والصديق ، وهم لايستندون على غير الظنون

---

(١) ولذا اقتصرنا فيما يلي على الحرفين الاولين من اسمه ـ ر . ع ـ رغما عن وروده في الاصل كاملا صريحاً منه ومنا . غفر الله له ولنا .

والاراجيف ، والميل الى حوك التهم وكشف العيوب . وفضلا عن ذلك ، أنى لنا ان نتستر على صديق في وقائع شهدها مئات الناس ، ودونها هو قبلنا ، ونشرها بامضائه الصريح ، في جريدته السيارة ، ليطالعها خلق كثير ؟

اما الشريط المسجل ، فهو كراس اسميناه يومئذ (صوت الحق) ننسخ محتواه عن طبعته الثالثة بعد ان نفدت نسخ الطبعة الاولى وعددها الف في ثلاثة ايام . ومثلها الطبعة الثانيةوعددها ألفان في أقل من اسبوع ؟

. . . . .

« مقدمة الطبعة الاولى »

بيان واحتجاج

لعمرك قد حلمنـــا حلمَ معنٍ ... على اهل الوصانة والرشادِ . .
تمادوا في المسبّة فاغتفرنا ... لهم فوق المسبّة والتمادي
ولكن يستبدّ (الحر) فينــــا ... ولا استبداد (غورو) في البلادِ
ويلزمنا السكوت اذاً لمـــاذا ... سكبنا في الطروس دم الفؤادِ
وان لم يُغضِبِ الاحرار هـذا ... فما فضل الحياة على الجمـــادِ ؟

يعلم الله اني ما ألقيت قط بالا الى زمرة الشاتمين . بل كنت اعدهم عمـالا على شهرتي . يسبقون في هـــذا المضمار انصار الفضل من معشر صحبي وخلاني ، فقد طالما ناجزوني العداء . واتخذوا جرائدهم الرصينة سلاحاً علي ، وانا اعزل ، فلم افتأ ألقي كلمتي وامشي ، لامتوقيـــاً ولا مستوقياً ولكنها الغيرة للحق ، والضن بحرية الفكر ، والغضب لأن نكون في البلاد التي تعبد الحرية ، وتعيد (لتيرادنتس) ولا نستطيع ان ننشد في حفلة قصيدة انشد الياس صالح ابلغ منها، على مسمع والٍ تركي ، في بيروت ، في عهد عبد الحميد ، دون ان نتعرض لمثالب الاعضاء الاثرية الباقية من عهد ذلك الطاغية ، ولا ان نطبع اغنية يرد فيها ذكر الوطنية ، الا بعد أن يمر عليها قلم المراقبة في ادارة(فتى لبنان) فيحذف منها مايشاء ويبقي ما يشاء ، كل ذلك يحرجنا فيخرجنا عن مألوفنا من الاعراض ، ويستفزنا الى نشر هذا البيان على الملأ والاحتجاج لدى معشر الاحرار في سائر الاقطار . فقد والله جاوزت قحة هؤلاء المراقبين على الناس كل حد . وبلغوا من الجرأة على الحق ، والتمادي في الافتراء ، مبلغاً اصبح معه الحلم «حجة لاجئاً اليها اللئام » .

فاسمعوا ياسادة !

دعاني النادي الحمصي في هذه الحاضرة الى نظم قصيدة ، وإعداد اغنيتين لحفلة عيده السنوي الثالث الواقع في ٢ أيار سنة ١٩٢٣ ففعلت . وبعث النــادي بالاغنيتين ليطبع منهما في مطبعة (فتى لبنان) بضع مائة نسخة توزع على الحاضرين أثناء الاحتفال ، فلما أتى السيد ر . ع . على الدورين الاخيرين منهما اخذته سورة الغضب ، وكال للشاعر القروي كيلاً ملبدا مهزوزا من النعوت الجميلة . وتوعد النادي اذا هو سمح له بالقاء قصيدته ، وللمغنين بانشاد الاغنيتين . ثم تجاسر فاطلق يده في الدورين المذكورين واجرى عليهما ما كان يجري المكتوبجي رحمه الله على مقالات سركيس. وهكذا طعنت ياسادة حرية الفكر والنشر في بلاد الحرية طعنة نجلاء في صدرها من بطل الحرية ر . ع .

واني لمثبت هنا القصيدة والانشودتين بتمامها تاركا للمطالع اللبيب تصور أي موقع ينبغي أن تكون قد وقعت من نفوس الادباء ــ ولا بأس من استهدافي لرمي بعضهم إياي بالعجب . فاقول تقريراً للحقيقة أن حالة الحفلة أثناء القاء القصيدة كانت حرباً سامية .. تمثل فيها الاستحسان بضجيج الهتاف والتصفيق والاستعادة ــ وناقل بعدها حرفية تقريظ (الفتى) ليعلموا مكان هذا الاستاذ من الصدق والادب والانصاف .

القصيدة(١)

في عيد ناديكِ لا في عيد لبناني ... يحلو الهتـــاف لرايات ٍ وأوطان ِ
عيـدان ياظبيـــة المياس بينهما ... عز العزيز وذل الخــانع العاني
عيـدان ذا خافق قلبي له طرباً ... وذاك من أجله حطّمت عيداني !
هـــذا يجدد في ايار لي فرحي ... وذا يجـــدد في ايلول احزاني
هـــذا يمثّل لي وجه الربيع وذا ... رمزٌ لوجه الخريف الشاحب الفاني
هـذا يريني َ ابناء الحيـــاة وذا ... اشباحَ ناسٍ تراءَت فوق حيطان ِ
هذا يريني َ في صنبول لي وطناً ... وذا ابن لبنان منفياً بلبنـــان
هـذا يريني بيوتا تحتوي بشراً ... وذا معابدَ تحوي كل شيطان
ماغيّر الثوب من أخلاق لابسه ِ ... كم في (المساخر) من شيخ ٍ ومطران ِ

(١) لم تثبت هذه القصيدة والاغنيتان في دواوين الشاعر . فكتب لها أن تحفظ بين أوراقه القديمة لتبعث في هذا المقال في المعرفة.

الخير منك ومنك الشر لا صنمٌ ... أوحى الفساد ولا تعليم اوثانِ
لأحسب الناس زادوا عفةً وتقى ... من بعد انزال انجيلٍ وقرآن
قد كان يخشى عقاب الاثم خاطئهم ... فصار يخطىء موعوداً بغفرانِ
في مصحف القلب آيات منزّلةٌ ... تغنيك عن كل تأويلٍ وتبيان
وما الكتاب اذا مات الضمير سوى ... عهدٍ يمزّقه في الحرب خصمانِ
ما اجمل الكفر موسوماً بمغفرةٍ ... ما أقبح الدين موصوماً باضغانِ
ان كنت انت مسيحياً وتظلمني ... فليحي كل رحيمٍ غيرِ نصراني!

باهي الورى يا ابنة العاصي بكل فتىً ... باهي المحاسنِ باقي الفضل محسانِ
بادي المآثرِ رغما من تكتّمهِ ... وأشهر الفضل مسبوقٌ بكتمانِ
ان كان يخجله مدحٌ ليخجلني ... صمتٌ وربّ سكوت جدّ بهتانِ
ماعاب شعرك اطراءٌ لذي ادبٍ ... حجب الكمال وكشف النقص سيّان
من نام عن حسنات الناس ذمٌ كمن ... في السوءِ راح مجيلاً طرف يقظان
لا يقتضي الشرُّ ان تسعى له قدمٌ ... كم من كسيحٍ له في السوءِ رجلان
وكم قتيلٍ شهيدٍ انت من دمه ... عفٌ اليدين وانت المجرم الجاني

قولي لهم يا ابنة العاصي اذا امتلأت ... قاعات ناديكِ من شيبٍ وشبان
يا اخوتي انما عصر الحجاب مضى ... وآن ان التقي يوماً باخـــواني
وليس يغـــرب عنكم انني بشرٌ ... واني ذات احساسٍ ووجدانِ
واني مثلكم اصبو الى سمَرٍ ... وانـــني طال حبسي بين جدران
وانّ ناديكم صحراءُ قاحلةٌ ... بين النوادي بلا وردٍ وريحان
ان كان للشرّ فلتنقض حجـــارته ... او كان للخيرِ لِمْ أجزى بحرمانِ

هذا رجاءٌ لنادي حمص ارفعه
ولست إلا رسولاً للاخاء دعا
فان رُددت وليس الرد شيمتكم
وان قُبلت فبشرى للرقيّ بكم

على جناحين من حبي وايماني
ينوب عن اخوات عند اخوان
فشأنكم وابنة العاص لاشاني
وعيدكم بعد هذا العام عيدان

اغنية النادي الحمصي

ياليلة ابهى الاعياد
وغنيت باقمار النادي
أقسمت ببلبلك الشادي
لك بحلو نقر الاعواد

قد تيهت على الفجر
عن انجمك الزهر
وبكوكبك الدري
بالشكر مدى العمر

دور

ياحمص وحق العاص
واحنّ الى ذوب الماس
ابرق لي الدهر القاسي
ومن العاصي أروي كاسي

مازلتُ على الحبّ
من كوثرك العذب
وامتّع بالقرب
وابلّ بها قلبي

دور

عيد الجوبة زر وطني
والحق تحجّب في الكفن
سورية في ليل المحن
فاطلع بمحيّاك الحسن

فالظلم هناك طما
والعدل قضى ألما
تزداد شقاً وعمى
وازل عنها الظلما

نشيد سوريا

١

نحن اشبالُ الاسودِ   خيرِ الجدودِ   خيرُ البنودِ

من تسامَوا بالفعالِ   بينَ الرجالِ   اهلَ المعالي

ركبوا متنَ البحارِ   الى الفخارِ   قبلَ البخارِ

ملأوا الاقطارَ فضلا   يجرون عدلا   يعطون سؤلا

القرار

العلمُ عنوانُ الرشادْ   العدلُ عمرانُ البلادْ

انما العلمُ سراجٌ   انما العدلُ علاجٌ   وحياةٌ للعبادْ

ياحبذا العصرُ الجديدْ   عصرُ هارونَ الرشيدْ   في حمى دارِ السلامِ

عصرٌ مجيدْ   عصرٌ فريدْ   عصرٌ سعيدْ   عصرُ السلامِ

٢

امّنا امّ الجمالِ   امّ الجلالِ   امّ الكمالِ

تحت جنحيك اجمعينا   والحبّ فينا   اجعليه دينا

سلحينا بالرشادِ   والاتحادِ   يومَ الجهادِ

علمينا بالثباتِ   حتى المماتِ   معنى الحياةِ

٣

اهل سوريا الكراما   حيّوا السلاما   احيوا الوئاما

اوضكم أمست خرابا   تشكو العذابا   تبكي الشبابا

يادوروها بالدواءِ   صدقِ الولاءِ   محضِ الوفاءِ

وارفعوها بالعلومِ   مثلَ القديمِ   فوقَ النجومِ

تقريظ (الفتى)

من قوله في عدد ٥ ايار تحت عنوان :

حفلة النادي الحمصي

« على ان الارتياح من هذه الجهة قابله استياء واشمئزاز من جهة اخرى . فقـد نهض الاديب رشيد خوري الذي يلقب نفسه بالشاعر القروي وكدر صفو الحفلة برثائه ونواحه نادباً حظ لبنان في عهده الحاضر ، وكان الاحرى له ان يحزن لحظ الناس بسماعه .

ثم قال : فاندفع بحكم العادة الى الضرب على وتر البكاء في نظم مشلول ومعنى سقيم وآراء بائخة ، رمى بها لبنان وحكومته وفرنسا ايضاً بالمحرجات من الارجاف والاختلاق .

وقد قيل لنا ان رئيس النادي شعر بنفور الجمهور من تحامل هذا الشاعر وشروده عن المقصود من الحفلة فتنصل علناً من بذاءته . ولكن التنصل لم يأت بالمراد . لان الحنق بلغ من بعض اللبنانيين حتى كادوا يصفعون ذلك (الهجاص) لانه طعن في وطنهم . ولم يقطه الحياء ولا ردعه الضمير عن الكذب والافتراء، وما كاد يتر هذا القروي قصيده الهلالي لان الحضوراشبعوه صفيراً وهزءاً الخ الخ ....الى ان قال في الختام :

لان خوار الشاعر القروي لا يضر بسمعته كما يضر بسمعة النـــادي ويسود صفحته في عيون اللبنانيين . »

انتهى تقريظ الفتى

فيا من رمى شخصي بكل مذمة	لينقص من قدري ويقضي على ذكري
وسفه اشعـاري ومس قصيدتي	قصيداً وهلالياً لك الشكر من شعري
فما عيب شعر للهلال انتسابه	ولا شين عقد صيغ من انجم زهر

رسالة صديق شهد الحفلة

عزيزي رشيد

لا اكتمك اني من رأي الذين عتبوا على النادي الحمصي وعليك بسبب تناولك موضوعاً سياسياً في حفلة ادبية محضة وذلك لاني وضعت نفسي في مركز المتشيعين لفرنسا والمقتنعين باستقلال لبنان فحكمت لهم . ولكي ازيد رأيي وضوحاً اقول انني لا احضر الحفلات اللبنانية السياسية ولكن لو حضرت حفلة لبنانية ادبية وقام خطيب يتغنى بمدح فرنسا ويغبط لبنان على استقلاله لخليت مكاني دون ان الوي على شيء .

هذا كل ما على النادي الحمصي وعليك . ولظللنا مدينين لو وقف المنتقدون عند حد العتب الرقيق الذي كان من شأنه ان يقابل بالاعتراف والاعتذار . ولكن اشياع فرنسا تمادوا في العتب حتى اربى كثيراً على الذنب واصبح اجحافاً لا يغتفر . ناهيك بان احدهم لجأ الى الاختلاق والتزييف فصور الاستحسان اشياء والتصفيق صفيراً فغدوت مدينا لك بشهادة حق وهي ان تلك الحفلة اثبتت منزلتك العالية في القلوب وايدت رأي الاستقلاليين القائلين ان معظم السوريين واللبنانيين يكرهون الاحتلال ويودون لبلادهم الحياة الحرة . وقد صفق لقصيدتك واستعاد عدة من اياتها ستماية شخص الا اثنين وكانت الحماسة بالغة اشدها عند الجميع . فكان مثل الذين اخذوا فيما بعد بالانتقاد الذي توجه ضد قصيدتك مثل ذاك الذي اكل فولا خلوا من الزيت فعندما لامه احدهم اشترى من ذلك السائل المقدار الذي كان يجب ان يرش على الفول فتجرعه واخذ يتقلب على الارض لكي يحصل الامتزاج اللازم في معدته .

ان قصيدتك نظمت لحفلة معينة وتليت فيها واتت النتيجة المطلوبة . فلا يعيبها على الاطلاق عدم مصادفتها الاستحسان التام ممن طالعوها في خلوة ، فالحماسة التي يستمدها الفرد من المجموع ومشاركته المجموع في تحمسه يكسبان كل قول تأثيراً لا يكون له في حالة الانفراد . من ذلك اجتماع الشرب لتعاطي بنت الحان واستماع المطرب من الالحان او جلوس عدد من الناس الى مائدة لتناول الطعام . فان المشاركة في الحالين تزيد الشراب والغناء طلاوة والطعام لذة فيمعن الحضور في الشرب والاكل على شكل لا يتأتى لهم منفردين . ومما يشبه قصيدتك ايضاً الصورة الزيتية التي تزداد جمالاً كلما ابتعدت عنها ويتشوه شكلها في نظرك كلما دنوت منها .

هنا بلغت الانتقاد اللغوي لذلك اقف اجلالا للاساتذة الذين كلفوا انفسهم تشريف قصيدتك بانتقادهم اللغوي والبياني ، ولكنني لا استطيع تنزيههم عن الغرض فانهم انتقدوا قصيدتك بروح العداء السياسي ولو كان استهلالها في مدح فرنسا والتغني باستقلال لبنان لما رأوا فيها عيبا . واذا هم شاؤوا التنصل من هذا الحكم فلا متحول لهم عن الاعتراف باهمالهم السابق نحو قرائهم لانهم لم ينتقدوا ديوانيك . والتضايل لانهم امتدحوهما . على ان لابد لي من الاعتراف بعجزي عن منازلة هؤلاء اللغويين في ميدان قواعد اللغة والقاموس لاني عبارة عن نقطة في بحرهم . ولكن المضحك في الامر انني لا اريد ان اصبح نقطتين مادمت بفضل اطلاعي القليل استطيع ان اعبر عن فكري واسلم من الابهام . لانني استنتجت بالاختبار ان حذق اللغة العربية مستحيل . فاذا عاش الانسان لكي يحذق قواعد اللغة فمتى يكتب ؟ وهذا تعزية اخرى لي على ضعفي في اللغـة هو ان الكاتب يفقد من طلاوته وفائدة كتابته بقدر مايكسب من قواعد اللغة الخارجة عن الضروري الذي لابد منه لكل كاتب .

واخيرا اقول ان لك اسوة بالمنفلوطي الذي انتقده احد العلماء واثبت جهله للغة ومع ذلك ظل المنفلوطي ذلك النجم الساطع ولم يبرز منتقده من زاوية خموله وحضيض عقمه.

ومهما يكن من امر ضعفي فانا لا احصي عليك عشر الاخطاء التي رميت بها وانت براء منها والسلام .

سان باولو ١٤ ايار ١٩٢٣ صديقك المخلص توفيق ضعون

مقدمة الطبعة الثانية

يسرنا ان يعلم اصدقاؤنا العديدون واخواننا في المبدأ في هذا القطر وسائر الاقطار ما نالت كلمتنا الحرة على منبر الكولسرفاتوريو من استحسان عموم الجالية السانباولية الا بعضاً من المخالفين وما كان من اقبال الجمهور على (صوت الحق) اقبالا لم نعهد له مثيلا في محيط سوري حتى لقد نفدت الطبعة الاولى ـ الف نسخة ـ في مدى ثلاثة ايام في سان باولو وحدها : وما باشرنا الطبعة الثانية حتى اضطرتنا كثرة الطلبات الى تضعيف النسخ . وهنا يجدر بنا التنويه بفضل جرائد خصومنا المبشرين بالاحتلال الاجنبي لانها بتحاملها الشديد علينا كانت عاملا كبيرا على ترويج الفكرة الوطنية وميل الاحرار الى مناصرتنا وتنشيطنا . فلهم منا اطيب الثناء .

النقد اللغوي البياني

لقصيد رشيد الخوري او الشاعر القروي

عثرت على هذا النقد بقلم السيد ر . ع . صاحب جريدة (فتى لبنان) واقبلت على مطالعته اقبال طالب مستفيد فأسفت لما بذل حضرته من الجهد واضاع من الوقت في تحبير عدة مقالات متتابعة ترمي ابر تحاملها على شهد نفعها واخلاصها ، بيد اني لا احسب تلك الروح الشائكة المتجلية في سطورها الا من باب الدغدغة الادبية حيناً والغيرة على مبداه السياسي حيناً آخر . لذلك افتح لها ردهة الحلم واستقبلها ببشاشة الكريم لزائر عابس .

ومع شكري له تطوعه بهذه الخدمة الادبية فقد اخذت عليه عدم تحريه في النقد تدقيقاً يصح اخذه وتحصل الفائدة منه . فانه حاول تصحيح الفاظ ومعان غنية عن التصحيح . ولقد كنت على وشك اعتماده ، لولم تتضح لي اخطاؤه ، من وقوفي عند بعض ما آخذه وقفة ارتياب استدعت رجوعي الى تلك الالفاظ في مظانها ، مما جعل لي على ملحوظاته ملحوظات لا يصح السكوت على

كثير منها . ولكنني اقتصر في هذا الرد على اهمهـا لئلا يتخذها المتأدبون حجة ، نظرا الى ثقتهم بعلم الناقد ، فتقع عليه تبعة وقوعهم في الغواية من حيث يقصد لهم الهداية . قلت تمادوا في المسبة فاغتفرنا لهم فوق المسبة والتمادي فقال حضرته (لايقال اغتفر له بل غفر له) ولو بحث عن هذه الـكلمة في القاموس لوجد هكذا : اغتفر الله له ذنبه كغفر له .

وقلت :

لاأحسب الناس زادوا عفة وتقى من بعد انزال انجيل وقرآن

فقال : « تنزيل اصح من انزال » وقد عثرت في القرآن الكريم على آيات عديدة يرد فيها الفعلان بمعنى واحد فاكتفي بالاستشهاد على الاخير لان عليه اعتراض حضرته ، قال في سورة البقرة ٣٨ يابني اسرائيل ... آمنوا بما انزلت مصدقاً لما معـكم . ولو راجع القصيدة لوجد اني استعملت الفعلين كلا في موضع، والغريب ان حضرته اعترض على (انزل) والسيد اسطفانغلبوني اعترض على (نزل) فاي العلامتين نعتمد ؟

وقلت :

ما اجمل الكفر موسوماً بمغفرة ما اقبح الدين موصوماً باضغان

فقال (ان موسوما معناه مكوي ولايفيد غير هذا المعنى) فما قوله بقطر المحيط حيث جاء (وفلان موسوم بالخير اي عليـه سمة الخير وعلامته . ودرع موسومة اي مزينة . افيعني ذلك انهما مكويان ؟

وقلت :

بادي المآثر رغماً عن تكتمه واشهر الفضل مسبوق بكتمان

فقال (ان تكتم من مبتكرات القروي) فليفتح حضرته كتاب لغة الجرائد للشيخ ابراهيم اليازجي الصفحة ٨٣ يجد ما هو بالحرف : (تكتم فلان اذا كتم نفسه او أمره كما يقـال تستر وتحجب ونحو ذلك) .

وقلت :

باهي الورى يا ابنة العاصي بكل فتى باهي المحاسن باقي الفضل محسان

فقال (ان باهي الثانية لاتجيء لهذا المعنى) فنجيبه ان كثيرين من الشعراء الذين تقدمونا استعملوها استعمالنا لها ونقتصر على ايراد بيت للشيخ ابي الحسن مشهود بصحته من الشيخ ابراهيم اذ استشهد به في لغة الجرائد ولو رأى فيه خطأً لما سلم من نقده وهو .

فالربع بالمجد لا بالصحن متسع والبهو لا بالحلى بل بالعلى باهي

هذا ما اقتصرت عليه في ردي على النقد اللغوي ومنه يعلم أن نقد السيد ر . ع لم يسلم من النقد وان فوق كل ذي علم عليم . أما النقد البياني فلا أرى حاجة الرد عليه لانه مردود من نفسه ولا أخال السيد (ر . ع) اشتغل به الا من باب المغالطة غيرة على مبداه كما أسلفنا لأن أشكال معاني كثير من الابيات عليه لايتفق مع علمه . واجماع ستماية شخص على التصفيق لشعر واستعادته دليل على أن معناه مفهوم من الجميع .

وفي ختام هـــذا المقال لا أرى بدا من توجيه كلة شكر الى السيدين شكري الخوري واسطفان غلبوني بمناسبة انتقادهما اللطيف . فقد انعما علي باوسمة من النعوت لا أدري في أي اطار شرف اضعها انفاستها وجمالها . ومن أنا ياترى لاستحق عندهما هذه العنـــاية . فيخصاني بعدد اكرامي ممتاز من جريدة (ابو الهول) يشغلانه بتقريظي من الفاتحة الى الخاتمة ؟ اني لأذوب حياء لعجزي عن وفاء صنيعهما وما كنت قط من الجاحدين .

ادامهما الله فخراً وذخراً . والهمهما حب الظهور ليخرجا للناس مخبآت معان انزلا عليهما آية الحجاب . والا فلا حرم ابناء هذا اللسان اثريا عظيما (كاللورد كارنارفون) يتـــاح له نبش تلك الكنوز المرصودة في (وادي ملوك) علمهما العجيب .

انتهى المنشور في (صوت الحق) سنة ١٩٢٣ ونضيف إليه اليوم ١٩٦٤ هذه الابيات :

رغم علمي بالناس أخدع والمرءُ مسوقٌ بطبعهِ لا بعلمِهْ
ان اردت الحياة تعبق طيباً فاجرح الشاعرَ الحنون ودمّهْ
يملأ الارضَ والسماءَ غناءً وشفار الاذى تحزّ بعظمِهْ

العقاد الأديب

للدكتور: ابراهيم الكيلاني *

كانت مصر في النصف الاول من القرن العشرين تجتاز مرحلة تتكامل فيها اسباب التطور والتجديد في نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، فقد عم الحياة السياسية يقظة في الضمير الشعبي ، وشعور وطني جياش تذكيه نزعة قوية الى الافلات من الحكم الاجنبي والفوز بالاستقلال ، وسادت الحياة الاجتماعية نزعة التخلي عن العادات الموروثة والانماط التقليدية الآخذة في التصدع والانهيار بتأثير طلائع الحضارة الحديثة التي أخذت تغزو الشرق.

(*) تتمة بحوث «العقاد من زواياه المختلفة» المنشورة في العدد الماضي ـ المعرفة رقم ٢٩ ـ

العربي ، واتصفت الحياة الفكرية بتطلع نحو المعرفة الصحيحة واقتباس ماابدعه العقل الاوربي من منجزات في ميادين العلوم والآداب والفنون .

ولاريب في ان عباس محمود العقاد احد الاعلام الذين انتهت اليهم زعامة الفكر والادب من امثال طه حسين والمازني وعبد الرحمن شكري والرافعي وهيكل والحكيم فهو خير رائد لهذا الجيل المستنير بنور الحضارة الجديدة التي عملت على تجديد اساليب التفكير والكتابة وارساء قواعد الادب والنقد الحديث .

— ٢ —

ليس في سيرة العقاد من الاحداث او الصخب الذي يصحب عادة حيوات المتازين او المتفوقين من الناس ، وليس فيها من الدلائل والسوابق التي تنذر بعظم المكانة التي تبوأها في تاريخ الفكر العربي الحديث ، واذا استثنينا المدة التي عمل فيها في الصحافة والسياسة تحت لواء الوفد المصري فان حياته تكاد تكون عادية في سيرها ورتابتها ، انها حياة رجل نذر نفسه لتحصيل المعرفة والكتابة والابداع في اطار من التقشف والزهد بمغريات الدنيا .

قال العقاد في رسم الخطوط الكبرى لسيرته : « ولدت في بلدة اسوان سنة ١٨٨٩ ، وتلقيت دروسي الابتدائية بمدرستها الاميرية ... وكان ابي يصطحبني الى مجلس احد فضلاء الازهريين الذين لزموا جمال الدين الافغاني اثناء مقامه في مصر فكنت اسمع مطارحاته الشعرية وقراءاته لمقامات الحريري وبعض القصائد المختارة واستطرف فكاهته ونوادره التي كان يرويها عن المتقدمين والمتأخرين فشوقني ذلك الى مطالعة الكتب الادبية ، فكان اول ماوقع في يدي منها كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) ، وديوان البهاء زهير ، وقصص الف ليلة وليلة ثم مجلد من دائرة المعارف للبستاني واعداد مختلفة من صحيفة « الاستاذ » لصاحبها السيد عبد الله النديم .. ومن ثم اقبلت بجملتي على المطالعة العربية فالافرنجية ونظمت الشعر ... وقد عاقتني عوائق شتى عن متابعة التعلم المدرسي كما كنت اود يومئذ ، ولست على ذلك الآن بنادم » ومن الغريب ان تحتوي هذه السطور القليلة على الخطوط الكبرى لحياة العقاد وان نتبين منها اشياء حددت الطريق التي سلكها في حياته الادبية المقبلة ففيها انه لم يكن لوالده يد في تعليمه او توجيهه الا في اصطحابه الى المجالس الادبية ، وفيها ان دراسته وقفت عند حد الابتدائية ، وفيها انه غشي في سن مبكرة مجالس الرجال وهذا ماينبيء برجولته وبوادر عصاميته ، وفيها ان الكتب التي اخذ يطالعها لم تكن تدعوه الى التخصص في مادة من المواد او علم من العلوم فمنها كتاب في الادب القديم يحوي الاخبار والنوادر المتنوعة ، ومنها ديوان شاعر مصري ومنها قصص تنمي الخيال ، ومنها دائرة معارف تحوي معلومات علمية ، ثم تأتي اعداد صحيفة عبد الله النديم التي شوقته فيما بعد الى العمل الصحفي .

ثم تأتي بعد ذلك كله المرحلة الايجابيـــة من حياته الفكرية وهي الانصراف الى المطالعة العربية فالافرنجية ونظم الشعر ، ان قضية المطالعه قضية هامة في حياة الكتاب فهي تعلمهم الكتابة وترفدهم بالأفكار والانفعالات والتجارب الذهنية والملاحظات ليعبروا عن كل ذلــك فيا بعد بأسلوبهم الخاص، والملحوظ أن العقاد لم يكن يعتبر القراءة عملية ذهنية مستقلة بل هي ممتزجة بعملية الاكتساب والابداع ، فهي ليست وسيلة ينسى بها حياته العادية بل كانت المطالعة جزءاً من نفسه يخرج من الحياة اليومية ليدخل في عالمها فهي أداة اللقاء مع نفسه لا نسيانها ، انهـــا قراءة فاعلة ومنفعلة وليست قراءة تخدير وتصفح وتقليب أوراق ، انها قراءة التنبه والتدبر والامعان لاقراءة النظرات الخاطفة التي تعود صاحبها على الخمول والكسل العقلي ، انها قراءة المبدع الخــــلاق الذي ينشد من ورائها اغناء نفسه وكيانه بمختلف الاغذية العقلية والروحيــة والخلقية . ويبدو ان العقاد في بداية أمره كان يقرأ الموضوعات التي يهديه اليها ذوقه ومزاجه ، دون ان يكون هناك تخصص او خطة تستشف من ورائها التزامه فلسفة أو مذهباً وقـد أودع ثمار أفكاره ومطالعاته ومقالاته كتباً لها عناوين ذات دلالة كالمطالعات والمراجعات وساعات بين الكتب والفصول ،وهذه الكتب تؤرخ فترة من نتاج العقاد قبل شروعه في تأليف الكتب ذوات الموضوعات الموحدة .

— ٣ —

كان العقاد مسوقاً بدافع من نفسيته عندما احترف مهنة الأدب، الى الاستقلال الفكري والمادي بغية الانصراف بكليته الى العمل الادبي ، فقد كان يتجنب كل ما يخضعه للعلاقات والوظائف والواجبات التي تفسد عليه التأمل والابداع ، ولا أدل على خوفه من ان تضيع مواهبه في غثاثة الحياة وتفاهتها من قوله عندما هجر الوظائف الحكومية : « كنت استقيل منها واحـــدة بعد الاخرى نفوراً من قيودها الثقيلة وتـكاليفهـا الفئة » فهو بذلك يناقض الرأي القائل بوجوب مزاولة الاديب مهنة ثانية توفر له اسباب العيش الكـريم الذي يصون ادبه وفكره من الابتذال والاستغلال . وقد يعجب المرء عندما يعلم ان هذا الاديب الذي اتخذ الحفاظ على حريته شعاراً انتسب لحزب الوفد وناضل في صفوفه وذاق من جراء ذلك السجن والاضطهاد متحملاًعبء نظام الحزب واثقال التسلسل فيه ولكنه لم يلبث ان ارتد الى طبيعته الاولى فلم يطل مكثه في الحزب فسرعان مااصطدم برأي الجماعـــة مما ادى الى انسحابه محدثاً بذلك ضجة كبرى، وتعليل ذلك ان العقاد اديب قبل كل شيء ، اديب ضائع في غمار السياسة القائمة على الخداع والمواربة والرياء ، أديب له رأي في السياسة مستوحى من نظرته المثالية الطوباوية . ألم يقل : « اما السياســـة كما اعرفها واميل اليها فهي على صلة بالأدب كما اعرفه واميل اليه لانها تستوحيني بالمبادىء الانسانيـة المطلقة لابمبادىء العصبية الضيقة ، وتتصباني بالنظرة الجماليـــة الفنية لا بالنظرة التي تحصر الحياة بالانظمة والقوانين »

وكانت هذه المثالية مدعومة بكبرياء وانفة واعتداد بالنفس نجد صداقها في العبارة التي اجاب بهـا سعد زغلول على اثر خلاف حزبي قال سعد: "أنا زعيم هذه الأمة ومن حقي أن اقول رأيي.

فصاح العقاد ـ وكان يندر ان يرفع احدهم يومئذ صوته في حضرة الرئيس ـ: وانا زعيم الأدب ومن حقي أن اقول رأيي!

— ٤ —

كانت الاقدار والظروف تهيء العقـاد ليكون كاتباً كبيراً وذلك منذ اكتشف في عالم الكتب، ومعاشرة عباقرة الانسانية، كنوز العلم والمعرفة، ولم تستطع عشرته لكتب ان تبعده عن الواقع بل كانت تصفيهذا الواقع مما كان يعلق به من فضول فلا تبقى إلا اللباب الذي يغذي العقل، والجوهر الذي ينير جوانب الوجدان، لقد نظم العقـاد الشعر في يفاعته وكان من الممكن ان يستهويه شيطانه فيصبح شاعراً فحسب ولكن ذهنية العقاد لم تكن لتألف البقاء في نطاق الخيالات والاوزان والايقاعات، فهي ذهنية عاقـلة، مفكرة، موضوعية، تأنس بالحكمة وتحرص على منطق الاشياء والكائنات، فلم يستطع الشعر ان يستنفد المادة العقلية المختزنة اذ كان بما يفرضه من قيود والتزامات اضيق من ان يحتوي هذه الثروة الفكرية والتجارب الحياتية التي تتسع وتمتد مع العمر أفقاً وعمقاً.

وفي الحق فان العقاد من الادباء النادرين الذين حققوا التوازن بين الشعور والفكر، ولكل من هاتين الملكتين أداتها، الشعر للشعور، والنثر للفكر، فقد ألف عشرات الكتب النثرية كما نظم مقابل ذلك عشرة دواوين ونيف فكأن الشعر عنده عالم مستقل يغذيه الاديب بتجاربه ونظراته في الحياة ومطالعاته وتوليداته فتستحيل العملية الى شعر تغلب عليه الحكمة، وتغلفه الفلسفة والمنطق ويسوده التشاؤم والارتياب بالوجود والناس. ولعل فيما أثر عنه من اقوال عن سير عملية الخلق عنده ما يؤيد هذه النزعة الحكمية العقلية التي غلبت على آثاره والتي تنقض فكرة الوحي والبديهة والارتجال في العمل الادبي، فقد كان العقاد يحمل موضوعاته الشعرية والنثرية طويـلا في داخل نفسه ثم يأخذ في روزها مخضعاً إياها لعملية انضاج عقلي بطيء، واختمار فكري وئيد، حتى اذا تمت هذه المرحلة انتقل بعدها الى مرحلة الانشاء والتدوين قال: «إن الفكرة التي اكتب فيهـا ندر ان تكون بنت يومهـا، وقل ان تخلو من تاريخ سالف تنتقل فيه كما ينتقل الـكائن الحي في ادوار حياته، ولـكل فكرة أبتها ميلادها، ونشأتها، وحوادث سيرتها، وخطوطاتها، فلاتزال تنمو وتكبر وتترقى في تكوينها وترتيبها حتى تبلغ تمامها وتوفي على غايتها ثم تجيء المناسبة لاثباتها».

— ٥ —

قلت : إن العقاد في بداية حياته القلمية لجأ الى العزلة صوناً لنفسه من الابتذال ، ولمواهبه من التبدد ، وقد قوت هذه العزلة فيه روح المثالية التي تعدت السياسة الى الادب ، بل قد رفعت هذه المثالية الأدب والاديب الى مراتب التسامي والتقديس وأكاد اقول التأليه فان رسالة الأدب كما يقول العقاد «هي رسالة الحياة التي توحي بها شعراً او نثراً على ألسنة المختارين من اصفيائها.. والادب صلاة الروح التي لاتبتبس بها حتى تتطهر من صغائرها وأدوائها ... والادب نداء الرائد السابق يشير للأمم الى البعيد المنظور من آفاقها واجوائها ... والادب جمال من جمال الحياة ينبض فيه الدم ، وتسري فيه العروق ، وينمو نمو الطبيعة الحية او يسبقها في وثبات النمو ويفضلها في نماذج الجمال » . هذا هو الادب في نظره « وإن لم يكن كذلك فقط بطلت قداسته ، وتهدم هيكله ، وهزلت قرابينه واصبح صناعة من صناعات السوق » .

تلك هي نظرة العقاد الى الأدب وعلى ضوئها يمكن استخلاص افكاره التجديدية التي تناولت مهمة الاديب ثم صناعة الأدب بالذات .

— ٦ —

يعتبر ظهور العقاد وصحبه حداً فاصلاً بين عهدين : عهد كان فيه الأديب وريث عصور الجمود والاستبداد التي جفت فيها عبقرية العرب وغاضت عند ادبائهم معاني الشعور ، وانعدمت ملكة الابتكار والاختراع وبات الأدب تلاعباً بالالفاظ واصطياداً للزينة والمحسنات اللفظية والمعنوية هذا في النثر واما في الشعر فقد اقتصر ناظموه على التعظيم والمحافظة على العروض والولع الشديد بالصنعة ، وكان لا بد لهذا الاديب شاعراً ام ناثراً — من ان يكمل التقليد الذي سنه السابقون ، ولكن بموهبة اقل ، من وقف ادبه على الكبراء التماساً للحظوة والمثالة ، وتقرباً من ذوي السلطان ، انه أدب لفظي فارغ ، فيه كما يقول العقاد «زخرف هندسي» وفيه « تزويق لا يمت الى الحياة بسبب ولا يعمل فيه غير المسطرة والبركار ، فهو ادب خلا من روح الحياة وغابت عنه دلائلها » .

لقد اراد العقاد ان يضع الأدب في مكانه اللائق ، وان يعيد للأديب اعتباره كما هي الحال عند الأمم الراقية ، فلم يعد الادب في نظره اداة لهو وترفيه وتسلية بل هو عمل جدي يصدر عن أرقى الملكات واشرفها يبدعه ليس ذلك المشعوذ المهرج الذي يخلب الاسياد والجماهير ويفتنهم بالعابه وحيله الكلامية بل هو ذلك الانسان الذي تكامل شعوره ، ونضج عقله ، وتكاملت مواهبه يتقدم امته حاملا مشعله لينير الطريق امامها ويوقيها عصفات الهمجية ، ويقيها من الارتداد ويقودها في طريق الارتقاء والحياة السعيدة الخالدة لأن الكاتب — في نظر العقاد — انسان قبل ان يكون حامل قلم وصائغ كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة ، مدركة ، لافضيلة لسان وعبارة» .

فاذا كانت الانسانية شرطاً من شروط الكتابة في نظر العقاد فان هناك شروطاً اخرى ينبغي وجودها في الاديب لكي ينعم بهذا اللقب: كالمواهب السامية التي تعلو عن مستوى المألوف، والذكاء العالي الذي يعز وجوده الا في الصفوة الممتازة من الناس، وغير ذلك من الفضائل الخلقية والنفسية لأن الكتابة رسالة قبل ان تكون هواية او مهنة ، وفي كل كاتب كما يرى العقاد « شيء من طبيعة النبوة لأنه يحمل رسالة خاصة من لدن الحياة الى اخوانه في الحياة ، ولهذا كان لابد للكاتب من هبة خارقة يحس بها مالا يحسه سواد الناس ، ويفهم بها مالا يفهمون من اسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة » .

ولم يقف العقاد في تعريفه الاديب عند حد المواهب ، فهو لم يكن يعتقد بالعجائب وأفعال السحر ، ولم يكن يؤمن بالتولد الذاتي فلا بد للنبوغ والتفوق من العمل ، والدأب ، والتحصيل، والتجميع ، والتمثيل ، والصبر على الحرمان ، والزهد بلذائذ الحياة ومغرياتها ، ولو حللنا النبوغ والعبقرية الى اجزائهما المكونة لما بدا فيهما غير هذا ولذا شرط العقاد على الكاتب أن يكون « واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، ثاقب النظر ، يحمل الى الناس الافكار السامية والحقائق الراهنة ، وسواء كان هذا الكاتب روائيا أو مترسلا فانه لا يعد من المتجددين مالم ينطلق في ربوع الحياة بشخصية حرة حاملا الى الناس رسالته الادبية وقد استوحاها من ايمانه الصادق واختباره الواسع، وتأمله العميق » .

ولا ريب في أن العقاد في نظرته الى الادب والأديب انما كان يرمي الى مزية تعد الاساس في كل عمل أدبي ألا وهي الاصالة ، تلك المزية التي تتم من خلال المعارف المكتسبة عن صدق الموهبة ، وصفائها وانسجامها وصدورها عن حقيقة الأديب العميقة ؛ فهي بذلك تنفي الزيف وتبعد كل ماهو غير طبيعي حتى يكتسب العمل الأدبي صفة الجدة وطابع الاختراع اللذين ينفيان عنه التقليد والمحاكاة والاستيحاء القريب أو البعيد . وها هو ذا العقاد يشرط على الاديب ايضاً أن « يكون مطبوعاً على القول ، أي غير مقلد في معناه ولفظه ، وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لا في لسانه فحسب ، أي يجب أن تسأل نفسك بعد قراءته ماذا قال ؟ لا أن يكون سؤالك كله كيف قال ؟ فهو مطالب بشيء جديد من عنده ينسب اليه ، وتتعلق به سمته ويخرجه عن أن يكون نسخة مكررة لمن تقدمه » .

٧

قلت : ان العقاد وصحبه من المجددين يشكلون حدا فاصلا بين عالمين : عالم الثقافة التقليدية التي احتضنها الازهر وحافظ عليها طوال عهود الركود والكوارث التي نزلت بالشرق العربي الاسلامي ، وعالم الثقافة الحديثة التي هبت نسائمها من وراء البحر على الشرق في اعقاب حملة نابليون

التي أهابت بالاسرة العلوية الى الاخذ باسباب المدنية الاوربية ، فقد ادى هذا كله الى تفاعل عميق وسريع في نواحي الحياة المصرية كافة ، فكان لابد من ظهور معركة القديم والحديث في الادب كما حدث في آداب الامم الاخرى ، وقد سلك العقاد وصحبه في قضية التجديد مسلكا رشيداً فيه كثير من الذكاء والحصافة فانهم لم يهجروا التراث القديم كله ليرتموا في أحضان الثقافة الحديثة ولم يتنكروا لروائع ادبهم وكنوز لغتهم أمام ماشهدوه من روائع الغرب بل ساقهم اجتهادهم الى بناء حركتهم التجديدية على أسس ثلاثة :

١ ــ الأصالة الادبية وكان لها شأن كبير عند العقاد وهي التي تستدعي كما رأينا تفاعل الاديب مع بيئته والاجواء التي يعيش فيها ليكون ادبه سليماً صادقاً معبراً عن شخصيته قوي الدلالة عليها .

٢ ــ الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها واستنفاد طاقاتها التعبيرية في الحركة الادبية الجديدة .

٣ ــ الاتصال بالفكر الاوربي والتأثر به والافادة منه في تطعيم الادب العربي في تجديد اساليبه المنهجية .

اما في الاول فقد كان العقـاد نموذجاً للأديب الاصيل فقد تميز باسلوب كتابي لايقل في نصاعته ومتانته عمـا كتبه ـــ مع فوارق العصر ـــ فحول النثر العربي من امثال ابن المقفع والجاحظ وابي حيان التوحيدي ولعل أهم ما اتصف به العقاد الى جانب قوة تفكيره وتعدد المواهب الدال على غنى شخصيته محافظته على استقلال افكاره وآرائه تجاه الادبين العربي والغربي ، ولا أدل على تعلقه بفكرة الاصالة من كثرة ابحاثــه التي يدور معظمها حول التفريق بين شعر التقليد والجمود ، وشعر الفطرة والابتكار ، وبين المطبوعين والمروضين وبين الصناعة والتكلف وبين صدق الفطرة وسلامة التعبير .

اما في الثاني فقد نشأ العقاد كما قلنا في زمن كان للقديم فيه سلطان على النفوس والعقول ، وكانت اللغة تعاني فترة جمود وضعف ورثتها من عهود التخلف والركود ، فكان لابد للمدرسة الجديدة من الاعتماد على هذه اللغة والتثقف بها ثقافة حقيقية عميقة والتزود بأساليبها في التعبير عن المشاعر والمدارك والانفعالات ، فها هو ذا طه حسين لسان حال هذه الطبقة يعتبر « اللغة العربية الفصحى مقوماً اساسياً من مقومات الادب العربي في قديمـه وحديثه » وها هو ذا العقاد يعلن إيمانه بالملكة العربية معترفاً « بأن من مزاياها ما يحسن في الذوق لأنه يفيد الكلام قوة ووضوحاً ، ويزيد المعاني صقلا وبيانا ، ويعصم اللسـان من الاسفاف والركاكة ، ويمـده بذخيرة من أساليب التعبير ينفق منها في النظم والكتابة » ثم يقول مشيراً الى دور المدرسة التي تزعمهـا : فهذه المزايا هي التي نحتفظ بها ونتوسع فيها ونضيف اليها ما يوائمها ويتمشى معها من مزايا اللغات الاخرى » .

وقد درج الباحثون على اعتبار نشوء العمل الادبي نتيجة تجربة شعورية او فكرية يحاول صاحبها نقلها الى قرائه فاذا كان هنا هذا فلا بد لهذه التجربة الداخلية لكي تبرز الى حيز الوجود الحسي الملموس المفهوم من ان تصب في الفاظ وكلمات تطابق التجربة في قوتها او ضعفها ولذا كان نوابغ الفكر شديدي القـــدرة على التعبير اللغوي ، فان وراء كل اديب ، او مفكر مجيـد لغوياً كما يقولون ، وهـذا ماعبر عنه معروف الرصافي بقوله : « إن الاديب الاكبر هو من كانت قواه العقلية في الدرجة العليا وكانت قدرته البيانية موازية لها فالتوازن بين القوتين اعظم شرط للكمال في الادب اذ لايخفى ان من كانت قواه العقلية في الدرجة العليا وكانت قدرته على البيان غير موازية لها ـ اي في الدرجة الوسطى ـ ذهب اكثر انفعالاته النفسية ضياعا ولم يستطع لقصور قدرته البيانية تصويرها حق التصوير ، ولانقلهـا بتمامها الى نفس المخاطب ، أما اذا كان الامر بالعكس كأن تكون قدرة الاديب على البيان في الدرجة العليـــا وتكون قواه العقلية غير موازية لها فانه حينئذ يأتي في كلامه بالفاظ براقه ، وعبـــارات خلابة ولكن لاطائل تحتها من المعنى » .

فاذا كان المعيـــار المتمد في تقدير الادباء وتقييم نتاجهم هو جودة المعنى وطرافتــه ووضع العبارة وقوتها ومطابقتها للمعنى فان العقاد يحقق هذه الشروط كأحسن مايحققهـا كاتب موهوب ، فقد اتصفت افكاره بالوضوح والدقة ، وضوح في التعبير ، ودقة في المحاكة وربط للتجربة والانفعال برباط محكم من الروية والاتزان ، وكان عماده في كل ذلك حساً لغوياً ينم عن معرفة صحيحة بمصادر اللغة العربية وحياة ألفاظها ومكنونات قدرتها الفنية ، فهو لايشغل القارىء بحشو ولا زينة فان الالفاظ والكلمات تقوم في جمله بدورها التعبيري الايضاحي دون ان يظهر فيها تردد او اهتزاز اوتعثر ، وكل من قرأ كتاباته شعر كيف تحتل الالفاظ مواقعها وكيف تتصل الافكار والعبارات في كلّ متساوق متناسب يجدي القارىء متعة في العقل ، وهزة في الشعور وإثارة للقوى المفكرة فيه وصدق من قال : إن مهمـــة الكاتب المجيد ان يحمل من يريد التفكير على ان يفكر .

اما الأساس الثالث الذي قامت عليه الحركة التجديدية فهو الاتصال بالآداب الاجنبية . ومن المعلوم أن العقاد وصحبه كانوا ينظرون الى تلك الآداب من زاويتين : زاوية الثقافة العربية وتراثها الضخم ولغتها العربية الفنية ، وزاوية الثقافة الاجنبية والافادة منها في تطعيم الذهن العربي بالافـكار والاساليب دون أن تطغى احدى الثقافتين على الاخرى ، ولذا فقد دخل هؤلاء المجددون وعلى رأسهم العقاد وطه حسين عالم الثقافة الاجنبية بعد أن حذقوا لغتهم وقرأوا التراث الادبي العربي قراءة تدبر وتذوق وإحاطة بنواحي جماله وتعدد اساليبه لقد اطلعوا كما يقول العقاد « على ذخائر الادب العربي قبل الدخول الى ذلك المعرض الكبير ، فقد كنـا يوم دخلناه نقرأ المتنبي والمعري وابن الرومي والجاحظ وعبد القادر الجرجاني والاصفهاني وأبا هلال العسكري ،

ثم ينهي كلامه بتقويم هذا التراث قائلا : « ولا يقاس بمقياس هذا الادب الرفيع أدب قط » بل قد ذهب العقاد الى ابعد من ذلك ، ذهب الى البحث عن الذخائر العربية حيث كانت ، فهي « التي كانت تهدينا الى ذخائر الشعر في مخطوطاته المنسية » على حد قوله حتى اذا استكملت هذه الجماعة عدتها عمدت الى الاطلاع على الآداب الاجنبية مشفوعة بآرائها ونظراتها التحليلية والتركيبية عن الفكر الغربي طابعة كل ما قرأته وتمثلته بطابعها الذاتي، فجاء عملها مبنياً على التمييز والاختيار لا التقليد والمتابعة اي ان هذه المدرسة المصرية ليست ـ كما يقول العقاد في معرض كلامه عن الادب الانكليزي ـ مقلدة له ولكنها مستفيدة منه ، مهتدية على ضيائه ولها بعد ذلك رأيها في كل أديب من الأنكليز كما تقدره هي لا كما يقدره ابناء بلده ، وهذا هو المطلوب من الفائدة الادبيـــة التي تستحق اسم الفائدة » .

إن فضل العقاد على الامة العربية كبير فاليه ترجع الأسبقية والريادة في نقـــل الفكر الاوربي الى العربية مطبوعا بطابعه العربي الاصيل ، واليه يعود الفضل في إغناء المكتبة العربيـة بروائع المؤلفات التي تمتاز بالحيوية والجدة ، واليه يعود الفضل ايضاً في إغناء الفن الكتابي العربي بمادة ادبية وفنية وفكرية وفلسفية خصبة .

ولعل احسن وصف لهذه الشخصية الفذة ماقاله احد خصوم العقاد وهو المرحوم مصطفى صادق الرافعي وقديماً قيل : والفضل ماشهدت به الاعداء قال :

أما العقاد فاني اكرهه واحترمه ، اكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه ، قليل الانصاف لغيره ، ولعله اعلم الناس بمكاني من الادب فتجاهلني حتى لا أجري معه في عنان ، . . واحترمه لأنه اديب قد استملك أداة الادب ، وباحث قد استملك عدة البحث ، قصر عمره وجهده على القراءة ، فلا ينفك بين قراءة وقلم ؛ ومن آفة الذين يدعون النظر في كلام النـاس أنهم يفقدون استقلال الفكر وابتكار القريحة، وليس كذلك العقاد ، فان رأيه لقوة عقله ، وسلامة طبعه ، يظل متميزاً عن رأي الكتاب ، مهيمنا عليه ، يؤيده أو يفنده ، ولكنه لايسمح أن يذوب فيه أو يتأثر به . اسلوب العقاد اسلوب الاديب الحكيم تبرز فيه الفكرة الدقيقة في مجتلى من الفن الرفيع فيجمع بقوة تفكيره ودقة تعبيره طرفي البلاغة ، والعقاد مخلص لفنه ، فلا يخرج للناس مالا يرضاه فهو لذلك ابعد الادباء عن استغلال شهرته واستخدام امضائه » .

ذلـك عرض سطحي سريع للعقاد الاديب ولايغني هذا العرض عن دراسة هذه الشخصية الفنية المتعددة الجوانب والمواهب دراسة مفصلة تحليلية تظهر فضلها على النهضة الفكرية في القرن العشرين وتضعها في مكانها في تاريـخ الفكر العربي الحديث .

صفي الدين الحلي
سراج في ليل طويل

بقلم: حارث طه الراوي

١

تمهيد:

قرأت لأستاذ الجيل المرحوم مارون عبود في كتابه « الرؤوس » رأياً في الشاعر العربي « صفي الدين الحلي » لايخلو من التحامل ، فقد حشر « صفي الدين » مع أصحاب « الرؤوس الصغيرة » . ولايخفى على المعنيين بالشعر العربي أن صفي الدين لايمكن أن يكون من أصحاب « الرؤوس الكبيرة » إذا قورن بالمتنبي والبحتري وأبي تمام ولكن « صفي الدين » لايمكن ان يكون من أصحاب « الرؤوس الصغيرة » في عصره ، اذ لم يكن له منازع ، في زمنه ، على الاطلاق ، فهو يمثل يقظة الشعر العربي بعد سبات طويل .

يبدأ الاستاذ مارون عبود رأيه في « صفي الدين » في ص ٣٠٩ من كتابه حيث يقول: « ان خير ما سمعنا من الاصوات في هذه الحقبة ، صوتان ارتفعا في آن واحد . أولهما في العراق، وهو صوت صفي الدين الحلي ، الشاعر الذي استعبدته الصناعة اللفظيـة حتى اجتمعت في شعره جميع معايبها . كان صفي الدين كالطفيليات يعيش على جذوع الاقدمين ، فخمس وضمن ، ثم حاول اجتراح العجائب في الشعر — كما كان يظن — فراح ينظم لسلطانه الذي فزع اليه من ظلم المغول قصائد سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وهي تسع وعشرون قصيدة على كل حرف من حروف المعجم ، يبدأ بالحرف البيت ثم يختمه ، واليك نموذجاً منها :

مغانم صفو العيش أسمى المغانمِ هي الظلّ الا ّ أنه غـير دائمِ
ملكت زمام العيش فيها وطالما «رفعت» بها الولا وقوع «الجوازم»

أرأيت كيف يبدأ بالميم التي هي قافية قصيدة ، ثم أرأيت « الرفع والجزم » ؟ ان صفي الدين لم يدع جريمة ادبية في النظم إلا ارتكبها . قال القصائد طويلة وقصيرة، والموشحات والازجال ، كما نظم ابن مالك النحو والصرف ، نظم الحلي « بديعية » مطلعها :

«ان جئت سلعاً فسل عن جيرة العلمِ واقر السلام على عرب « بذي سلمِ »

الى ان يقول الاستاذ مارون : « وهكذا لا نرى للحلي شيئاً جديداً - ان كان هذا — شيئاً — الا سبقه الى نظم فنون البديـع في قصيدة ، ولكن بديعيته لم تصب من السـيرورة ما أصابته « بديعية » الحموي فركدت ريحها .

أما شعر الحلي فجار حين يتبع سجيته ، ولكنـه لا يخرج أبداً من دائرة التقليد فهو يعارض قصيدة المتني ليقول من الجناس :

أسبلن من فوق النهود « ذوائبا » فتركن حبّات القلوب « ذوائبا »
بيض دعاهن الغبي كواعباً ولو استبان الرشد قال كواكبا

ثم شاء ان يكون له شعر مثل شعر البهاء زهير فقال ناحياً نحوه :

إن غبت عن عياني ياغايـة الأماني
فالفكر في ضميري والذكر في لساني
ماحال عنك عهدي ولا انثـنى لساني
شوقي اليـك باقٍ والصبر عنـك فاني

وشاء ايضاً أن « يتعنتر » فقال قصيدة معارضاً بها قصيدة « حكّم سيوفك » ومد يده الى نجم الشعر العربي فأخذ قوله :

تماشى بأيدٍ كلما وافت الصفا ... نقشن به صدر البزاة حوافيا

فقال وقصر تقصيراً شائناً :

فتظل ترقم في الصخور أهلّة ... بسنا حوافرها وان لم تنعلِ

أما الباقي على الالسن من شعر هذا الفاضل فقصيدته المشهورة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

الى ان يقول المرحوم مارون عبود في مجال التفضيل بين «صفي الدين» و«ابن نباته» : « واذا سألتني ايها اسبق ، أصفي الدين أم ابن نباته ، قلت لك كلاهما مقصر ، ولكن الحلي يسبق صاحبه بضع خطوات » .

هذا هو نص رأي ناقد كبير شهير من نقاد عصرنا في اكبر شاعر في عصره ، وهو رأي لايخلو من التحامل اذا وضعناه « على المحك » ...

انا لا أبرىء صفي الدين من الصناعة اللفظية ، مصيبة ابناء زمانه . اما ان تجتمع في شعره جميع معايب الصناعة اللفظية ، فقول مردود ، لأن اكثر شعره منزه عن هذه المهنة ماخلا شعره الذي يخرج به عن نطاق سجيته فينظمه للبراعة ليس إلا . ولا أدري كيف جاز لمارون عبود ان ينعت « صفي الدين » — الشاعر المتميز بأصالته ، بالطفيلي الذي يعيش على جذوع الاقدمين ، كل ذلك لأنه يخمّس ويضمن ... وليس التخميس والتضمين من علامات عجز الشاعر في كل الاحوال ، فقد يضيف التخميس والتضمين روعة تفوق روعة الاصل أو تدانيها . أما التخميس والتضمين لمجرد اظهار البراعة فشيء لاشك مرذول يأباه الشاعر المبدع . وتخميسات وتضمينات صفي الدين لم تكن لمجرد اظهار البراعة ، وانما جاءت ، في اغلب الاحوال لاتفاقه مع بعض الشعراء في فكرة القصيدة وغايتها . وكثيراً ما مر صفي الدين بتجربة مماثلة لتجربة شاعر آخر فيكون التخميس والتضمين من دواعي التقاء التجربتين . من ذلك تخميسه للامية « السموأل » الشهيرة . والمعروف عن هذه اللامية انها تزخر بالفخر والتحدي ، وكان صفي الدين جديراً بالفخر والتحدي لأنه كان من عشيرة عربية ترفض الضيم وتأبى الهوان ..

ولا ندري ما هي «الجرائم الادبية» التي ارتكبها شاعرنا صفي الدين في نظر الاستاذ مارون ؟ أيكون مجرماً ، في مجال الادب ، لانــه نظم القصائد « الطويلة والقصيرة » ؟ ! والقصائد ، بطبيعتها ، إمــا ان تكون طويلة أو قصيرة ... أم لانه نظم « الموشحات

والازجال » ؟ ومتى كانت الموشحات والازجال خالية من الرقة والابداع لا سيما اذا صدرت عن شاعر موهوب كصفي الدين الحلي . وأما أن تبقى على الالسنة قصيدته «النونية» المشهورة:

سلي الرمـــاح العوالي عن معالينا   واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

فليس الذنب في ذلك ذنب صفي الدين وانما هو ذنب الطريقة « البيغائية » في حفظ الشعر التي ابتلينا بها . فنحن ما نكاد نسمع بالقصيدة المشهورة وندرسها في المدارس حتى نغص عليها بالنواجذ ولا نكلف أنفسنا عناء مراجعة أو تذوق سواها من قصائد الشاعر . والا فان للصفي قصائد بل خرائد تفوق النونية ، كانت وما تزال من ضحايا اهمال القراء .

والغريب حقاً أن ينظر الاستاذ مارون الى صفي الدين الحلي وابن نباته المصري نظرة الشيخ الى تلميذيه فيقول عنهما : « واذا سألتني أيهما أسبق ، أصفي الدين أم ابن نباته ، قلت لك كلاهما مقصر ، ولكن الحلي يسبق صاحبه بضع خطوات ... » . والانصاف يقتضي أن يقول ان صفي الدين أوسع أفقاً من ابن نباته وأقدر على النظم وأوسع احاطة باللغة واكثر لباقة في التنويع والتلوين .. وفي شعر الحلي حرارة وحيوية يفتقر اليها شعر ابن نباته (١) ...

لمحة عن حياته :

إذا عدنا الى النصف الثاني من القرن السابـــع الهجري ، نرى ، في شرقنا العربي ، عصر الدولة التركية المتفرقة التي لا تستظل براية واحدة. وقد تكونت من سلطان الدول التركية دول لا تحصى من « التتار » في الصين وشمـــال آسيا وأواسطها وشرقي أوربا ، ومن بقايا « السلجوقيين » في الجزيرة وآسيا الصغرى وشمالي الشام ومن « المماليك التركمانية » في الشام ومصر وبرقة والنوبة والحجاز . أما ملوك كل دولة من هـــذه الدول فكانوا يحكمون بلدانهم بولاة وعمال من الترك مؤيدين بجيش من جنسهم . ورجال القضاء والادارة وجباية الاموال والادباء والمدرسين والمؤلفين وغيرهم كانوا من الرعايا المقهورين . ولهذا فان اللغة المحلية كانت

(١) قال «البستاني» في « دائرة المعارف » – الجزء العاشر – ط دار الهلال ١٨٩٨ م ص ٧٣٤ عن صفي الدين الحلي ما اليك نصه : « كان شاعر عصره على الاطلاق . أجاد في القصائد المطولة والمقاطيع الرشيقة وله في النظم أساليب رائعـــة ومعان شائقة وألفاظ مأنوسة ومقاصد كالسهام الراشقة . ذهب في البديع كل مذهب وتأنق في النظم والنثر حتى فاق من تقدمه واتعب من تأخره مع سلامة الالفاظ وسهولة المباني ورشاقة الاسلوب . فشعره مطبوع لا شيء فيه من التكلف فضلا عما فيه من غرائب الفنون التي تقتضي تكلفاً فانه أتى من فنون الشعر بأفانين يقصر باع غيره عن مثله » .

هي الغالبة في كل دولة من تلك الدويلات . فالامة العربية ، مثلا ، كانت غالبـــة على الدويلات المتشعبة من السلجوقية في العراق والجزيرة وعلى دولة المماليك بمصر والشام . ومن تلك الدويلات دويلة كان ملوكها من سلالة مملوك تركي من مماليك « ملك شاه السلجوقي » يدعى « أرتق » . وكانت للشاعر صفي الدين الحلي علاقة ولاء ومودة ووفاء مع « أرتق » وغيره من ملوكها .

* * *

في أواسط العراق وفي مدينة الحلة الجميلة ... وُلد صفي الدين الحلي عام ٦٧٧ هـ من اسرة عربية تنتمي الى قبيلة « سنبس » – احدى قبائل طيء العربية . ونشأ بين أبناء عشيرته الذين كانوا يجمعون بين الاشتغال بالفقه والادب وبين حمــل السلاح والمساهمة في الغارات والحروب وطلب الثأر ، فتأثر صفي الدين بنهج أبناء عشيرته ، وتأدب على أهله وعلماء بلدته ، وقبس من علماء بغداد شيئاً من العلم ، وشب مطبوعاً على قرض الشعر ، ينظمه تلبية لنـــداء تجربته وذوقه ، ويأنف أن يبيعه في سوق التكسب والاستجداء . وقال صفي الدين حول ترفعه عن التكسب بالشعر . في مقدمة ديوانه ما اليك نصه :

« وبعد . فاني كنت قبل أن أشب عن الطوق ، واعلم مادواعي الشوق ، بهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً ، واقفاً بسبك القريض ، كارهاً للكسب بالتقريض إذ كان ديدني ألا أمسح يد دني ، وان أقر من العادة الحسناء ولو من النادة الحسناء . وأعد الشعر من أدب الفضائل » الى أن يقول :

« وكنت عاهدت نفسي ألا أمدح كريماً وان جل . ولا أهجو لئيماً وان ذل . وذلك للتنزه عن التشبه بذوي السؤال الخ ... » .

ولــكن ظروف رحلاته ، اضطرته ، على ان يطرق باب المديح لا بدافـــع الذلة والطمع ، وانما بدافع مقابلة الوفاء بالوفاء ...

★ ★ ★

عندما كان صفي الدين الحلي شاباً حدثت فتنة بين أبناء اسرته « آل محاسن » وبين أبناء اسرة « آل أبي الفضل » فاغتال آل ابي الفضل احــد أخوال صفي الدين الحلي يدعى صفي الدين ابن محاسن ، عندما كان في مسجده . وكان آل أبي الفضل أقوى من آل محاسن . فالتهب الدم في عروق شاعرنا الحلي وقصد أمراء النواحي ورؤساء العشيرة يستنجدهم عــلى أخذ الثأر من آل ابي الفضل ، والتحم الطرفان المتنازعان فانخذل آل أبي الفضل وأتاحوا بانخذالهم لصفي الدين ان يفخر بهذا النصر المبين في « نونيته » (١) الشهيرة التي تصور النفسية النبيلة للانسان العربي أروع وأدق تصوير ...

---

(١) التي مطلعها : سلي الرمـــاح عن معالينـــا واستشهد البيض هل خاب الرجا فينا

الا أن هذه الفتنة لم تكن آخر الفتن ، ذلك لأن آل ابي الفضل لم يتركوا شاعرنا وأسرته ينعمون بالسلام والاستقرار ، وانما تفننوا في ايذائهم وتكدير صفاء عيشهم ، فمل صفي الدين هذه الحياة القلقة المضطربة ورحل عن بلدته وألقى عصا الترحال في مدينة « ماردين » من اقليم ديار بكر بأرض الجزيرة الفراتية ، واستظل بحماية ملوكها من بني أرتق الذين عاصر منهم شاعرنا الملك المنصور نجم الدين غازي وولده الملك الصالح ، فعاملاه معاملة الند للند ، وحبا لكرم محتده ألف حساب ، فأحس صفي الدين احساساً عميقاً بالراحة والطمأنينة ، ووجد من واجبه ان يزيل قلق أهله عليه . فأرسل اليهم الابيات التالية سنة ٧٠١ ﻫ .

ألا بلّغ ، هديتَ ، سراة قومي — بحلّة بابلٍ ، عند الورودِ
ألا لا تشغلوا قلباً لبعدي — فاني كل يومٍ في مزيدِ
لأني قد حللتُ حمى ملوكٍ — ربوع عبيدهم كهف الطريدِ
فمن يكُ نازلاً بحمى كليبٍ — فاني قد نزلتُ حمى الأسودِ

وبقي في كنف الملك المنصور غازي ، يواصل منادمته ومدحه ، حيث مدحه بقصائد عدة ، منها القصائد المسماة بالأرتقيات التي تقع في تسع وعشرين قصيدة كل منها تقع في تسعة وعشرين بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ في كل بيت منها بحرف وبه يختم وجعلها ديواناً سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » . وتوفي هذا الملك عام ٧١٢ ﻫ فواصل صفي الدين ولاءه لولده الملك الصالح الذي اندمج معه اندماجاً روحياً لتقارب مزاجيهما ...

وهكذا ألقت الأيام عن كاهل الشاعر المغترب هموم العيش هماً بعدهم ، فأقبل على اللهو والطرب ، وصور حياته الجديدة المترفة في شعر غزلي وخمري ودعابي ومجوني ، على ماسنرى عند جولتنا القصيرة في رياض قريضه . حتى اذا ناهزت سنه الخمسين ، أراد ان يعصم نفسه عن الملذات ومغرياتها والمجون ودواعيه ، فرحل الى بيت الله الحرام وحج وزار قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم عام ٧٢٤ ﻫ ثم يمم شطر مصر عام ٧٢٦ ﻫ حيث تعرف على ملكها الناصر محمد بن قلاوون ووزيره وكاتب سره القاضي علاء الدين بن الأثير الجزري الكاتب المشهور فدحه ومدح الناصر بقصيدة ذائعة الصيت عارض بها قصيدة المتنبي : « بأبي الشموس الجانحات غواربا » بقصيدة طويلة مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا — فجعلن حبات القلوب ذوائبا

والقصيدة لا تخلو من المبالغة التقليدية في الوصف ، فقد شبه ممدوحه بالليث وبالسيل وبالبحر وغير ذلك من أوصاف المبالغة :

الناصر الملك الذي خضعت له — صيد الملوك مشارقاً ومغاربا

بمكارم تذر السباسب أبحرا   وعزائم تذر البحار سباسبا

ويقول :

كالغيث يبعث من عطاه وابلا   سبطاً ويرسل من سطاه حاصبا
كالسيف يبدي للنواظر منظراً   طلقاً ويمضي في الهياج مضاربا
كالسيل يحمد منه عذباً واصلا   ويعده قوم عذابـــاً واصبا
كالبحر يهدي للنفوس نفائساً   منه ويبدي للعيون عجائبا الخ

فكان من الطبيعي أن يغدق هذا الممدوح على مادحه بالآلاء ويجزل له في العطاء .

ولما وجد صفي الدين لذة في جوب الآفاق والتنقل من بلد الى آخر ، رحل الى الشام وحل بدويلة من بقايا آل أيوب تستظل بحماية سلاطين مصر من آل قلاوون ، وكان سلطانها عند وصول الشاعر الحلي اليها الملك المؤيد أبو الفداء عمـــاد الدين اسماعيل ، فنزل في ضيافته ولقي من حدبه واكرامه الشيء الكثير . واقام بالشام عدة سنين. وأتيح له أن يلتقي بالشهاب محمود الحلبي وابن نباته المصري . وشاء أن يكتسب بالتجارة في الشام ، فكان له ما أراد ، ثم عاد الى مخدومه بعد هذا الغياب .

واستهوته الآفاق من جديد فصار يرحل الى بلاد الجزيرة وبغداد والشام ويمدح ملوكها ويرثيهم ويراسل فضلاء الادباء الى أن توفي سنة ٧٥٠ هـ . وقد اختلف الباحثون في المحل الذي توفاه الله فيه ، فذكر جرجي زيدان في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» ج ٣ ص ١٢٨ : «ثم عاد الى ماردين وتوفي ببغداد» وذكر الشيخ أحمد الاسكندري في بحثه عنه بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — ج ٣ و ج ٤ آذار — نيسان ١٩٣٢ م ص ٢٤٦ : «ولم نعلم عن يقين البلد الذي مات به ونرجح أن تكون وفاته بماردين» . وذكر صاحب «الحصون» في ج ٩ ص ٣٢١ أنه توفي بالقاهرة في اوائل عام ٧٥٠ هـ ،

٢

نظرة في شعره :

من طبيعة الشاعر العربي — لاسيا في الماضي البعيد — ان يفخر بنسبه وعشيرته وشجاعته وبما يتحلى به من المواهب ، فكأنه ، يريد بذلك ، ان يشعر ممدوحه إنه ليس انساناً طفيلياً لاهم له الا ان يعيش على صدقات المحسنين الذين رفعتهم الاقدار الى مستوى البذل والعطاء ، وإنما هو انسان له كرامته وعزته وله من كريم محتده بحبوحة تنعم بها روحه ويشفى جسده ...

وليس كل الشعراء سواسية في هذا الشعور وهذه المنزلة من الاحساس الوثاب ، فبعضهم

طفيلي لاهم له غير ان يستجدي ، وليس صفي الدين من هؤلاء على اي حال ... فقد من الله عليه بكرم المحتد وصفاء المعدن وشجاعة القلب وعلو الهمة ، الى غير ذلك من الصفات التي يتحلى بها كبار النفوس عادة . فكيف لايفخر ، وهو ينعم في بحبوحة من هذه الفضائل . ومن طبيعة الشاعر ان يندفع ، في صباه ، في التغني بمآثر ذاته ، مندفعاً مع احلامه الباسقة وامانيه الفسيحة ، وخير مايشير الى هذه الحقيقة هو « بائية » صفي الدين التي يقول فيها :

لئن ثلمت حدي صروف النوائب ... فقد اخلصت سبكي بنار التجاربِ
وفي الادب الباقي الذي قد وهبنني ... عزاء من الاقوال عن كل ذاهبِ
فكم غاية أدركتها غير جاهدٍ ... وكم رتبة قد نلتها غير طالبِ
وما كل وانٍ في الطلاب بمخطىء ... ولا كل ماضٍ في الأمور بصائبِ
سمت بي إلى العلياء نفسٌ ابيةٌ ... ترى أقبح الأشياء أخذ المواهبِ
بعزمٍ يريني ماأمام مطالبي ... وحزمٍ يريني ماوراء العواقبِ
وماعابني جاري سوى أن حاجتي ... أكلفها من دونه للأجانب
وان نوالي في الملمات واصل ... أباعد أهل الحيّ قبل الأقاربِ
وليس حسود ينشر الفضل عائباً ... ولكنه مغرىً بعدّ المناقبِ

والقصيدة طويلة تقع في خمسين بيتاً ، وكل بيت منها مثقل بهذا الفخر الصارخ ، والقصيدة هذه ، كما هو واضح في ابياتها ، انما تتحدث عن كمي لاعن صبي ، الا اذا أراد الصبي ان يتشبه بالكمي المغوار . وهي والحالة هذه - تصور واقع عنترة العبسي أكثر من تصويرها لواقع صفي الدين في صباه ...

أما « نونيته » الشهيرة التي يقول في مطلعها :

سلي الرماح العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

فقد اعترف بروعتها اعداء صفي الدين وأنصاره على السواء . وماذكر صفي الدين ، في مجال الحسنات ، إلا وذكرت هذه القصيدة . ولم تحظ بهذا العز ولم تظفر بهذا الذيوع إلا لأنها تصور حالة نفسية عنيفة عاشها الشاعر ، وترسم ، بسطور من لهب تجربة اكتوى الحلي بنارها ، فقد أسلفت أقول أن آل ابي الفضل قتلوا خال شاعرنا الحلي غدراً في المسجد وحين أخذ قومه بثأره تنفس صفي الدين الصعداء وأطلق حمم براكينه في فضاء الفخر والثأر . وليس

في هذه القصيدة فخر أجوف ، بالرغم من ورود بعض المبالغات التي كان يجيزها شعراء ذلك الزمان كقوله :

اذا ادّعوا جاءت الدنيا مصدّقة   وان دعوا قالت الأيام آمينــا

وفي هذه القصيدة ، الى جانب التشبث بالفخر والاعتزاز بالنصر ، اعتزاز بقيم اخلاقية عربية سامية كقوله :

قوم اذا استخصموا كانوا افراعنة   يوماً وان حكموا كانوا موازينا

وان قوماً هذا شأنهم في الحياة ، إنما يتدرعون ، في الصفو ، بجلباب العقل والنظـام والسماحة . حتى اذا استخصموا واثيروا أبو ان يكونوا من العقلاء الجبناء ، وآثروا كرامة العاطفة المشتعلة على تحفظات العقل :

تدرعوا العقل جلباباً فان حميت   نار الوغى خلتهم فيها مجانينـا

قلت ان بعض ابيات هذه الخريدة تصور الخلق العربي الاصيل . ومن ذلك قوله :

انا لقوم أبت أخلاقنـا شرفـاً   أن نبتدي بالاذى من ليس يؤذينا

وهذا البيت يصور الخلق العربي الاسلامي اروع تصوير وعبر الخلق العربي بعد الاسلام من قبله ، فقد كانت الآية معكوسة في الجاهلية عندما كان الشاعر الجاهلي يقول :

وأحياناً على بكرٍ أخينـا   إذا مالم نجـــد إلا أخـانا

وهذا خُلُقُ الغزو والايذاء الذي نهت عنه الشريعة الاسلامية الغراء . وكأني بصفي الدين ، وقد اعطى قومه مايستحقون من ثناء طيب النشر ، احس بحظه على نفسه بمثل هـذا الثناء او بعضه ، وهو الذي لم يكن مكتوف اليدين عندما التحم الخصمان ، فجاءنا بلاميــة تحدث في اغلب ابياتها عن دوره البطولي في المعركة ، ومما قاله عن نفسه :

لما دعتـني للنزال أقاربي   لبّاهم عنّي لسانُ المنصلِ
وأبيت من أني أعيش بعزّهم   وأكون عنهم في الحروب بمعزلِ
وافيتُ في يومٍ أغرّ محجلٍ   أغشى الهياج على أغرّ محجّلِ
ثار العجاج فكنت أوّل صائلٍ   وعلا الضرام فكنت أول مصطلِ
فغدا يقول كبيرهم وصغيرهم   لاخير فيمن قال إن لم يفعلِ ...

والظاهر أن شاعرنا الحلي لايكتفي بما نظم في قصيدتيه السالفتين ، في مجال الفخر

والاعتزاز بدليل انه راجع قصائد الفخر والاعتزاز عند العرب فأعجبته « عينية » قطري ابن الفجاءة فسمط أبياتها على النحو التالي :

ولما مدت الأعداء باعـــا ... وراع النفس كسرهم سراعـا
برزت وقد حسرت لها القناعا ... أقول لها وقد طارت شعاعـا

من الابطال ويحك لاتراعي

كما ابتعت العلاء بغير سوم ... وأحللت النكال بغير قوم
ردي كأس الفناء بغير لوم ... فانك لو سئلت بقاء يوم

على الأجل الذي لك لم تطاعي

فكم أرغمت أنف الضد قسرا ... وأفنيت العدى قتلاً وأسرا
وأنت محيطة بالدهر خبرا ... فصبراً في مجال الموت صبرا

فما نيل الخلود بمستطاع

★ ★

عندما صفا العيش لصفي الدين في كنف الملك المنصور غازي وابنه الملك الصالح ، حمل شيطان الغزل الى شاعرنا هبات كثيرة بعضها يعد من الاعلاق ، ومن تلك الهبات نونيته التي ترنم بها محمد عبد الوهاب التي مطلعها :

قالت : كحلت الجفون بالوسن ... قلت : انتظاراً لطيفك الحسن

وفي هذه القصيدة الرقيقة من الحوار المستحب بين الحبيبين ما يحببها الى النفس ويرسلها الى شغاف القلب ، وهي من بعد منقلة بيث العاشق المجوج واندفاعه في دنيا الصبابة ، وبتحفظات المعشوقة المسرفة في الدلال الحلو والمر :

قالت : تسليت بعد فرقتنا ... فقلت : عن مسكني وعن سكني
قالت : تشاغلت عن محبتنا ... قلت : بفرط البكاء والحزن
قالت : تناسيت ، قلت : عافيتي ... قالت : تناءيت ، قلت : عن وطني
قالت : تخليت ، قلت : عن جلدي ... قالت : تغيرت ، قلت : في بدني
قالت : تخصصت دون صحبتنا ... فقلت : بالغبن فيك والغبن
قالت : أذعت الأسرار قلت لها : ... صير سري هواك كالعلن

قالت: مررتَ الاعداء قلت لها ... ذلك شيء لو شئتِ لم يكنِ
قالت: فماذا تروم ? قلت لها : ... ساعة سعد بالوصل تسعدني
قالت : فعين الرقيب تنظرنا ... قلت : فاني للعين لم أبنِ
أنحلتني بالصدود منكِ فلو ... ترصدتني المنون لم ترني !

فانت ترى أن في غزل الحلي عذوبة وطرافة ، وهذا لا يعني أن غزله بعيد ، أغلبه ، عن التشابيه التقليدية المألوفة الملقاة على طريق السابلة من « خمر الريق » الى « قوام الغصن » و « بدر التم » الى غير ذلك ولكنه – والحق يقال – كان يحسن ، أحياناً ، التصرف بهذه الاستعارات المألوفة المقننة ؛ من ذلك وصفه لجمال حبيبه :

يقولون لي ،والبدر في الافق مشرق ... بذا أنت صبٌ ? قلتُ : بل بشقيقه

واذا كان هذا البيت من ومضاته ، فلشاعرنا ، في بعض قصائده الغزلية وثبات كقوله :

لولا الهوى ماذاب من حنينه ... صبٌ أصابته عيون عينهِ
متيّمٌ لاتهتدي عوّادُه ... الا بما تسمع من أنينهِ

والاهتداء بالأنين صورة رائعة لاتخلو من الابتكار ، وما أروع استجارته بجيرة الحي ، حي الأحباب :

ياجيرة الحيّ أجيروا عاشقاً ... ماحاد عن شرعِ الهوى ودينهِ
باطنه أحسن من ظاهره ... وشكّه أوضح من يقينهِ

وبعد تسنم شاعرنا هذه الذروة الشاهقة ، ينحدر في البيتين اللذين نالا من روعة هذه المقطوعة الرائعة حيث يقول :

لاتحسبوا ماساح فوق خدّه ... مدامعاً تسفح من جفونه

فيترك لنا بذلك مجالاً فسيحاً للتأمل وتوقع الاجادة في وصف دموعه ، وإذا به يقول :

وانما ذاب جليد قلبه ... فطرفه يرشح من معينه

وما أبشع تشبيه قلب العاشق بالجليد .. ، ولعله تشبث بالجليد لأنه يذوب ، وهو بحاجة الى مادة تذوب ليشبه بها الدموع ، وفاتته المواد التي تنصهر ...

ولا شك ان غزل الحلي رائع ، اذا جارى الرجل سجيته ولم يبتعد عنها . اما اذا وسوس له شيطان المحاكاة ، طلعت سجيته وطفق يقلد وينحدر . يقول عنترة العبسي :

ولقد ذكرتكِ والرماح نواهل ... مني وبيض الهند تقطر بالدم

فيصهر صفي الدين هذا المعنى في اكثر من بوتقة ولكنه لايضاهي العبسي :

ولقد ذكرتك والسيوف مواطر ... كالسحب من وبل النجيع وطله
فوجدت انساً عند ذكرك كاملاً ... في موقف يخشى الفتى من ظله

ويقول الحلي أيضاً بهذا المعنى :

ولقد ذكرتك والعجاج كأنه ... ظل الغني وسوء عيش المعسر
والشوس بين مجدل في جندل ... منا وبين معفــر في معفــر
فظننت أني في صباح مشرق ... بضياء وجهك أو مساء مقمر

ولصفي الدين في حلبة المجون والادب المكشوف « جداً » أبيات ومقطعات استحي أن أذكر بعضها للقارىء لئلا أثير غريزته او سخطه ..

وعلى أي حال فان الرجل عندما ناهزت سنه الخمسين عزف عن الملذات وحــج بيت الله الحرام ومدح الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بثلاث قصائد وأربع أبيات سكب فيها من ذوب قلبه وعصير روحه الشيء الكثير ، وهو يرجو فيها الشفاعة ويلتمس الغفران واطفاء نيران الذنوب . وحسبنا ان نلقي نظرة على احداها ولتكن الهائية . ولا يهمنا فخر صفي الدين بنفسه في هذه القصيدة فقد قرأنا من فخره بنفسه فيما سبق الشيء الكثير ، والذي يهمنا هنا أن نتلمس طريقته في مدح الرسول الأعظم ولنبدأ من مشهد الناقة الــتي كانت تحمل الشاعر الى بيت الله الحرام وقبر الرسول (ص) :

ترض الحصى شوقاً لمن سبح الحصى ... لديه وحيا بالسـلام بشيرهــا
الى خير مبعوث الى خير أمة ... الى خير معبود دعاها بشيرها

ثم يصف الشاعر المؤمن دعوة محمد (ص) الى الايمان وكيف أخمد نار المجوس بالتوحيد وكيف زلزل عرش كسرى :

ومن أخمدت مع وضعه نار فارس ... وزلزل منها عرشها وسريرهــا

وينطلق الشاعر في تمجيد الرسول الأعظم والتغني بمآثره فيبدع أيما ابداع حيث يقول :

محمد خير المرسلين بأسرهـا ... وأولها في الفضل ، وهو أخيرهـا
أيا آية الله الـتي قـد تبلجت ... على خلقه أخفى الضلال ظهورها
عليك سلام الله ياخير مرسل ... الى أمة لولاه دام غرورهـا
عليك سلام الله ياخير شافــع ... اذا النار ضم الكافرين حصيرها

عليك سلام الله يامن تشرّفت   به الأنس طوراً واستتم سرورها
عليك سلام الله يامن تعبدت   له الجن ، وانقادت اليه امورها
تشرّفت الاقدام لما تتابعت   اليك خطاها واستمر مريرها
وفاخرت الافواه نور عيونها   بتربك لما قبّلته ثغورها
فضائل رامتها الرؤوس فقصرت   ألم تر للتقصير جزت شعورها
ولو وفّت الوفّاد قدرك حقه   لكان على الأحداث منها مسيرها

ولصفي الدين في مدح الامام علي عليه السلام دالية لاتخلو من الصدق في العاطفة والروعة في الأداء ولعل أروع ما فيها قوله :

جمعت في صفاتك الاضدادُ   فلهذا عزّت لك الانداد
زاهد ، حاكم ، حليم ، شجاعٌ   ناسك ، فاتك ، فقير ، جوادُ
شيمٌ ماجُمعن في بشرٍ قطّ   ولا حاز مثلهنّ العبادُ
خُلقٌ يخجل النسيم من العطف   وبأس يذوب منه الجمادُ

وكان صفي الدين يحب الصحابة جميعاً ولايؤثر هذا على ذاك منهم فهو القائل :

قيل لي تعشق الصحابة طرّاً   أم تفردت منهم بفريقِ
فوصفتُ الجميع وصفاً إذا ضوّ   ع أزرى بكل مسكٍ سحيقِ
قيل هذي الصفات ، والكل كالدر   ياق يشفي من كل داءٍ وثيقِ
فالى من تميل ؟ قلت الى الأر   بع لاسيّما الى (الفاروقِ)

وبعد فهذه لمحات من حياة صفي الدين وشعره ، املاها علي الانصاف ، بعد ان اطلعت على تحامل المرحوم الاستاذ مارون عبود عليه في كتابه « الرؤوس » . ولاتتسع حدود المجلات لأكثر من هذه اللمحات بطبيعة الحال .

اليوم الخامس



قصة للكاتب الفرنسي : بيير باسون

لخصها ونقلها الى العربية : الدكتور بديع حقي

لقد ابتسم له ، منذهنيهة . وكان الرجال يجرون اعياءهم . وكانت نظراتها تتلاقى من فوق الجمع الغفير . وجعلت ضربات اعقاب البنادق تترادف ، فينحني لها الرجال بعض الشيء .

وكانت نظراتها تتسم بنفس الهدوء . ولهذا فقد ابتسم له ، وكان (وارنيت) واثقاً من ابتسامه له ، بيد ان دفعة شديدة ، خاطفة فصلت مابينهما .

(*) قصة ظفرت بالجائزة الاولى في مسابقة عالمية نظمتها مجلة (لايف)

وكانت صرخات الحراس تنفذ الى الاجسام كالكلابات . وكانت عربات القطار مفتوحة في اتجاه الطريق ، يساق اليها الرجال .

تضاعفت صرخات الحراس . مشفوعة بضربات البنادق ورؤوس الحراب . وتعثر رجال واراد الذين كانوا خلفهم مجانبتهم . ولكن .. كانت هناك ، الصرخات واعقاب البنادق والحراب . والخطى الثقيلة المرهقة . فأما من وقع فقد داسته الاقدام في مهل .

وتطاول (وارنيت) في عربة القطار ، مدفوعاً بمن كانوا وراءه دافعاً لمن كان امامه .

وكان الرجال اشبه بالحمأ اذ يسيل ، منزلقاً ، سلساً ، يتكيف كل جزء منه بالجزء الآخر ، وكانوا ، بتموجهم الثقيل ، ينسكبون فيملأون العربات .

وكانت جذبة تفصل ماينهما . واخرى تجمعها . والفاه (وارنيت) قائماً الى جانبه وقد انهصرت ضلوعها . وابتسم له . ورد (وارنيت) ، في هذه المرة ، على ابتسام بابتسام . وكان متأكداً من ان هذا الرجل يتذوق مثله ؛ الثقة الهادئة نفسها وفرحة الحياة نفسها .

وكانت الزحمة تشدهما قليلا . وكان لهاث الرجال يثقل على فم كل منهما . وتابعا الابتسام . وكان (وارنيت) يعرف مثله انه في مأمن نسبي في عربة تضم مائة وخمسين رجلا . بسبب هذا الفيض نفسه من العدد .

وفيما كانوا يصعدون ، جلس بعضهم . ولكن تنفسهم ضاق واختنق ولم يعد في ميسورهم الوقوف ، فقد التأم مافوق رؤوسهم وتغطى .

واغلقت الابواب . واضحت الصرخات الاخيرة المتعالية من الحراس ، ملكاً لعالم آخر . وتبادلا النظر ، وكان يجمعهما شبه في ندبات جراحهما . فقد تخلف في وجهيهما آثار ظاهرة متماثلة . وابتسم (وارنيت) وقال له :

– لم يعد لك أسنان .

– لا وانت ؟

وفتح (وارنيت) فاه . وقال الآخر :

– ليس هذا بالذي يؤلم اكثر من كل شيء .

وابتسم (وارنيت) وابتسم الآخر ، وكانت ابتسامة متماثلة تجذل على وجهيهما المهبجين (١) الورمين الوسخين الزنخين بالعرق . كانت ابتسامة ضالعة ، متجاوبة مع الأخرى . غير انهما كانا يعلمان ان ثمة افتراقاً يفصل ماينهما ، كما يفصل هذا الحشد من البشر الذي تنوء به عربة القطار . وقال (وارنيت) :

– اننا في حال حسنة الآن .

---

(١) المهبج : المنتفخ من أثر الضرب . من فصيح العامية .

– أجل .

واخذ القطار يرتج ، وقال الآخر :

– أنه بسبيل الرحيل .

- اجل .

وابتسما ابتسامة أطول ، وكانت سحنتاهما المغضنتان تألقان بالعذوبة ؛ كما لو كانا قد انعتقا ، من مخاوفهما ، دفعة واحدة .

وبدا (وارنيت) بين الاجسام المنتصبة ، مرتاحاً كأنه يتهيأ لرحلة طويلة . مستمرئاً لها.

وزمجر رجل ؛

– ايه .

وأعول آخر صارخاً ،

– انتبه.

وقال (وارنيت)

– عفواً.

وكان يستلم لايقاع عربة القطار ، وقال الآخر

– خذ .

وشعر (وارنيت) بان يدآ تتقرى يده ، وأمسك بقطعة الخبز . ودسها في فمه بحركة منعكسة ، وعثر ، وهو يملكها ، على جوعه ، من جديد ، ولم يكن يفكر فيه من قبل ، وشعر بحنان يجاذب نفسه . وتراءى له كل شيء سهلاً بل مفرحاً ، ان معه هذا الرفيق الطيب ، هذا الرفيق الذي كان يسبغ مثله الأمن الموعود .

وكان يمضغ الخبز ، بسرعة ، وقد اضطر الى بذل جهد ليمنع نفسه من بلع لقمته دفعة واحدة . وكان يدير الخبز في شدقه ويستثير لعابه علـى مذاقه ، كان لعابه كدموع الفرح ، وقال (وارنيت) :

– هل اعتقلت منذ أمد بعيد ؟

فأجاب الآخر :

– منذ خمسة عشر شهراً .

وهز (وارنيت) رأسه وكان ثمة ظل أخضر شبيه بظل حويض مائي (اكواريوم) ، تفسخ فيه عشبه ، يغمر الوجوه ، ولم يكن وجه الرجل الآخر بمنجى من غمرة هـذا الظل . بيد ان قسماته ظلت ساكنة هادئة . وكانت عيناه المستديرتان قليلا تستريحان الى جفنين تعلق بهما دم مايزال خاثراً من اثر الضرب .

وقال وارنيت :

ـ سنذهب بعيداً .

وأجاب الآخر .

ـ طبعاً .

وكان طول المسافة مايزال يبث في عطفيها الأمن . وحدث فجأة اندفاع ، وتجاوب صراخ ، وبهر ، وكان ذلك منبعثاً من ركن في عربة القطار . وتعالت صرخات :

ـ مزيداً من الهواء ، انه سيقضي نحبه .

★ ★

وجعل اولئك المجاورون للرجل المدنف الذي يوشك ان يقضي نحبه ، يتترسون بظهورهم مدافعين بها الكتلة المتراصة من البشر ، حتى ينفسح لهـــذا المدنف شيء من الهواء . ولكن هذه الكتلة البشرية كانت اشبه بالطين ، ولم يكن في المستطاع ردهذا الطين باستدارة الظهور . فقد جعلت هذه الكتلة البشرية الطينية تنفذ تحت الظهور المحدودبة لتزلق الى الاكتاف وتنساق الى الحضور . واضطر الذين يدافعون بظهورهم الى ترك جهودهم المبذولة عبثاً ، واندقت الاجسام ، ملتئمة من جديد ، وتهادى المدنف في هـــذه اللجة البشرية ، حيث كانت الزمجرات تنطفىء كفقاعات في الفضاء .

وقال وارنيت :

ـ كل هؤلاء ...

وهز رأسه بحركة تشير الى الجم الذي تضمه عربة القطار . واجترأ الآخر بالابتسام ، وسأله (وارنيت) :

ـ ماذا كنت تمتهن ؟

ـ كنت مستخدماً في مكتب كاتب بالعدل .

وفكر (وارنيت) : حقاً ، ان له سحنة تشي بذلك .

ـ امتزوج ؟

ـ بلى ، ولي ولدان ، صبي وبنت .

ـ انا ، ليس لدي سوى بنت .

وكان عليه ان يبذل بعض الجهد حتى يتذكر ، وقال الآخر :

ـ وانت ماذا كنت تمتهن ؟

وكان (وارنيت) ما يزال يتلمظ لعابه ويستطيب مذاقه وقد مازجه طعم الخبز ، وجاذبته خيلاء وهو يسمع سؤال الآخر واجاب :

– اما انا : فلم يكن لدي الشيء نفسه ، كانت حياتي كما تراها الآن .

وقال الآخر :

– افهم ذلك ، فلم يكن ثمة مجال لمهنة ما ، في نضالك .

وفي الحق لم يكن في ميسور المرء ان يعمل ويناضل معاً . وقد اختار (وارنيت) النضال ، وكان ذلك مبعث فخاره . ووافق الاخر ، وكان وجهه يتراءى تحت ندباته جراحه ، عذباً طيباً بعينيه الموسيقيتين بعينيه المفعمتين بالحنان . وقال له :

– حقاً ان شجاعتك لكبيرة .

وانتحت الابتسامة من الوجه العذب ذي الجفنين الملوثين بالدم الخاثر . واجاب :

– ليست هذه الشجاعة بكبيرة حين كنت استدعى باسمي هناك ..

ولم يحر (وارنيت) جواباً . الله يعلم كيف تكون حال المرء الذي يستدعى . ذات يوم ، من بين مجموعة من البشر ويؤخذ من فناء السجن ويساق الى حجرة ينتصب فيها مردة من الرجال ، ذوو جبهات قاسية لا نور فيها ، والله ليعلم أي امل يقصده المرء ، في مثل هذه الساعات ، على شفرة حلاقة يعثر عليها في فناء السجن ويخبئها في حشية فراشه ليدخرها الحيوم يجد بها خلاصه . ولقد وجد هو ، في مثل تلك الساعات ، القوة على الصمت وهو يفكر في ان هذا العذاب لن يتكرر بعد الان ، والـــه في ليلته تلك ، سوف يحول دون عودة تلك الساعات المماثلة ، وكان يتمسك بفكرة أوردته المقطعة ودمه المهراق ، ان قدر له ان يقع بين ايدي اولئك المردة ذوي الجبهات القاسية ، مرة اخرى .

ولما عاودته هذه الفكرة ، فيما بعد . كان قد نقل الى حجرة اخرى ، لم يكن فيهـــا وحيداً ، كانوا عشرة ، اذن فقد تضاءل الخطر ، لقد رموا به ضمن مجموعـــة من المعتقلين . والخطر هو ما استهدف فرداً لذاته .

لهذا .. حين يلقى بشخص ما ، في عربة قطار حشر فيها مائة وخمسون شخصاً ، فانه لا يتعرض لنفس الخطر الذي يستهدفه هو لذاته ، انه في الامكان تسليط رصاص الرشاش على مجموعة من الناس ، ولكن هذا ليس كمثل الخطر الذي يواجه انساناً معيناً ، انساناً ذا اسم، أمام آخرين يصممون بكل ما اوتوا من عزم وبنور غريب في احداقهم على أن ينفذوا اليه وان يشرعوا ، لهذا ، بسلخ جلده .

★ ★

كان القطار يسعى في الصيف اللاهب ، وكان الحر يحصد الضعفاء .

وتبادل وارنيت والاخر ابتسامة شفقة على اولئك الرجـــال ، الذين اوفوا على مائة وخمسين شخصاً في عربة قطار ، ونقلوا الى مصير مجهول دون ان يعطوا ماء ولا طعاماً ، انها كتلة بشرية ترفد غيابات السجون وتغذيها .

— كانوا يتهاوون ، اعياء ، ويئنون وقال (وارنيت) :

— اولى بكم ان تفزعوا الى النظام بدلا من الانين .

وهوت الكلمات على الرجال ، كالسياط ، وترددت زمجرة وسباب ، وهتف صوت :

— ننظم ماذا ؟ حاول أن ترفع ذراعك ..

وكان ذلك حقاً ، فقد كان من العسير على المرء أن يرفع ذراعه ، وقال (وارنيت) .

— ان الروح المعنوية هي التي يجب أن تنظم .

★ ★

وجعل الليل يهبط ، وأخذ الثقل الأصفر في عربة القطار يقتم ، وقال الاخر :

— اليوم الخامس هو اقسى الأيام ...

وهز (وارنيت) رأسه ، ولابسه شعور بالراحة والرضى ، اذ يسافر مع رفيق يتجلى له رجلا عارفاً مجرباً ، وتبادلا الابتسام ، وكان ما يزال في شدقيها لعاب ، وكانا يعلمان أي نعمة ثمينة تتلخص بهذا اللعاب ، وكم ذا سيفتقد في اليوم الخامس ، ان اكثرهم ضعفاً سيقضي ، ولكن ليس بالشيء المرعب ان يلو المرء الموت ، ضمن مجموعة بشرية تعاني هي النزع الاخير .

— قال (وارنيت) :

— بلى انها مسألة روح معنوية ، لتعطي نتيجة لأفكارهم المتشابهة .

وتناهى من ركن ، صرخة منتحبة متمردة . كان يصرخ صوت فتي :

— ليس من الممكن ان يتركونا ، هكذا ، طوال الليل .

وغمز الآخر ، وهز (وارنيت) كتفيه . حقاً انها صرخة فتي فطم منذ أمد قريب .

وحاول بعضهم أن يجلس ، وصالب بعض بعضاً آخر في وضع قريب من الاضطجاع .

كانت القوى ، عامة ، متزايلة ، على نحو شبيه بالركوع . وقال الآخر :

— انهم يبغون الراحة باكراً .

— ليس في مقدورهم أن يمرضوا .

— لاشيء يمكن أن يعمل من اجلهم .

— لا . لاشيء .

ومضغ (وارنيت) كلمته ، مستثيراً لعابه عليها . مثلما كان يستثيره على قطعة الخبز ، منذ أمد قريب ، وكان يستطيب كلمته . كما لو كانت رمزاً للامن الموعود ...

وسربلهم الليل ، كقبلة ، استبد بها النسيان .

★ ★

وتوقف القطار . فكان ثمة اندفاع في العربة نحو الباب ، وانسحق بعضهم . وتعالت صيحات وشتائم . وقال الآخر :

– ينبغي لهم بعض الوقت كي يعرفوا ، غداً ، سيعتصمون بالهدوء ان توقف القطار ،

وكان القائمون في مقدمة الصف الأول ، يمزقون قبضات ايديهم ، قرعاً على الأبواب الحاجزة ، وجف لعاب الآخرين في اشداقهم وهم يصرخون . وقال الآخر :

– سيموزون ، في اليوم الخامس ، قوائم التي يبددونها ، عبثاً ، الآن .

وقال (وارنيت)

– انهم لايعرفون .

وقال الصوت الفتي :

– ماذا ينتظرون كي يفتحوا ؟

انه صوت مراهق يسري اللبن في نبراته ، وشعر (وارنيت) بالشفقـــة ، لم يكن يستطيع أن يترك الغلام يلتهم انتظاره على هذا النحو . فقال :

– لن يفتحوا الابواب ، انهم يبدلون المحرك وحسب .

– اتجهت صوبه الوجوه ، تحت اشعة النهار الاولى . وبرقت الاحـــداق فجأة بكره جديد . وابتسم (وارنيت) : لامجال لعمل اي شيء .

وعاود القطار سيره ، وشعر (وارنيت) بمزيد من سخط اولئك الرجال . كما لو كان هو المسؤول عن فتح الابواب . وكان السخط ينتقل من جسم الى جسم ، ليتراخى الى مجاوريه ، كأنما قد اوكل الى هؤلاء ان يعبروا عنه بنظرة ، بحركة كتف . ولكن (وارنيت) شعر بالكره نحـــوه يتضاءل ولم يلبثوا بعد هنيهة ان انكفأوا الى أنينهم وغابت نظراتهم خلال روائحهم . وكانوا قد جبلوا بهذه الروائح ، كما لو جبلوا بعجينة واحدة جديدة . وكان الموت يتفسخ ، مسرعاً ، كأنه دلالة سابقة تشير الى وضعهم جميعاً ، وصرخ الفتى ايضاً .

– انه لشيء مخز ، اذ لايترك الناس على هذا النحو

كان يتمرد ، كان يتألم بصوته ، كان ينادي بحميا كيانه كله ، وكان اهابه ابيض يعلوه بعض الكلف ، وكانت شفتاه غضتين ، وكان ينساب في نبراته ثغاء خروف .

وشعر (وارنيت) بود نحوه ولكن لم يكن في مقدوره ان يفصح له عن شعوره

★ ★

وكان القطار يسعى ، وكان الفجر الصيفي يريق اشعته في لهاث رطب ، وقال الآخر بهدوء :

-- في مثل هذه الساعة من الأصباح الصيفية ، كنت انهض من فراشي .

وغابت نظرته ...

— كنت اسكن بيتاً صغيراً في الضاحية ، وكانت تنتصب شجرة امام النافذة ، وكانت العصافير تزقزق على الشجرة ، هل تحب العصافير ؟

وأجاب (وارنيت)

— طبعاً .

طبعاً .. كان يفكر في ذلك ، ولكنه لم يكن يعنى بالاصغاء اليها ..

وتابع الآخر :

— شجرة ملأى بالعصافير ، انه لشيء مثير ، الشجرة هـذا العالم المجبول بالصمت ، والعصافير هذا العالم المفعم بالغناء .

وردد (وارنيت) :

— بلى انه لشيء مثير

لا . لم يتيسر له قط . وقت يعي فيه هذه العوالم .

وأردف الآخر :

— وفيما كنت اغتسل ، كانت هي تعد لي الفطور ، وكانت تقطع الاقراص وتكسوها بالزبد ، ولم يكن علي الا أن اجلس ، وأصفي حان على القهوة المزوجة باللبن الساخن ، وساور (وارنيت) القلق ، كان يخشى على رفيقه من هـذا الاحساس العاطفي الرقيق الذي ألم به وهز الآخر حله وقال :

— ان هذا لما يبعث الشجاعة ان نبدأ يومنا هكذا ...

وفكر وارنيت : لعله بسبب هـذه البدايات قد اتيحت له الشجاعة ليدافع عن يومه . وأثار فيه هذا الجانب العاطفي الاضطراب . لقد حفزته الى النضال فكرة . ولم يكن ليعلم اخيراً ما اذا كان ثمة اعتداد احمق يلازم كل مايتصل بسبيل الى الفكرة ، فربما انساق الآخر الى النضال بحافز من تفكيره في يدي زوجته وهما تكسوان اقراص الخبز بالزبد . لعل هذه هي السعادة التي كان الآخر يناضل من اجلها .

وقال (وارنيت) :

— انا لم يكن يتسق لي وقت اكون فيه في البيت ، كل يوم ، وحين كان يتفق لي ذلك فان ساعات سفري وعودتي لم تكن محددة .

وفكر : لعله لم يتح له بسبب ذلك ان يتذوق سعادته اليومية .

وقال له الآخر :

— ان وقتك لم يكن ملكاً لك .

وبهت (وارنيت) بلهجة الآخر يردد هذه الجملة . يلامسها الاعجاب ، فكأنه كان ينحني احتراماً ، امام ذلك الرجل الذي ولد للنضال . كانت لهجة الآخر تقول : ان قدر هذا الرجل متصل بنضاله . انه لايستطيع ان يسيغ الدفء الذي ينساب في وعاء اللبن الممزوج بالقهوة تقدمه الزوجة المحبوبة ، ، ينبغي ان ينفسح للمرء وقت ليعرف ذلك ويسيغه .

وكان الآخر يبتسم ابتساماً متواضعاً كأنما يعتذر ان قد نعم بمثل هذا الوقت ، واحس (وارنيت) بالدفء يسري في اوصاله . وكان شبه ثمل ، في هذه العربة من القطار الذي يحملهم الى سجن ما . ولابسه شعور بطمأنينة حياة مجهولة ، يختمر فيها عجين الصداقة السحري .

والتمس يد الآخر ليشد عليها ، واذ عثر عليها ، فقد كان يتقد شوقاً ليقص على رفيقه حياته .

★ ★

وانشق فجر اليوم الخامس .

ولم يعد يتردد في عربة القطار اي صوت . بل كان هناك لهاث وحسب .. ولم يعد ثمة حركات تمليها الارادة ، بل كان ثمة دفع وجذب عفويان .

وكان وقد نبت على الوجوه المظللة بالخضرة الكامدة شعر شبيه بالطحلب المتفسخ .وكانت الاحداق توشك ان تنفجر تحت اوردتها الممتلئة بالدم . وكان بعضهم قد استلقى على بعض . وكان اقوام في الاعلى . وقد طفوا على غيرهم بعد عراك مماثل لعراك الاخطبوط . ليظفروا بالهواء الفاسد . وكان كثير ممن قبعوا في الاسفل قد ماتوا .

وكان الظل الاخضر الشبيه بظل الحويض الالماني (الاكواريوم) يغمر هذه الوجوه ذات الاشداق الفاغرة .

ورفع (وارنيت) يده . والتقى بوجه الآخر . وكان قد اضطجع الى جانبه ، في مستوى واحد . ونهض (وارنيت) قليلا . مستديراً الى جانب . وحاول ان يستجلي الاخر ، رغم الغشاوة التي كانت تغطي عينيه . ولم يكن في مقدوره ان يميز الانف المحمر والعيون الجاحظة . بل كان يرى لطخة تتجاذبها ظلال العين والفم واللحية . وقال (وارنيت) .

— اصغ الي .

وأمال الاخر رأسه قليلا ، وسأله (وارنيت) .

— هل ذكرت لك اسمي ؟

— بلى ..

وعاد (وارنيت) فتهاوى مضجعاً . واخذ يلهث على نحو شبيه بالاغراب في الضحك . وكانت الافكار في دماغه . تتجسد وتحفر وتهب له قوة فياضة .

وكان مستلقياً ، طافياً كالاخرين ، هاذياً في مهل ، لقد جاوز بعض المراحل . واستنفذ بعض الأخيلة . فلم يعد يتخيل وشلا الينابيع ، فقد سالخ اليوم الفائت كله في تذكر كل الينابيع التي كان قد تقع فيها ظمأه . ظمأ انسان يسعى . ظمأ جسد خار يتحرك ، من ذلك الظمأ البريء من الخوف . اجل لقد جاوز هذه الاخيلة جاوز دنيا الينابيع ، لانه كان يعلم في قرارة نفسه انه سيظفر في نهاية عطشه بالماء . كان يعلم ان ثمـــة عالماً يترقبه ليعيش فيه بأمان .

وكان يشعر اذ يلو النزع الاخير ضمن الكتلة البشرية انه في ضمان . كان يهذي بهدوء . وكان يدخل عالم الغد الذي لايكون فيه (وارنيت) بل رجلا بين الرجال . لن يكون له اسم بل رقم . لن يعرف بذاته . لن يخوض معركة ما . لم يكن يريد شيئاً سوى ان يبقى . ان يعيش في اهابه . كان يخفق امام ابواب هذا العالم الذي سينبجس منه الماء ، وفجأته الفكرة ، ولبث به ، بعظمه ، بدمه ، لقد نخرته ، وشعر بأنه مهدد ، بانه قد حيل بينه وبين دخول هذا العالم الذي يود ان يصير اليه ، ونهض قليلا ليلقي بسؤال مـــا ، واجاب الاخر : بلى .

وغزا جسده وهو يقع ، رعب بعشب مجنون يابس يريد أن يخنقه وأراد أن يزأر ليجتث هذا العشب الذي كان يلتهم جسده التهاماً .

★ ★

وكان اليوم الخامس بينهم ، في عربة القطار ، ولم يكونوا ليعوا ذلك ، ليعوا بلاهم ، لم يعودوا سوى ألسنة غليظة ملأت الاشداق ، وأضحوا ، وقد امتزج بعضهم ببعض ، كتلة من الصلصال امسكت عن السيل ، كتلة ميتة .

ونهض (وارنيت) قليلا ، وأدار الآخر رأسه اليه وأدرك انه يبتسم له ، ولهث الاخر .

— انه اليوم الخامس ، سنصل غداً

وكانت كلماته تلتصق بشفتيه ، وأشار الاخر بحركة من يده تعني انه من الأولى الاقتصاد الان بالكلام ، ليكون في مقدورهما أن يقويا على الاحتمال وعلى مجاوزة هذا اليوم الخامس .

— لقد قلت لك كل شيء .

وكانت الكلمات تنطفىء في فم (وارنيت) وتتبدد مزقاً وتابع :

- لقد جئت الى هنا لتحملني على الكلام .

وقام الاخر بحركة ، وغمغم (وارنيت) .

- اريد أن اعيش .

وقرت الكلمات في لهاثه لفقدان اللعاب .

- اجل .. ان اعيش .

ولمح ابتسامة الاخر ، غدا سيصلون ، غـــدا سيرحب العالم حيث يعيش اولئك الذين لا ماضي لهم ، وشعر بانه كان يهفو الى هذا العالم منذ أيام لاعداد لها ، ولا شيء فيا عدا ذلك.

وسأله الاخر

- اتتألم ؟

واجاب وارنيت :

- يا غام ؟

وظلت الكلمة متشبثة بحلقه كأنها تخنقه، وحاول الاخر أن يبتسم رغم غلظ لسانه وقال:

- انها الحمى ، ينبغي أن تتحمل ، غداً نصل .

- يا غام !

وانزلقت الكلمة أسهل من سابقتها .

وقال الاخر :

- انه اليوم الخامس ، انه اقسى الأيام .

وانحنى وجه (وارنيت) على الآخر ، وقد بعث حيا الحياة قوة في اعطافه ، ثمة عالم يهفو الى ادراكه . وامتدت يداه فوق جسم الآخر حتى دانتا عنقه وحشرج الآخر : آه

وكان هذيان (وارنيت) يهيم على ابواب عالم الغد . وتشبثت يداه تشدان كأنهما كانتا تنحيان الحاجز الذي يمكن أن يمنعه من الدخول .



الكتاب والموضوعات

- الثقافة السينمائية ووسائل نشرها

الدكتور نجيب حداد

- دمشق قبل مئة عام

الدكتور يوسف سمارة

الفنون

الثقافة السينمائية ووسائل نشرها

للدكتور نجيب حداد

١ — تمهيد

لقد اصبحت السينما احدى الوسائل المجدية في تثقيف الشعوب وبث الافكار والمبادىء العالية وهي لاتقل قيمة عن الكتاب وتفوق قيمة الاذاعة في هذا المجال لما لها من صدى نفسي عميق واستجابة مدهشة وتأثير جماعي. ولقد اهتمت الدول بالسينما وجعلت منها منهلا عذبا للثقافــة والمعرفة والفن وعمدت الى توجيهها وتشجيعها او الاشراف عليها مباشرة .

اما في بلدنا العزيز سورية الذي يقتصر فيه الانتاج السينمائي على بعض الافلام القصيرة يعود الفضل فيها الى جهود فردية او الى دوائر رسمية تذكر في طليعتها المؤسسة العامة للسينما المحدثة بالمرسوم التشريعي رقم ٢٥٨ تاريخ ١٢ /١١/١٩٦٣ والتلفزيون العربي السوري ، فنستهلك مرغمين الانتاج الخارجي بما فيه من اخطار ومحاسن . واصبح استهلاكنا لهذه الصناعة يضرب رقما قياسيا لأن السينما تكاد تكون الاداة الوحيدة للترفيه والتسلية بل انها تعدت هذا الحد واصبحت ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية .

ان الجمهور يذهب الى دور العرض بحثا عن متعة لينسى اثناءها الهموم والمتاعب اليومية التي تعترضه في اعماله ، فيترك لمخرج الفيلم ان يقود تفكيره اثناء العرض فينقاد له دون وعي ولا يناقشه فيما يقدمه له من افكار ضارة او مخالفة لمبادئه التي يعتز بها احيانا ، ولكنه لايقاوم الفيلم عندما يقدم له مايخالف ذلك .

وجرت العادة بين المخرجين على ان يقدموا للجمهور مبادىء رخيصة اوسهلة تستسيغها عقولهم دون ان يحرك فيهم اي تفكير او مجهود عقلي يعوضهم النقص الموجود في الفيلم ، فيستمتع الجمهور بهذا العرض السهل ويعتقد انه رفه عن نفسه ، ولكن ذلك يخالف طبيعة الانسان فالترفيه لم يكن كاملا لأنه استحوذ على بعض مشاعر الفرد .

فالترفيه الكامل هو الذي يحرك العقل وجميع حواس الانسان فاذا قدمنا الى عامة الجمهور فيلما ترفيهيا كاملا فسوف يفهمه البعض لنضوج عقلهم او لاكتمال حواسهم من الناحية الطبية او الفيزيولوجية ولا يرفه عن الذين لم تكتمل عندهم بعد هذه الحواس .

ن الترفيه الكامل للفيلم لايمكن ان يتجاوب مع عامة الجمهور فيجب تقسيم الجمهور الى فئات فالبعض يفهم افلاما تكون بالنسبة له ترفيها كاملا ، والبعض الآخر لايفهم هذه الافلام فتصبح بالنسبة له ترفيها جزئيا .

ولما كان معظم الافلام المعروضة هو انتاج اجنبي يصور قبل كل شيء بيئة تختلف عن بيئتنا وتؤمن بعقائد لاتتطبق دوما مع عقائدنا العربية السليمة وتتوجه الى جمهور لايمت الى جمهورنا باية صلة ، لذا وحفاظا على اهدافنا المثلى وفي سبيل تربية جيل عربي يؤمن بالمقومات السامية تبين لنا من الضروري اعارة هذا الموضوع كل الاهتمام للاستفادة من منافعه الجمة وتجنب اخطاره الفتاكة وذلك عن طريق نشر الثقافة السينمائية الحكيمة الواعية المتجردة التي لاتهدف الا الى الخير العام وخدمة النشىء الصاعد من ابناء هذا الوطن .

ومن اهم السبل لتفهم هذا الفن والاستفادة من منافعه الجمة واتقاء شروره الفتاكة الندوات السينمائية او النوادي السينمائية .

٣ – ندوات الافلام – انواعها وجمهورها

تختلف انواع الندوات باختلاف الاغراض المؤسسة من اجلها وهي تتفق في هذه الاغراض مع تقسيم فئات الجمهور من اطفال ومراهقين وكبار ومثقفين وغيرهم . اما في شكلها فالندوات تنقسم الى ثلاث فئات : ندوات الافلام (Ciné - clubs) وندوات السينما للجمهور (Forum) وندوات السينما للاطفال (clubs d' enfants) .

وندوات الافلام هي جمعيات ثقافية تضم بين اعضائها عشاق الفن السينمائي الخالص اوهواة السينما او الذين يبحثون عن موضوعات اجتماعية في الافلام . فاغراضهـا مختلفة فهي تطلب من اعضائها وحدة التفكير في الافلام لذلك تطلب الندوات من اعضائها ان يكونوا حاملين لتذكرة اشتراك وان تكون عقلياتهم متقاربة لتوحيد نوع الافلام التي تعرض على الاعضاء .

وطريقة العمل في هذه الندوات هي ان يستأجر المسؤولون داراً للعرض ويعرضون فيها نخبة من الافلام التي تتفق مع رغبات اعضاء واغراض الندوة . ومن هذه الاغراض نستطيع استخلاص انواع الندوات فمنها الفنية والاجتماعية والمدرسية والعلمية وخلافها ، واوسعها انتشارا الندوات الاجتماعية التي تبحث في موضوع الفيلم وتستخلص منه الحلول النفسية الصحيحة لتطبيقها على واقع الحياة .

اما ندوات السينما للجمهور فتختلف عن ندوات الافلام في انها ليس لها مكان خاص يجتمع فيه الاعضاء ، فهم يذهبون حيث تعرض الافلام المنتقاة في دور عرضها لذلك سميت بالكلمة اللاتينية (Forum) اي تجمعات . فالمسؤولون عن هذه الندوات يعلنون في الصحف اليومية عن مكان وزمان التجمع . وهو عادة في صالة عرض تعرض فيلما تجاريا للمرة الاولى ، فيجتمع الاعضاء ويقوم احد الرواد بتقديم الفيلم قبل العرض .

والغرض من هذه الندوات هو تنبيه اذهان الجمهور كي يقف موقفاً ايجابيا بالنسبة للافلام التي تعرض عليه في السوق وتعويده على اختيار الصالح منها ومشاهدته بعد ان يكون قد ألم ببعض نواحيه الفنية . ودخول هذه الندوات غير مشروط بحمل بطاقة عضوية الا انه في بعض الاحيان يتفق المسؤولون مع اصحاب دور العرض على تخفيض قيمة تذكرة الدخول باظهار بطاقة عضوية كما هي الحال في نادي دمشق .

اما ندوات السينما للاطفال فانها تختلف في شكلها وجوهرها عن الندوات السابقة ، فهي قريبة جدا الى نوادي الاطفال او دور الحضانة اومنظمات الشباب التي تجمع الاطفال في مكان واحد لغرض واحد والافلام التي تقدم في هذه الندوات مختلفة الاهداف ومرتبطة بعامل موحـد هو سهولة صياغة الاسلوب السينمائي ليفهمه الطفل .

والغرض الاساسي من هذه الندوات هو تقديم افلام ذات قصص منوعة او افلام تسجيلية او ترفيهية لتعويد على فهم اللغة الفيلمية ليتمكنوا فيا بعد من مواجهة الافلام العادية والانضام الى ندوات الافلام لتحقق لهم امانيهم في الاستزادة الـكاملة بالنواحي الفيلمية المختلفة .

وندوات السينما للاطفال ليس لها مجالس ادارة كالنوعين السابقين وليس لها مسؤولون ينتخبهم الاعضاء بل تنشئها عادة منظات ثقافية او حكومية او تجارية فتعين لها المسؤولين عن اختيار الافلام وتقديمها للاطفال والطفل اذا تعود على شخصية المسؤول عن هذه الندوات اصبح له كالصديق يذهب اليه اسبوعيا ليشاهد الفيلم ويسمعه يعلق عليه ويتبادل معه اطراف الحديث.

وقد انتشرت فكرة ندوات الافلام حتى دخلت المنازل بواسطة التلفزيون فيقدم الفيلم احد المسؤولين قبل العرض ويتلقى اثناء العرض بعض الاشارات التلفزيونية من المستمعين فيناقشها بعد العرض على شاشة التلفزيون .

٣ — لمحة تاريخية عن ندوات الافلام في اوروبا

اول من استعمل هذه العبارة هو السيد Louis Delluc الذي عرف بها عام ١٩٢٢ جماعة من المشاهدين الذين كانوا يجتمعون تحت اشرافه لمشاهدة بعض الافلام ومناقشتها واخذت هذه الندوات تنطلق من فرنسا الى اوروبا اعتباراً من عام ١٩٢٥ حيث ظهرت حركة التقدميين Avant garde التي اشترك فيها عدة نقاد سينمائيين المطالبة بانتاج افلام فنية وفي عام ١٩٢٨ كانت الندوات قد انتشرت في مختلف الاوساط الاجتماعية واخذت اهدافها تظهر جليا واهمها عرض الافلام القيمة مهما كانت جنسيتها ومناقشتها لتذوق وتفهم الفن السينمائي والاستفادة منه الى اقصى الحدود .

واعتباراً من عام ١٩٣١ باشراف السينماتيك (المكتبة السينمائية) في فرنسا تكثر الافلام القديمة وتعرضها في حلقات سينمائية تشرحها وتحللها وتتعمق في الاساليب والمدارس السينمائية .

ولم تكن هذه الحركات ندوات فيلمية حقيقية كما نعرفها اليوم بل كانت مجرد محاضرات عن افلام مع عروض مناسبة . وندوات الافلام الاولى التي يسجلها التاريخ هي ندوات الاطفال وقد بدأت الخبيرة الاجتماعية مدام سونيكابو سنة ١٩٣٤ في اولى ندواتها للاطفال وانتشرت في ذلك الوقت ندوات الاطفال في العالم وكان اكثرها انتشاراً في انكلترا حيث بدأت صالات (اودور وجومون Odaur-Jaumont) في تنظيم حفلات صباحية للاطفال .

وصدر في سنة ١٩٤٦ بفرنسا القانون الخاص الذي ينظم انشاء وادارة ندوات الافلام ويقضي على الندوات بأن تلجأ الى هيئات خاصة تعتمدها الحكومة لاستئجار افلام الندوات . وكان على هذه الهيئات أن تعرض على الحكومـــة الافلام التي ترمع تأجيرها الى الندوات للحصول على ترخيص خاص بذلك .

واغلب هذه الهيئات قد كونت في فرنسا اتحادات عامة بين ندوات الافلام في منطقة واحدة وبدأت تنشر ابحاثاً عن الأفلام ونشرات مستوفية من النواحي الفنية والادبية لتزود بها مديري ندوات الافلام . ومن أهم هذه الأتحادات الاتحاد الفرنسي لندوات الافلام الذي يضم ١٨٠ ندوة فيلم ، وهناك مايزيد عن مائتي ندوة فيلم في بلجيكا وخمسمائة في بريطانيا و ٢٥٠ في المانيا و ١٥٠ في سويسرا و ٥٠ في اسبانيا و ٢٥ في البرتغال و ٣ في الجزائر و ١٠ في غانا و ٣ في الكونغو وعدد لايحصى في الولايات المتحدة وفرنسا تحت اسماء مختلفة وأغلب هذه الندوات منتسبة الى الاتحاد الدولي للندوات السينمائية الـكائن في باريس .

وهذه الندوات لاتخص الا ندوات البالغين أما الندوات المدرسية فعددها لايحصى اذ أن غالبية المدارس الثانوية في الخارج بدأت تنظم حلقات عن الافلام لتهيء الطلبة لحسن استيعاب الافلام المعروضة عليهم خارج المدرسة .

ب — في البلاد العربية

أما في البلاد العربية فاول ماعرفت هذه الندوات في مصر لكونها اكبر بلد عربي منتج للسينما وقد بدأت عام ١٩٤٩ بندوات مدرسية تحت اشراف احد المربين ثم قامت ١٩٥٢ أول ندوة اجتماعية « ندوة فيلم Lumiere » باسم العالم الفرنسي المخترع الاول للسينما تحت اشراف المركز الثقافي المصري (الكائن شارع عدلي في القاهرة) ثم كانت ندوة كمال سليم ١٩٥٥/١٩٥٦ التي كانت تقام في دار سينما Cairo Palace وامتدت الندوات الى الاسكندرية ١٩٥٣ تحت اسم Mellies وهو احد السينمائيين الاوائل في فرنسا وتمتاز هذه الندوات بالنقد المتازو بالبحث العلمي والاجتماعي . ثم أنشأت مصلحة الفنون عام ١٩٥٦ « ندوة الفلم المختار » وتلي ذلك انشاء عدة ندوات منها الندوة العامة وندوة العائلات .

أما ندوات الاطفال فكانت قليلة وتنحصر في بعض المدارس حتى أنه باشر المركز الثقافي المصري باستيراد بعض الافلام ١٦ سم الخاصة بهم وانشأ سنة ١٩٥٤ ندوتين للاطفال ثم جاءت مصلحة الفنون عام ١٩٥٧ وانشأت ندوة للاطفال في مقر « ندوة الفلم المختار » في القاهرة ثم في الاسكندرية للكبار والصغار اعتبارا من ١٩٥٨ ويجدير بالذكر وجود المؤسسة العامة للسينما المهتمة بكافة الاعمال السينمائية من انتاج وتوزيع خاصة بعد تأميم شركات الانتاج السينمائية في مصر وصالات العرض .

ويوجد في بيروت ندوات عديدة من كافة الانواع تبدي نشاطاً حسنا كما أنه في بغداد ندوة مدرسية قد تتوسع وتشمل جمهورا اكثر .

أما في سورية فكان هنالك نشاط قديم قام به احد المربين في دمشق بعد الحرب الثانية

١٩٤٥ ولكنه اقتصر على اصدار نشرة اسبوعية اسمهـا « الشاشة Ecran » تعلق على الافلام المعروضة في المدينة اسوة بما كان يجري في بيروت وتوقفت هذه النشرة في دمشق عكس بيروت حيث تابعت سيرها تحت اسماء مختلفة حتى اصبحت مجلة نظامية تعرف باسم Ciné d' Orient .
وعرفت حلب نشاطا قيما في هذا المضمار بواسطة النادي الـكاثوليكي الذي يملك صالة عرض وينتقي الافلام الصالحة ويعرضها على الصغار في حفلات صباحية وعلى الاهلين في حفلات مسائية . ولكن بدون مناقشة علنية للفيلم بعد مشاهدته كما هو المفروض في الندوات السينمائية وقـد توسع اليوم هذا النشاط ودخل المدارس .

اما في دمشق فقد تابع احد الهواة النشرة التي اوقفت وأخذ يوزعها على نطاق ضيق جداً للمدارس فقط دون مقابل وفي عام ١٩٥٢ تأسس النادي السينمائي بدمشق الذي يشرفني ان اكون احد مؤسسيه ورئيسه واخذ على عاتقه متابعة وتوسيع هذه النشرة حتى اليوم مع رغبة بتحقيق كافة أهداف النوادي السينمائية من مشاهدة ومناقشة الافلام .

وهناك عـدة ندوات موسمية في بعض المدارس بدمشق حيث يدرس الطلاب الافلام من النواحي الفنية والاجتماعية . ونادي للاطفال « نادي الجمهورية » أصبح اليوم « مؤسسة الطفولة » ومن اهدافها الثقافة السينمائية .

٤ ـ افلام الندوات

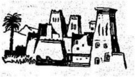
ان الافلام التي تعرض في الندوات تختلف عن الافلام التجارية وليس كل مايعرض تجاريا يصلح لندوات الافـلام كما نرى افلاما لم تنجح تجاريا تصبح محط انظار المسؤولين عن الندوات السينمائية ؛ اذ يتوجب على المسؤول ان يعتمد في اختيار الافلام على آراء كثيرة للنقاد السينمائيين حتى لو كانت متضاربة احياناً لأنه قد يكون التناقض والتضارب حول فيلم ما احسن برهان على قيمة الفيلم من الناحية الفنية والاجتماعية بحيث يصبح موضوعا شيقا للمناقشة بين الرواد في الندوات وتنشر هـذه الآراء في المجلات المختصة والمجلات الثقافية الاخرى وليس من بلد انتشرت فيه الندوات السينمائية الا وفيه مجلة او اكثر عن الافلام . ونحن نستثني من هـذه المجلات تلك التي تختص بسرد حياة الممثلين وغرامياتهم وفضائحهم ونتوقف عند المجلات التي تعتني بالفن السينمائي .

اما طريقة العرض فتكون اما في صالة عامة خارج اوقات العرض التجاري واما في صالات خاصة مجهزة بآلات العرض ٣٥/و١٦ مم ورغم كون هذه الطريقة الثانية هي الافضل مهما كانت الصالة صغيرة . ان الطريقة الاكثر استعمالا هي استئجار صالة عامة ومشاهدة فيلم الندوة فيها ومناقشته فوراً بعد العرض اذا تيسر ذلك او يكون النقاش في اجتماع لاحق في منزل احد الاعضاء او في احد النوادي .

ويمكن الحصول على الافلام اما بشرائها او باستئجارها من السوق الداخلي او الخارجي او عن طريق المكتبات السينمائية العالمية (Cinematheque) .

اما مهمة محرك الندوة وكيفية ادارة المناقشة والمواضيع الاساسية الواجب اثارتها اثناء المناقشات فاننا نتركها اليوم جانباً كي لايطول بنا الكلام كما واننا لانتعرض الى كيفية انشاء النوادي ولا الى التشريعات المنظمة لها في العالم وفي بلدنا وقد يكون لهذا الحديث صلة .

اما الآن وبعد ان حاولنا ان نبين اهمية السينما هذا الفن الجديد ومهمة الندوات السينمائية في نشر هذه الثقافة يتبين لنا بان الندوات السينمائية مهما قدمت من جهد لا تستطيع لوحدها حمل هذا العبء نظرا لما للسينما في عصرنا من تأثير ولنشر هذا الفن من اهمية . لذا يتوجب علينا تشجيع الندوات السينمائية وتعميمها في مختلف الاوساط الاجتماعية مثقفين وعمال وفلاحين الخ.. وذلك بواسطة الاذاعة والتلفزيون والمراكز الثقافية والنشرات والمجلات وعرض الافلام بواسطة آلات متنقلة مع شرحها بل اننا نتعدى هذا الحد ونقول بأنه يجب ادخال هذا الفن في البرامج المدرسية تدريجيا كما هي الحالة في البلدان المتقدمة اسوة بالفنون الاخرى كالرسم والموسيقى وغيرها وفي كافة مراحل التعليم بما في ذلك الجامعة الشعبية لتربية جيل قوي بايمانه وبقوميته يتمكن من تجنب مخاطر السينما والاستفادة من محاسنها ونعلق في سورية آمالا جساما في هذا المضمار على المؤسسة العامة للسينما التي حصر بين يديها القانون كل ما يتعلق في هذا الموضوع من انتاج وتوزيع وتوجيه .



دمشق

قبل مئة عام

* للدكتور يوسف سمارة

عثرت منذ ايام على كتاب ايطالي طبع عام ١٨٤١ موضوعه سورية وآسيا الوسطى يتناول رحلة قام بها جيورجيو بريانو في ارجاء ما يعرف اليوم بفلسطين ولبنان وسوريا وتركيا . وفي الكتاب رسوم متقنة رائعة من نوع «الاستامب» تمثل ما كانت عليه هذه البلاد عمراناً وازياء وعادات قبل مئة وخمسين سنة تقريباً . وقد هالني البون الشاسع الذي فصل هذا الماضي القريب نسبياً اذا ماقيس بحاضرنا الذي اخذ باسباب المدنية من اسلوب في البناء واللباس واللهو وغير هذا . ولم يسعني الا ان اذكر عبارة لصحفي اميركي زار دمشق منذ

سنوات فبدهته حركة البناء الضخمة في كل مكان بالمدينة وطراز العمارات التي ترتفع وما يتوفر فيها من شروط صحية وعملية كما بدهته الشوارع العريضة ومظاهر الحياة الراقية. قال :

عُرفت دمشق انها اقدم مدن التاريخ التي ماتزال مأهولة ولكني اعتقد ان النهضة العمرانية القائمة فيها اليوم تؤهلها لأن تكون من احدث مدن العالم إن لم تكن احدثها اطلاقاً.

ولا شك ان الصحفي الزائر إنما قصد اطراء دمشق ومجاملتها فيما كتب. إنه يثني على مسايرتها ركب المدنية واخذها بالتطور الحديث ولكنني اعرف كتاباً وشعراء وفنانين وسياحاً قدموا اليها في الاعوام القليلة الماضية فأجفلوا انها تكاد تصبح بلداً اوروبياً، نسخة عن مئات المدن الغربية مما لا يرضى لهم فضولاً ولا يقدّم لأعينهم غير المألوف من المشاهد.



بردى في دمشق قبل مئة عام
من جانب التكية

لقد بحثوا عن السحر الذي وعته صحائف كتبهم وتناقلته تقاليدهم وحكايا عجائزهم عن دمشق ، وتجولوا في المدن فخاب ظنهم .

أين اسواقها التي تعبق بروائح الماضي الجميل ؟

أين اللون الشرقي المحلي ؟

أين سحر الف ليلة وليلة ؟

تلك هي خواطر ينساق اليها من يطالع الفصول التي خصصت لدمشق في بعض كتب الرحلات القديمة .

ان دمشق اليوم لاتشبه في شيء ما كانت عليه قبل ثمانين او مئة الاعوام. انها مدينة اخرى شابة بنيت مكان تلك تكاد لاتعرف شيئاً عنها ولولا انهـــا احتفظت ببعض الآثار القديمة كالابواب وجــزء من السور دور العبادة ، ولولا ان قاسيون الجبل الوفي مازال يجاورها لانكرها من يراها اليوم وقد رآها قبل هذه الفترة من الزمن .تماماً كما تبدو .وأنا اقـــرأ اخبارها في مابين يديّ من كتب :

ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء سنة ١٨٧٩

ـ دليل كوك لفلسطين وسورية سنة ١٩٠٧

ـ دليل الأرض المقدسة الجديد لمايسترمان ١٩٠٧

ـ فلسطين وسورية لكارل بيديكير ١٩١٢

ـ كتاب فلسطين لرنتشارد بينليك ١٨٩٨

ـ العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية ١٨٧٤

وغيرهـا . . .

وبعد فاني ادعوك معي لزيارة دمشق قبل مئة عام



المقهى الشامي

على الأرائك وفوق الأرض مباشرة.

تعال معي ندخل أحد أبوابها ، أي باب لا على التعيين . هذه الطرق ملتوية وضيقة الى درجة انه يمكن لشخص أن يمد يده من أحد الشبابيك ويصافح آخر من الشباك المقابل . وحتى القطة لا تجد صعوبة في القفز من سطح الى آخر عبر الشارع. وجدران الطرق متصلة بعضها الى بعض بالحصر او بالقناطر ذات المشربيّات. حتى يحسب المرء انه يسير في مدينة سردابية .

وليس في دمشق تلك الايام شوارع بالمعنى المفهوم الآن لهـــذه الكلمة . ولا ساحات واسعة كالقاهرة واستنبول ولكن لها جاذباً خاصاً احتفظت به كما يقول الدليل لبعدها عن الحركة الاوروبية ولعدم احتكاكها بالاجانب فهي تفاجيء القادم منذ خطواته الاولى باللون الشرقي بشيء من الصحراء الوحشية الغامضة ، الصحراء التي تلامس دمشق وتنفلت الى اللانهاية .

انك نادراً ماترى في أسواقها الازياء الاوروبية السمجة التي تملأ القسطنطينية. وطرقها غاصة بالرجال يلبسون الملابس الطريفة المتنوعة فهـــم يرتدون القنابيز

ويتمنطقون فوقها بشالة أو زنار حريري او غير ذلك . واليهود والنصارى وبعض المسلمين يلبسون على رؤوسهم الطرابيش الاسلامبولية وأكثر المسلمين يتعممون بعمائم صغيرة لطيفة من الاغباني وكانوا يلبسون الطيلسانات الطويلة فوق ملابسهم .

وأغلب الرجال حليقوا الرؤوس لأن اطلاق شعر الرأس يعتبر أمراً معيباً. وقد تنساب بينهم بعض النسوة متئزرات كالاشباح بالملاءات البيضاء الطويلة بينما تغطّي وجوههن البراقع وأكثرها اسود مثقوب عند العينين .

وبيوت دمشق متشابهة في المظهر الخارجي فما تستطيع دائماً التمييز بين القصر الفخم وبين الحقير المتواضع من المساكن وقد تختبيء خلف أحد الجدران الطينية العالية ، وهي في الغالب رثّة باهتة اللون ، مفاتن من المرمر واحواض مياه ونوافير وحدائق ليمون وياسمين وجمالات من كل نوع . وتوصي بعض كتب السفر الصادرة في تلك الايام بزيارة دار القنصل الفرنساوي ومنازل السادةفريج وانطون الشامي وليسبونا وفارحي ودور حبيب صباغ ويوسف عنبر وشمايا وخاصة قصر علي بك .

على أن اكثر ما كان يجتذب اهتمام مؤلفي الكتب في دمشق اسواقها وهي مجتمعة في انفاق معقودة السقوف لكل صنف من البضائع سوقه الخاصة . فهناك سوق الدقاقين وبها يدقون الاقمشة الحريرية وسوق الحبالين وسوق العلبية وسوق التبن وسوق المقـــادين وسوق الخراطين وسوق النسوان وهي جزء من سوق الاروام . وفي هذهالأخيرة تباع الاسلحة والسجاجيد والاحجار الثمينةوالغلايين الخشبية الطويلة . ولكل حانوت مصطبة مرتفعة متقدمة في الطريق يجلس عليها التاجر ويستطيع أن يصل منها الى مايشاء من السلع المرصوفة على الرفوف عن جانبيه وورائه .

واسواق دمشق مليئة بالحياة وهي الملتقى اليومي للمتنزهين وخاصة النساء اللواتي يقفن جماعات على ابواب الحوانيت . على انه ليس في الباعة امرأة واحدة فالتقاليد الدمشقية لا تسمح للنساء بمزاولة مهنة البيع .

ويسود في الاسواق المديدة تنوّع في البضائع التي قد لا توجد في بلد آخر كمواد التجميل والعطور والمربيات والجرائر والفضّيات وهي تعطي فكرة عن غنى المدينة ورفاهها .

وتغلق الاسواق الكبيرة وعدد من الاسواق الصغيرة بعد غياب الشمس بساعة أو بساعتين لأن اصحابها الذين قضوا سحابة نهارهم في جو رطب مشبع بالانفاس يهرعون لاستنشاق الهواء النقي في المقاهي والحدائق على ضفة بردى . وهكذا يمر بهم قسم من الليل مما يضطرهم الى فتح دكاكينهم بعد ان تتعالى الشمس في السماء .

ويبالغ التجار بالاسعار التي يطلبونها من الاجانب والغرباء ولكنهم لذلك لا يغضبون اذا عرض عليهم مشتري السلعة حتى اقل من نصف الثمن المطلوب . والمهم في الأمر أن ينتهي البائع والشاري في جميع الحالات الى اتفاق ما .

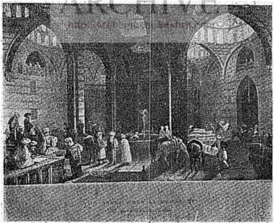
وتقول كتب السياحة أنه لابد من اصطحاب احد الادلاء اذا شئت السلامة في تجوالك . وتفيدك دون ريب مرافقة قواس الفندق أو القنصلية عند زيارتك المسجد الاموي . والسير في دمشق غير مأمون العواقب وخاصة في الليل فهي غير مضاءة وتقضي انظمة الشرطة بأن يحمل السائر الليلي فانوساً أو مصباحاً من أي نوع والا تعرض للقبض عليه وللتوقيف .

وهذا التدبير حكيم دون شك فهو أولاً يبعد عنك المفاجآت غير المستحبة وهو يسهل عليك التنقل في المسالك المتعرجة ذات الحفر والأخاديد .

أما اذا خطرت لك فكرة قضاء السهرة في احد الملاهي فلك الخيار كما تقول الكتب السياحية التي بين يدي ، بين ان تقصد مقهى بلدياً يدخن فيه الناس النارجيلة ويلعبون النرد بينما يستمعون الى الحكواتي يقص عليهم مالا يصدق من الاخبار ، وبين ان تذهب الى مسرح الاشباح السوداء التي تقفز وتقوم بحركات بلهوانية وتتكلم بالسجع ويصفق لها الشاهدون بحماس .

واعلم بأية حال ان ثمن فنجان القهوة بغير سكر خمس بارات فلا يغشنك صاحب الملهى أو المقهى .

وقد ينصحك مؤلف احد الكتب بزيارة احد الحمامات وعددها (٥٨) في دمشق فهي وسيلة لقضاء الوقت بالدرجة الاولى وهي للنظافة ثانياً تجتمع فيها حلقات الاصحاب لتبادل الاحاديث وتناول الاطعمة المحلية المشهورة والفواكه .



الخان الكبير – دمشق –

ولم يكن في دمشق حوالى سنة ١٨٧٩ الا فندق واحد (وكانوا يدعونه لوكاندا) موقعه في سوق الخيل لا يدفع المسافر فيه يوميـــاً اكثر من خمسين قرشاً ولكن فيهـا لقاء ذلك ١٣٩ خاناً بعضها مختص باصحـاب التجارة وبعض الدواب والمكارين والفقراء ويمكن للغرباء المبيت في الخانات الأخـيرة فيدفعوا اجرة الحجرة لا اكثر من ١٥ قرشاً .

أما المدارس المدنية فكانت تضم (٢٤٥٠) تلميـذاً وقرابة (٧٠) معلماً و ١٢٣٩ تلميذة و٣٢ معلمة .

وفي كل سنة في نصف شوال يغادر موكب الحج الى الارض الحجازية باحتفال عظيم ويرجع منها في النصف الاخير من شهر صفر باحتفال ايضاً .

تلك هي لمحات خاطفة عن مظاهر الحياة في دمشق قبـل مئة عام لم يبق منها سوى ذكريات تكاد تضيع يرويها لك احد المتقدمين في السن او كتـاب عتيق اسمر الصفحات



مجلة المعرفة

مع التيارات الفكرية

العربية والعالمية

كتاب الشهر

NATIONAL DEVELOPMENT AND HOW IT WORKS

by David Cushman Coyle

التنمية القومية

• تأليف : د. ك. كويل

• عرض وتلخيص أورخان ميسر

وليست التنمية القومية عملية بسيطة تنتهي بصاحبها الى معرفة طريقة استعمال السيارة او الطائرة او اجهزة الاذاعة والتلفزة ، ثم الى طريقة صنعها صنعاً متقناً ، انما هي عملية دقيقة معقدة ذات جوانب متعددة لأساليبها ونتائجها كل التأثير في حياتنا القومية ، إن من الناحية السياسية وان من الناحية الاجتماعية وان من الناحية العقائدية .

وعندما نضع اولى خطواتنا في طريق التطوير أو التنمية يجب ان نتذكر الحكمة القائلة إن التطور ليس معناه إزالة كل ماهو قديم ، بل ان معناه ايجاد تناغم بين الافكار القديمة والحديثة ، بين التقاليد الموروثة ومقتضيات الحياة العصرية ، بين المعتقدات الدهرية والنظريات العلمية الجديدة .

وبقدر ماتكون نتائج التنمية ظاهرة للشعب ملموسة من قبله بقدر مايسهل تحقيقها وجني ثمارها لذلك كان على خبراء التخطيط في بادىء الامر أن يضعوا مشاريع التنمية على اسس دراسات واسعة دقيقة شاملة واحصاءات علمية مسهبة تتناول الثروات الكامنة في البلاد وحاجات الشعب ومدى الاستثمارات الممكنة ، ان كان مصدرها قومياً وان كان اجنبياً . فاذا كانت البداية صحيحة ذات مرتكزات علمية سليمة جاء السير في مراحل التنمية سيراً صحيحاً سليما ، وبالتالي ، صار الدخول في مرحلة الانطلاق ميسوراً بدون الوقوع في الاخطاء وبدون التعرض لأزمات ومآزق يصعب تحديد نتائجها وتتعذر معرفة مدى انعكاسها السلبي على سياسة الدولة واقتصادها .

أما مرحلة الانطلاق او الاقلاع فيمكن اعتبارها اهم مرحلة في مراحل تطور البلاد ونموها التقدمي ، إذ منها تنتقل من مستوى « التخلف » لتدخل في عالم جديد تصنف فيه في عداد « البلاد النامية » .

وما هو الاقلاع ؟

يقال عن الطائرة ، بعد ماتكامل استعدادها التكنيكي على المدرج وبعد ماتسير مسافة نسبية معينة ثم ترتفع عجلتاها عن المدرج إنها « أقلعت » واصبحت سيدة نفسها في الانطلاق والتحليق في الاجواء كما يوجهها ربانها وفق الملابسات الجوية وحسب الهدف الذي يقصده . وللشعوب التي تتطور وتنمو إقلاعها ايضاً ولكنه اقلاع يختلف عن اقلاع الطائرة من حيث عنصر الزمن في الاستعداد وعنصر المفاجأة في الانطلاق . فالطائرة يتم استعدادها للانطلاق ويبدأ إقلاعها في دقائق معدودة بينما يحتاج بلد ما لاقلاعه الى زمن غير قليل لابد فيه من بذل الجهد وتجنيد الطاقات واستخدام كل الخبرة والمعرفة ، مع تضحيات معينة هي من مقومات هذا الاقلاع ، وخاصة إذا كان هذا الشعب في حالة انتفاضة على مدرج غير ممهد السطح . وعندما يقلع الشعب ويصبح في الجو يظل ايضاً في حاجة الى بعض الزمن ليستطيع التغلب على الصعوبات الجوية التي يعترض تحليقه بين حين وآخر . وتستغرق عملية اقلاع شعب ما ، من بدايتها الى نهايتها ، مابين عشر سنوات وثلاثين سنة تلعب فيها دوراً جزئياً عوامل الحروب وعناصر الضغط والكبت وغير ذلك من الاضطرابات الاخرى التي تحدث .

داخل إطار الشعب ذاته او في العالم الخارجي الذي يحيط به .

فالولايات المتحدة ، مثلا ، كبلاد واسعة ذات اصول وجذور متباينة خبرت ثلاث عمليات اقلاع تمت في ثلاث مناطق مختلفة . جاءت الاولى في تصنيع الشرق الشمالي حيث انطلقت الصناعة في ازدهارها في عام ١٨٤٠ فأنشئت المصانع والمعامل المختلفة ومدت الخطوط الحديدية عبر المنطقة كلها . ثم برز الغرب الاوسط بشبكاته الواسعة للسكك الحديدية ونهضته الاقتصادية التي غذتها الرساميل الأوروبية بقدر غير قليل . بينا ظل الجنوب القديم منطقة غير متطورة حتى عام ١٩٣٠ عندما نفذ الرئيس فرانكلن روزفلت مشروعه الانمائي الخاص بهذه المنطقة التي كان يصفها بقوله: « المعضلة الاقتصادية الكبرى لأمريكا » وكان للعقود المتعلقة بالانتاج الحربي في الجنوب خلال الحرب العالمية الثانية أثرها الفعال في تطوير المنطقة تطويراً سريعاً .

ويحدد الكاتب الاختصاصي « روستو » في مؤلفه « مراحل النمو الاقتصادي » فترة الانطلاق في بريطانيا ماين عام ١٧٨٣ وعام ١٨٠٢ ، وفي فرنسا ماين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٦٠ ، وفي المانيا ماين عام ١٨٥٠ وعام ١٨٧٣ ، وفي اليابان ماين عام ١٨٧٨ وعام ١٩٠٠ ، كما يحدد انطلاقة الارجنتين وتركيا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية بقليل ، بينا يحدد انطلاقة الهند في الفترة الواقعة حوالي عام ١٩٥٢ .

وفي صدد البحث في انطلاقات الشعوب يبرز أمامنا سؤال يقول : « وكيف نستطيع ان نعرف فيما اذا كانت انطلاقة بلد ما انطلاقة ناجحة؟» وليس من جواب منطقي على مثل هذا السؤال الا في الحصيلة التي ننتهي اليها بنتيجة اعتمادنا على القياس الاحصائي للزيادة المجردة الموجودة في مجال الاستثمار المالي ، الخاص منه والعام ، ثم بمقارنة هذه الزيادة مقارنة نسبية بالدخل القومي الذي اقترن به اقترانا زمنياً . غير اننا قبل ان نلجأ الى هذا القياس نجد انه من الضرورة ان نأخذ في نظر الاعتبار وجوب توفر الأجهزة المتطورة تطوراً بعيد المدى في المنظمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بصورة تتناسب فيها مع جهد ونشاط شعب متطور ، او شعب يسير في درب التطور سيراً حثيثاً .

واذا بلغ رأس المال المستثمر استثمارا ناجحا في بلد ما نسبة هي اكثر من ١٠٪ من الدخل القومي ، رغم الارتفاع والهبوط اللذين يحدثان عادة ، قال عند ذلك اكثر الاختصاصيين : ان مثل هذا البلد بلد متطور وانه قد بدأ انطلاقته بنجاح .

وقد يقول بعض الناس متسائلين : وماذا يهم اذا انطلق شعب في مجاله التطوري او لم ينطلق؟ الا ان من يتعمق في نتائج الانطلاق او الاقلاع يرى ان له اهمية كبرى اذ انه هو الذي يقرر مصير استقلال الشعب وهو الذي يحرر له اقتصاده من العوز والحاجة وهو الذي يجعله بالتالي يستغني عن القروض والمساعدات المالية التي كان يضطر

الى الاعتماد عليها لدرء خطر التعرض لنكسات ممكنة الحدوث في نموه او لانهيار في استقلاله السياسي . وبديهي ان شعبا يخطو في انطلاقه خطوات ناجحة يصبح في وسعه ان يعتمد على رصيده المدخر اولا ، ثم يصبح في وسعه بعد ذلك ان يقبل قروضا ومساعدات مالية اجنبية لاستخدامها لأهداف تجارية محضة ، دون ان تستطيع هذه القروض والمساعدات التأثير في استقلاله السياسي او الاقتصادي .

والأهم من ذلك هو ان الدولة المتطورة او النامية تستطيع ان توسع حلقة حريتها في استيراد البضائع التي تحتاج اليها وفي بيع ما لديها من صادرات . ولقد وقعت في الماضي حوادث كثيرة كانت الدولة فيها مرغمة على تبديل موقفها السياسي خوفا من خسارة تلحق بتجارتها التي اصبحت تعتمد عليها اعتماداً كبيرا في مجالاتها الاغائية . لقد كانت المانيا الهتلرية ، مثلا تسعى الى ايقاع الدول المتخلفة في حبائلها باقامة علاقات تجارية واقتصادية معها حتى تتمكن فيما بعد من ارغام هذه الدول على التعاون مع السياسة النازية . وهنالك دول تعرض على الدول النامية قروضا ضمن شروط مموهة تعطي ، بصورة غير مباشرة ، مجالا للضغط السياسي عندما يحين الوقت لتسديد القروض .

ومن المدركات البديهية ان الاستقلال المطلق في السياسة والاقتصاد لا وجود له في الحياة الواقعية ، اذ أن جميع الدول اليوم يعتمد بعضها على البعض الآخر في المجالات المختلفة ، وبصورة خاصة في مجالات التبادل التجاري او في مجالات التعاون السياسي . ولا يمكننا ان نتجاهل الحقيقة التي تشير الى كون جميع العلاقات الانسانية علاقات تتصف بخاصة التداخل والتشابك غير ان كلاً منا يعرف ان هنالك ما يعرف باصطلاح « الاستقلال القومي الرامي الى اهداف عملية (١) » ، ويعني ذلك ان يكون للدولة بين الدول الأخرى مركز ذو احترام ذاتي يمكنها من التعاون المتبادل مع غيرها من الدول وفق ما تراه منسجماً مع مصالحها القومية ودون ان تخشى اية عواقب سيئة . ومثل هذا الاستقلال هو الذي تسعى اليه جميع الدول ، غير ان البعض لا يستطيع بلوغه اذا كان بعد في دور التخلف لذلك كان للانطلاق اهميته الكبرى وكان للجهد القومي الكبير الذي يبذل في هذا السبيل ما يبرره تبريراً كاملاً .

ولا يعني الانطلاق الوصول الى حالة من التحرر الاقتصادي يستطيع فيها كل فرد ان يستجم ويتمتع بثمار الفردوس وهي تتساقط من حوله . ان هنالك في العالم اليوم ، حتى عند اكثر البلدان تطوراً ونمواً ، مناطق ما زالت متخلفة لم تستطع العلوم التكنولوجية التسرب اليها الا بصعوبة ومشقة شديدتين ، مناطق ما زال الفقر الاجتماعي والجهل التقليدي مخيمين عليها . ان وجود مثل هذه الحالة تعتبر ظاهرة تتمثل فيها الطبيعة المتشابكة لصالح الانسان .

واذا قلنا عن بلاد ما انها متطورة او نامية

(١) National independence for practical purposes .

لم نعن بذلك انها بلغت مرتبة الكمال . وكل ما يعنيه اصطلاح « بلاد نامية » هو ان هذه البلاد بلاد استطاعت ان تتمكن من العلم والتكنولوجيا وان لديها من الاموال المدخرة ما يمكنها من استخدامها استخداماً عملياً ، وانها ، بالادارة الواعية وبمعرفة كيفية اغتنام الفرص المناسبة ، قادرة على المضي في بناء حياة حديثة تتناغم مع وجهات نظرها المختلفة ومدركاتها الصعدية المتباينة اما اصطلاح « بلاد متخلفة » فيعني انها بلاد لم تتملك بعد مثل هذه الوسائل ولكنها تسعى الى تملكها والى اكتشاف الطريق المؤدي اليها .

ولماذا يعتبر ، بصورة عامة ، استثمار الدخل القومي بنسبة ١٠ ٪ دلالة على الوصول الى مرتبة النمو ؟ الواقع هو ان نسبة ١٠ ٪ ليست الا نسبة تقريبية لأن هنالك علاقة وثيقة بين المال المستثمر كل عام وبين الدخل الاضافي الذي يمكن ان يعطيه هذا المال . الا ان هذه العلاقة تختلف باختلاف نوع الاستثمار . ان القيام بحملة ضد الملاريا يكون من نتائجها إنقاذ عشرات الألوف من الناس ويمكنهم من استعادة حيوتهم لاستثمارها استثماراً مفيداً في المجال القومي ، او القيام بابحاث علمية تنتهي الى زراعة وانتاج الأرز المركب(١) قد يعطينا مردوداً يبلغ عدة آلاف بالمئة سنوياً بينما لا يمكن ان تتجاوز ما يضيفه مصنع عادي الى الدخل القومي السنوي خمس او ثلث قيمته ، وكنسبة تقريبية ، فقد اظهرت الاحصاءات ان استثمار ١٠ ٪ من الدخل القومي استثماراً كلياً ينتج زيادة في الدخل القومي الاجمالي تقدر بنحو ثلثـ٩٠ .

وزيادة عدد السكان تختلف بين دولة واخرى إلا انها لا ترتفع عادة فوق نسبة ٢ ٪ سنوياً وكنسبة تقريبية ايضاً ، فان المعدل في هذه الزيادة قد يبلغ ١،٥ ٪ . فاذا امكن زيادة الدخل بحوالي ٣٪ مع عدم زيادة السكان الا بنسبة ١،٥ ٪ ارتفع معدل الدخل الفردي عندئذ بنسبة ١،٥ ٪ . ومن شأن مثل هذا التحسن ان يبعث في الشعب السرور والارتياح وان يجعله يؤيد حكومته ومشاريعها وان يشجع اصحاب الرساميل على استثمار اموالهم وان يدفع البلاد ، من حيث النتائج ، الى المضي في طريق التطور والتقدم .

وينطبق هذا على البلاد التي هي اكثر نمواً من غيرها والتي هي على وشك بلوغ نقطة الانطلاق التي ستنتقل بعدها الى مرحلة جديدة تصبح فيها ذات اوضاع نامية وذات سيادة ثابتة . إلا ان نسبة النمو تظل في المراحل الاولى بطيئة الارتفاع ، لاتدعو الى التحمس إلا إذا كان في الوسع زيادة هذه النسبة زيادة مصطنعة عن طريق مساعدات خارجية منظمة . وقد ذكر الاختصاصي بول هوفمان ان معدل زيادة الدخل الفردي في البلاد المتخلفة لم يتجاوز ١٪ سنوياً ، وذلك خلال الفترة الواقعة مابين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٠ . ويضيف هوفمان الى ملاحظته هذه قوله انه يجب رفع نسبة الدخل الى ٢٪ خلال الستينات للحيلولة دون انتشار اليأس في كثير من هذه البلاد .

---

(١) Hybrid strain of rice

ولقد بلغ مجموع الاستثمارات والمنح الاجنبية العامة منها والخاصة ، في الدول المتخلفة خلال الخمسينات معدلا قدر بنحو اربعة آلاف مليون دولار سنويا ، واقترح هوفمان وجوب زيادة هذا المجموع ليبلغ خلال الستينات سبعة آلاف مليون دولار سنوياً ، على ان تكون هذه الزيادة في القروض والمنح المتعلقة بمشاريع المرافق العامة والامل كبير في ان تبلغ دول عديدة خلال هذه الفترة نقطة انطلاقها حيث يبدأ مقدار المساعدات الخارجية المتطلبة لانجاز المشاريع المتبقية بالانخفاض والتقلص .

ولايمكن اعتبار هذه التقديرات إلا تقديرات تقريبية لاتنطبق انطباقاً كلياً على بلاد معينة بذاتها ، غير انه من الممكن استخدامها كدليل يقود الى تخطيط السياسات التي يجب ان تتبناها الدول المتقدمة في برامج التنمية التي تعتمد على العون الخارجي . وبين الدول المتخلفة اليوم دول ليس من المتوقع لها ان تحقق أي تقدم ذي قيمة قبل عام ١٩٧٠ ؛ لذلك فانه من المنتظر ان تخلق هذه الدول لغيرها من الدول الاخرى معضلات سياسية ذات شأن .

وقد ذكر « روستو » بعض التقديرات لنسبة الاستثمارات الاخيرة في بعض البلدان التي هي في طريق التطور والنمو ، جاءت كارقام تقريبية لأن مكاتب الاحصاء فيها مازالت في وضع غير متكامل . ومن هذه التقديرات :

المكسيك (١٩٥٠) ٧٫٢٪

تشيلي (١٩٥٠) ٩٫٥٪

بناما (١٩٥٠) ٧٫٥٪

الفيلبين (١٩٥٢) ٦٫٤٪

بورتوريكو (١٩٥٢) ٧٫٦٪ (الاستثمار الخاص فقط)

الهند (١٩٥٣) ٧٪

وقد اعتبرت الكونغو البلجيكية قبل ان تصبح دولة مستقلة في مرتبة متخلفة رغم ان نسبة الاستثمار فيها بلغت في عام ١٩٥١ اكثر من ٢١٪ ، الا ان هذا الاستثمار كان في أيد أجنبية ولم يتمتع السكان الافريقيون بمردوده الا بنسب قليلة جداً .

كانت الاوضاع المألوفة في تحقيق الانطلاق في الماضي على نوعين : كان النوع الاول في البلاد التي توفرت لديها خصائص التقدم المدني العصري ، وكان الثاني في البلاد التي استطاعت ان توجد لنفسها ، بالاضافة الى توفر مثل هذه الخصائص ، صناعات رئيسية مزدهرة جذبت اليها الرساميل الاجنبية وجعلت صناعات اخرى تنمو الى جانبها خالقة لدى الشعب جواً من الحماسة والاطمئنان والثقة بالنفس .

ولم يكن الانطلاق والتقدم العصري يتحققان عادة الا بمساعدة خارجية ، وينطبق ذلك حتى على القرن التاسع عشر حيث كان الوقت يومئذ اكثر اتساعاً لانتظار جني الثمار ، وعلى ذكر المساعدة الخارجية فانه من الواجب ان نستثني اليابان من هذه القاعدة ، فقد استطاعت ان تحقق تقدماً عملياً بدون مساعدة خارجية ، معتمدة في ذلك على اشراف حكومة ذات سلطة قوية

لاتعرف اللين ، وعلى نظام شديد وجهد قاس وتخطيط دقيق وتقشف شامل ، اما في عهدنا الحاضر فان السرعة قد اصبحت فيه عنصراً هاماً لايمكن إغفاله او اهماله . ولما كانت السرعة في عمليات التنميـــة تتطلب مزيداً من الاستثمارات للوصول الى نقطة الانطلاق ، لذلك فقد اصبح من المتعذر على البلاد الـتي تنمو ان تستغني عن المساعدات الخارجية الا اذا كانت بلاداً كالاتحاد السوفياتي او الصين حيث في الوسع فرض انظمة اجتماعية ومعيشية قاسية .

وحتى تتمكن البلاد من الاقتراب من نقطة الانطلاق عليها ان تستخدم جميع افراد الشعب في المجالات المثمرة وان توجه ثقل الطاقات المتجة نحو عجلة التقدم لجعلهـا تندفع الى الامام دون توقف او تعثر . ومن الطبيعي ان تصطدم هذه العجلة بفئة من الناس يرغب افرادها في اعادتها الى الوراء حيث الماضي الذي يرتاحون اليه وحيث التقاليد التي ألفوا العيش في ظلها . إنما يقابل هذه الفئة فئة اخرى افرادها من المتعلمين والمثقفين الذين يستعجلون الزمن في توق الى مستقبل افضل .

وقد تتجه البلاد نظريا الى الانطلاق في نظام اقتصادي متزن اتزانا جيداً يجعل جميع اجزائهـا تتمدد معا تمددا متساويا دون ان ينحرف جزء منها عن الخط الرئيسي اذ يعمل الخبراء ، داعماً بعضهم بعضـاً آخر ، تحت لواء واحد رئيسي هو لواء الحكومة وذلك لـكي لايفقد النظام الاقتصادي التقدمي توازنه ولـكي لاتحدث هنـاك ثغرات تأبى المعالجة والملء . ولاشك انـه يكون من المؤسف ان ينتهي انشاء مصنع كبير للفولاذ، مثلا

ثم ان يتضح بعد ذلك ان مناجم الحديد والفحم متخلفة في انتاجها عاما كاملا وان الخطوط الحديدية لن تصبح جاهزة الا بعد عامين ، او ان الطلب على الفولاذ مازال محدودا لايجعل من جهد المصنع الذي تم انشاؤه ما يمكنـــه من الاستمرار في الانتاج .. لذلك كان على الحكومة ان توفر لها في جداول التخطيط جميع الدقائق المتعلقة بـكل صناعة من الصناعات الداخلة في برامجها ومشاريعها وان تدرس هذه الدقائق دراسة عميقة مسهبة ، على نحو ما يجري في المشاريع السوفياتية المعروفة باسم « GosPlan » ، فاذا تم ذلك اصبـح في الوسع تجنب الوقوع في مآزق صعبة تعرقل المـد التقدمي وتشل نشاط العمل وحركة الانتاج .

واذا استعرضنا البلدان الحرة التي اصبحت في عداد البلدان النامية قبل خمسين عاما او اكثر ، وجدنا ان انطلاقها لم يكن يخطط من قبل الحكومة لذلك كانت كثيرا ما تجـد نفسها في ازمة مفاجئة تضطر الحكومة الى اتخاذ تدابير عاجـلة جذرية لازالتها او تخفيفها اذا تعذرت الازالة .

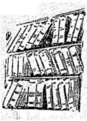
كانت انكلترا اول بلد نشأت فيـه الصناعة الحديثة ، كما هو معروف . وكان لهذه الصناعة اثرهـــا في تطوير انكلترا وفي السيربها الى مدرج الانطلاق عقب النمو المفاجىء في صناعة النسيج القطني . وقد أدى اختراع آلات الغزل والنسيج بصورة غير متوقعة الى انخفاض اكلاف الانتاج في انـكلترا كما ادى اختراع آلات الحلجه الى الاستغنـــاء عن القطن الامريكي الذي كان يستعمل في معاملها في صناعة النسيج ، مما جعل انـكلترا تتمكن من ان تغزو الاسواق العالمية

المختلفة بأقمشتها القطنيـــة الرخيصة الثمن .

وكان من نتائج هذا التطور في صناعة النسيج ان اضطرت الصناعات الاخرى كصناعة الفولاذ والفحم والخطوط الحديدية والبنـاء الى التوسع توسعا سريعـا لـكي تستطيع ان تؤمن الحاجات الجديدة التي خلقتها صناعة النسيج ، وكانت هذه النقطة بدايـة الثورة الصناعية التي اصبحت اليوم تشمل كثيرا من بلدان العالم ، النامية منها والسائرة في طريق النمو .

ان الارتجـال في تخطيط برامج التنمية يعتبر الآفة الاولى التي تشل التطور ، وقد يكون له في بعض الاحيان نتائج أسوأ من احداث الشلل في سير التنمية وذلك عندما يسبب الارتجال نكسة اقتصادية واجتماعية وسياسـية تجعل الشعب يفقد ثقته بالمشاريع الانمائية وبمخططي هـــذه المشاريع وبالمشرفين عليها فتعود البـلاد القهقرى الى نقطة التخلف التي بدأت منها ، واذا رغبت الحكومة في ان تبدأ من جديد بداية ثانية وجدت امامها عقبة جديدة لم تألف وجودها في البداية الاولى . وهذه العقبة الجديدة هي النفسية السلبية التي ولدها عند الجماهير الفشل الذي جاء نتيجة الارتجال في تخطيط مشاريع الانماء . واذا كانت الحكومة قد استعانت في البدء الاول بخبراء واختصاصيين في الصناعة والاقتصاد والتكنولوجيا فانها ستجد نفسها في البدء الثاني في حاجة الى خبراء واختصاصيين في سيكولوجيا الجماهير .

ان النتائج الايجابية التي تحصل عليها الشعوب الناميـــة عند نجاح برامجها التطويرية لاتقتصر خصائصها البناءة على البلاد ذات العلاقة وحدها فحسب بل انها تشمل ايضاً غيرها من البلاد ، ولو ان مثل هذا الشمول شمول غير مباشر . ومن بين هذه النتائج الايجابية انتشار المعرفة وازدهار الفكر العلمي الابداعي ، وكلاهما من العوامـل الجوهرية التي تبعد الانسان عن غابيته اكثر فأكثر وتجعله ألصق بانسانيته الصاعدة وتساعده في اتخاذ موقف كوني واع من الوجود بدلا من موقفه الأرضي المثقل برواسب الغريزة ، فتنصرف الشعوب ، رويداً رويدا ، من التهديم الى البناء ومن القتال الى السلام .





موسم المحاضرات الثقافي

مهرجان الشاعر الباكستاني الكبير محمد اقبال

اقامت سفارة الباكستان في دمشق مهرجانا عن الشاعر العظيم « محمد اقبال » وذلك بمناسبة السنة السادسة والعشرين لوفاته في قاعة المركز الثقافي العربي تحت رعاية وزارة الثقافة والارشاد القومي . وقد اشترك في الحديث عن الشاعر الكبير السيد وزير الثقافة والارشاد القومي الدكتور أسعد محفل والدكتور جورج طعمة والآنسة سمر عطار والملحق الثقافي في سفارة باكستان . كما القى الشاعر عبد الرحيم حصني قصيدة بعنوان « محمد اقبال » وكانت كلمة الختام للاستاذ عبد المعين الملوحي ، وفيما يلي نثبت ملخصاً لكلمة السيد وزير الثقافة والارشاد القومي ولكلمة الدكتور جورج طعمة .

كلمة السيد وزير الثقافة والارشاد القومي الدكتور اسعد محفل :

ايها السادة :

ان مشاركتنا في الاحتفال بذكرى الشاعر العبقري المصلح محمد اقبال واجب مقدس يفرضه علينا واجب الفكر والثقافة وروابط الاخوة الانسانية التي تجمعنا بشعب الباكستان العظيم .

ان محمد اقبال شخصية فذة قلما يجود بها الزمان الا في مئات السنين فهو في طليعة القادة المفكرين الذين انجبتهم الهند الاسلامية العريقة بتاريخها وحضارتها ، وهو من القلائل الذين حظوا ليس باعجاب الشعوب الشرقية فحسب بل الشعوب الغربية التي تقدر العظمة وتحترم الأصالة وتقدر الاخلاص والتفاني في سبيل المبدأ والعقيدة وموطن العظمة في اقبال هو جمعه بين الروح والمادة وتأثره بأحسن ما في الحضارتين الشرقية والغربية من مثل حية وذخائر روحية ولم تستطع الحضارة الاوربية على ما فيها من جوانب ومغريات أن تبعده عن عقيدته الاسلامية بل استطاع بفضل هذه العقيدة وايمانه بعظمة الرسالة التي نادى بها محمد عليه السلام إن يحتفظ بوعيه وحريته وثقته بنفسه فيرى الجانب السيء في الحضارة الاوربية فيكشف عما في هذه الحضارة التي اخذت تبعد شيئاً فشيئاً عن القيم الروحية التي يقدسها ، من زيف وعيوب وضعف .

يبدو لمن يقرأ سيرة هذا البطل انه استكمل كل اسباب العظمة والنضج الفكري الذي يؤهله للقيادة فهو شاعر موهوب نظم بالفارسية والاوردية ، وفيلسوف كتب بالاوردية والانكليزية ، وكاتب سياسي من الطراز الاول حتى ان كتابه الذي ظهر سنة ١٩٣٨ بعنوان « سبع محاضرات عن اعادة بناء الفكر الديني في الاسلام » من الكتب الاساسية الهامة التي تساعد على فهم روحية مسلمي الهند ونظرتهم الى العقيدة الاسلامية واثرها في كيان الافراد والجماعات والدول وهو بالوقت ذاته يدل على فهم اقبال للقرآن وجرأته في تفسير آياته واحكامه عند تطبيقها في المجالات الاجتماعية والسياسية .

على أن محمد اقبال الفيلسوف لم يبق ضمن نطاق الشرق والبلاد الاسلامية فان عظماء الفكر الذين تجمعهم اواصر العبقرية والتفوق يتشابهون في كثير من النواحي فقد جنح اقبال في تأملاته الفلسفية الى دراسة فكرة الزمن كما فعل زميله وصديقه برغسون ، فاكتشف مثلما فعل برغسون حقيقة الديمومة التي تترامى تحت ستار انقضاء الزمن المادي وارتباطه بالاسباب والمسببات ، وعني اقبال ايضا بقضية الذات او الأنسان وصلاته بالذات الخلاقة المبدعة الابدية التي هي الله وذلك من خلال تتبع مصير الانسانية في هذا العالم وقبولها قانون التطور الى مالانهاية .

وقد تعدى اشتغال اقبال بالفلسفة العليا الى الاعجاب والتغني بشعراء الفرس المتصوفين على انه يختلف عن هؤلاء الذين نادوا بوحدة الوجود والتأمل الهادىء في الخلق بقبوله قوانين الحياة ومناداته بالجهاد الدنيوي والسعي والعمل حتى انه جعل السعي في سبيل الرزق شرطاً من شروط الحياة الخالدة في الدار الآخرة ، زد على ذلك فوارق اخرى تميزه من هؤلاء المتصوفة هو السعي الى تحقيق مراميه واهدافه السياسية والاجتماعية في الوقت الذي كان ينزع فيه كبار متصوفة الهنود والفرس ، في نشدانهم الكمال ، الى القضاء على معالم الشخصية المهددة بالزوال تجاه فيضان النور الالهي الابدي كان الرجل الكامل في نظر اقبال هو الذي يفجر طاقاته ومواهبه وملكاته العقلية والروحية وارادته العملية ويضعها في خدمة امثاله من الناس .

كان اقبال اثناء دعوته للتحرر واليقظة واستنهاضه الهمم الخامدة يدعو الى القوة ويقدسها ويجعلها شرطا من شروط التخلص من العبودية والفوز بحياة كريمة حتى شبه بفلاسفة القوة في القرن التاسع عشر امثال نيتشه وغيره على ان فلسفة القوة عنده لاتتصف بالعنف والقسر والايذاء والجبروت واحتقار المستضعفين من الافراد والجماعات كما نادى بذلك نيتشه الالماني بل تتصف بكل مافي كلمة الانسانية من معنى السمو والرقة والاخوة التي لاتتصف بها القوميات الضيقة العنيفة والعنصرية الهدامة التي تتنافى وتعاليم الاسلام السمحة المعطاء ، الم يقل « ان الاسلام هيئة امم تعترف بالحدود الاصطناعية والفوارق الجنسية بدافع من اسباب عملية لا لكي تضيق من آفاق اعضاء الاسرة الاسلامية » .

وكان اقبال يعتقد ان الشعوب الاسلامية لن تستطيع النمو والتكامل والاسهام في اغناء

الحضارة الانسانية بماتبدعه عبقريتها الخاصة الااذا توفرت لها أجواء الحرية والكرامة والاستقلال السياسي المنشود .

ان نشدان الاستقلال هو الذي حدد سلوك اقبال ونزعته السياسية فغلبت شخصية الداعي الى تحرير الهند من الاستعمار البريطاني على شخصية المفكر والمصلح الديني والاجتماعي فقد نظم القصائد القومية الحماسية وتغنى بالامجاد والمفاخر الاسلامية وبشر بمستقبل زاه حافل بالعظمة والقوة ودعا قومه الى الجهاد قائلا : « لقد ولدنا ولادة جديدة ونشأنا تحت ظلال السيوف ، ان قائد قافلتنا هو محمد سيد الحجاز ، وان اسمه عزاء لقلوبنا ، وماقصائد اخيكم اقبال الا دعوة للجهاد لان القافلة اخذت طريقها الصاعد نحو المجد . فالى الامام ؟ »

ولاريب في انه كان لتلك العبارات النارية اثر بعيد في اذكاء حماسة مسلمي الهند الذين اضناهم يومئذ التخاذل وفت في عضدهم التواكل والسلبية ووطأة الاستعمار الدخيل .

اننا نعتقد أن اثر اقبال في ايقاد جذوة التحرر عند مسلمي الهند يعدل — هذا اذا لم يفق — اثر غاندي في ايقاظ الهندوس وتحريرهم.

انه على كل حال الاب الروحي لمسلمي الهند والى محمد علي جناح يعود الفضل في ارساء قواعد دولة الباكستان الاسلامية .

ان عظمة اقبال السياسي تتعدى حدود دولته فهو بفلسفته وشاعريته وارائه وروحيته يتبوأ مكانه الى جانب عظماء الانسانية الخالدة .

فله منا تحية الاكبار والاجلال والتعظيم !

خلاصة الكلمة التي القاها الدكتور جورج طعمة :

في العام ١٤٠٠ اقبلت جحافل تيمور لنك لتحاصر مدينة دمشق بعد ان مرت بطريقها على حلب وحمص وحماه وخلفت وراءها الخراب والدمار والنار واهرامات من جماجم الضحايا . وكانت قبل ذلك قد مرت بالعراق ودمرت بغداد واحرقت مكتبتها الكبيرة . كانت دمشق حينذاك خاضعة لسلطان المماليك في القاهرة فارسل هذا الاخير وفداً لمفاوضة تيمورلنك يترأسه كبير قضاته ابن خلدون . وتمت عدة مقابلات بين الفاتح المخرب ورجل الدولة المفكر ابن خلدون. لاريب انها من اروع ماخلد تاريخ الانسانية من مجابهات ذات معنى بعيد .

فشل ابن خلدون بمهمته وهي اقناع الغازي. المكتسح عن رفع الحصار عن دمشق وبعد شهر دخلت جيوشه وجحافله المدينة الكبيرة فدمرت. واحرقت وقتلت واقتادت كبار علمائها ومفكريها وصناعيها الى سمرقند . ويبدو أن مصادرة العلماء. من قبل الغازين الفاتحين ليست شيئاً جديدا في. تاريخ الحروب والغزوات .

قد تبدو الصلة بعيدة بين ابن خلدون واقبال. ولكنها اقرب واوثق مما نظن . فلقد كان للمجابهة. التي تمت بين الفاتح والمفكر العربي معاني واسعة الابعاد عميقة الاغوار اهمها :

اولا : ان الفكر العربي جابه لأول مرة. الحكم الاجنبي المدمر او الاستعمار بابشع أشكاله.

تلك المجابهة التي كانت اول ما ايقظ الازمــة التاريخية في حياة العرب وكان من ثمارها الاولى ـ مع ماسبق الغزوة من انهيار في بلاد العرب والمسلمين ـ مقدمة ابن خلدون اول فلسفة علمية في التاريخ الفكري العالمي مستلهمة من النكبة التي ألمت بحياة العرب والتي عاشها ابن خلدون. فاما النتيجة الاولى التي نسجلهـا فهي ان النهضة العربيـــة الحديثة بدأت فعلا بغزو تيمورلنك ومقدمة ابن خلدون لا بغزو نابليون لمصر وما تبع ذلك من احيــاء علمي وبعث للتراث العربي كما هو شائع حتى الآن.

ثانياً : بالرغم من ان القرون التي عقبت ذلك الغزو والاحتلال العثماني لبـلاد العرب والمسلمين كانت عهود ظلام لكن الروح العربية والاسلامية لم تخمد جذوتها قط. بدليل انتشار الاسلام في القارتين الافريقية والآسيوية وظهور مفكرين ومصلحين كثيرين كابن تيميــة وعبد الوهاب وحركات المهدية والسنوسيـة وانتشار الطرق الصوفية مما لايتسع المجــال لتفصيله. حتى اذا وصلنا الى اوائل القرن التاسع عشر وما بعده شهدناموكبا حافلا من المفكرين المصلحين والمجددين في دنيا العروبة والاسلام امثال الافغاني ومحمـد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن كواكبي والسيد امير علي وعبد الحميـد الزهراوي ومصطفى عبد الرزاق وطه حسين ومحمد كرد علي ومحمد حسين هيكل. ويأتي محمد اقبال (١٨٧٦ ـ ١٩٣٨) في طليعة هذا الموكب من المفكرين والمصلحين. وهؤلاء وغيرهم كثيرون بالرغم مما قد يوجد فيخلاف بين مذاهبهم وآرائهم ولكنهم جميعا يصدرون عن ازمة تاريخية واحدة هي ازمة الروح العربية والاسلامية في صراعها مع العالم الحديث ومجابهتها للحكم الاجنبي الغاشم.

فلسفة اقبال :

لايزال المصدر الاول لدراسة فلسفة اقبال كتابه « اعادة بناء الفكر الديني في الاسلام » Reconstruction of Religious Thaught in Islam مما يذكرنا لأول وهلة بكتاب الامام الغزالي « احياء علوم الدين في الاسلام ». وهو مجموعة محاضرات القــاها اقبال باللغة الانكليزية ونشرتهـا دار اوكسفورد للنشر لأول مرة. واصبح مرجعاً أساسياً لدراسة الفكر الاسلامي الحديث حتى ليذهب المستشرق المعاصر الكبير جب Gibb انه حين تميزت كتابات المفكرين المسلمين الجدد بانها اقرب الى ادب الدعاية والسياسة والدفاع والتبرير تغلب عليها العاطفة احيانا كثيرة فان كتاب اقبال هذا يتميز بالمعالجة العلمية الرصينة والفكر العميق والثقافة الفلسفية العلمية الواسعة والدقيقة. وتدور مواضيع الكتـــاب حول المعرفة والوحي الديني وصلته بالفلسفة والله والوجود والحرية وروح الثقافة الاسلامية ومبــادىء التجديد والتطور في الاسلام.

نقاط انطلاق تفكير اقبال :

١ ـ وضعت الازمة التاريخيـة ابن خلدون كما وضعت المفكر المسلم والعربي الحديث كاقبال وغيره ممن ذكرت في **قلب معركة الحضارة** وجوهرها كيف يجد العربي او المسلم الحديث نفسه ويحدد كيانه وسط حضـارة غربية هي

حضارة العالم الذي يعيش فيه بما فيها من تناقضات جارحة وهو في الوقت ذاته . وريث حضارة انسانية كبرى وثقافة عالية ساهمت في بناء الحضارة الغربية ذاتها . ومن هنا المقارنة المفجعة بين أمجاد الماضي ومآسي الحاضر والتطلع الى المستقبل.

٢ ـ اعادة تفسير التراث الاسلامي والثقافة العربية لابنائها الذين يجهلونه وللغرب على السواء وقد عكس اقبال في تفكيره جميع التيارات التي اجتاحت ابناء جيله من التطلع العاطفي للماضي الى الاتجاهات الاشتراكية في نفوس شباب الجيل .

٣ ـ تعميق تفكير المجددين والمصلحين وتحذيرهم بشدة من السطحية وامحاء الشخصية امام الحضارة الغربية وخاصة من حيث المبادىء التي يجب ان يقوم عليها التجديد او تحديد مركز الحضارة الاسلامية ورسالتها الانسانية الشاملة .

٤ ـ الصلة القوية في كل ماتقوم بين حياة اقبال وفكره . فلقد ساهم اقبال في مشاكل امته الكبرى من سياسية واجتماعية مساهمة فعالة . عاش حياة عملية يغذيها الفكر ويوجهها . وعاش حياة فكرية ـ مستلهمة من مشاكل العمل والواقع شديدة التماس به غير بعيدة عنه .

مذهبه : اثار اقبال المفكر جميع الاسئلة الأساسية التي اثارها الفكر الفلسفي خلال العصور وخاصة منها مشاكل مابعد الطبيعة والدين وعلاقتها بالخلق الانساني . ماهي صفة الكون الذي نعيش فيه ؟ ماهي الحقيقة المتعالية التي تسيطر عليه ؟ كيف نعرفها ما هو تأثيرها في خلق الانسان وسلوكه؟ نحن نجد اجوبة على هذه الاسئلة في الشعر عندما يبلغ اسمى مراحله والعلم والفلسفة والدين . اما الشعر فاجوبته شخصية في اساسها فردية في تراكيبها رمزية غير محدودة . وقد يدرك لمحات من الحقيقة او قبسا منها ولكنها تظل جزئية غير شاملة . والعلم يمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة ويعطيه معرفة نافعة لكنه يعجز عن ان يعطي الانسان ايمانا موجها او يقينا مطلقا ناظما لجميع اوجه العلاقات الانسانية . والفلسفة تبحث في العقل وفي كل سلطة فوق العقل وروحها هي روح البحث الحر . ولكنها بالرغم من اعتمادها على العقل ـ فهي قد تصل الى حد تعلن معه عجز العقل عن التوصل الى الحقيقة . وقد تم ذلك فعلا في فلسفة (كانط) ونقده للعقل الخالص. اما الدين فهو يجابه الحقيقة المطلقة وهو وحده يتعدى في اجوبته حدود الفردية الطبقية والرمزية المبهمة ويمد الفرد برؤيا الحقيقة او معرفتها وتوسطها الى الغير بواسطة العقل ، والايمان مع ذلك اكثر من مجرد الشعور اذ فيه مضمون فكري . وهذا هو الحدس العقلي ، فالفكر يحيط بالحقيقة مجزأة، والحدس يحيط بوحدتها الكاملة .

وحين يتساءل اقبال عن اسباب جمود الحياة الفكرية في الاسلام يجد بينها الأسباب التالية : (١) تطرف العقليين من اتباع المعتزلة وفرضهم عقيدتهم العقلية لمذهب رسمي للدولة مما دعا اهل السنة الى محاربتهم بشدة . وهكذا هدم المعتزلة العقليون عقيدتهم القائمة على حرية البحث العقلي من حيث لايدرون (٢) تطور الصوفية الى حياة تأملية ترى المثل الاعلى في الزهو واهمال واقع الحياة والابتعاد عنها . (٣) الاحتلال

الاجنبي الذي بدأ بتهديم مراكز الثقافة العربية وفي طليعتها النكبة الكبرى بحريق مكتبة بغداد.

الحرية : ذهب اقبال الى ان تحرير الفرد روحيا هو احدى الحاجات الاساسية التي تجابهها الانسانية عامة والبيئة الاسلامية خاصة . وذهب الى ان سقوط آدم في الخطيئة يرمز الى ارتفاع الانسان من بدائية الشهوات والغرائز الى امتلاك الذات الحرة القابلة للشك والتمرد والوقوع في الخطأ والرجوع عنه . وهذا التطور يظهر ثقة الله بالانسان فعلى الانسان ان يبرر بافعاله الحرة ثقة الله به . والنفس الانسانية ليست فكرة مجردة ولكنها مفهوم حي . اما الكون الذي نعيش فيه فهو مفهوم ليس مجرد واقع طبيعي اعطي لنا لنفهمه او لمجرد الحياة فيه ولكنه تحد جوبهنا به لنحوله والكون ليس مجرد تنفيذ لخطة ازلية ، ولكنه خلق آلهي حر مستمر لاينقطع . وهو يتسع وينمو باضطراد خالقا للانسان آفاقا واهدافا جديدة ليكيف نفسه معها فكأنها المادة المعطاة لفكره ليولد ويبدع . ومن هنا التفسير الديناميكي للكون الذي جاء به اقبال والتوفيق بين قدرة الله المطلقه ومعرفته وحكمته الابديتين من جهة وحرية الانسان من جهة ثانية . ففي الكون قطبان هما الله في السماء والانسان على الارض ، وقدر الذات الانسانية ان تبلغ اعلى حد من التطور بواسطة العقل . فالانسان السائر على طريق الكمال هو الذي يسعى ان يتمثل في ذاته الصفات الآلهية بتحقيق الارادة الآلهية فيه . وهو والحالة هذه مركز قوة مولدة دفع بها وسط كون مولد . فالله خلق الطبيعة بامكانياتها الزاخرة . والانسان هو الذي اخرج هذه الامكانيات من القوة الى الفعل فشق الطرقات واوجد الجمال الفني وحسن الطبيعة وتغلب عليها . ودعا اقبال الى « الاجتهاد » معتبرا ان بابه لم يغلق والى انه مبدأ الحركة والنمو في الاسلام فلا يجوز تجميده.

الثقافة الاسلامية والثقافة الغربية :

عاد اقبال الى انطلاق الثقافة الاسلامية ودراسة جذورها فقال من الخطأ الظن ان الثقافة الاسلامية نشأت تحت تأثير الثقافة اليونانية فواقع الامر ان اخذ العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانية وهي مجردة بعيدة عن الواقع وان تكن كونية شاملة قد أخرت غد العلم العربي وانطلاق الثقافة الاسلامية طيلة قرنين كاملين .

وحين ولدت الثقافة الاسلامية بعد ان تحررت من الروح اليونانية فقد كان معنى ذلك ولادة الروح **الاستقرائية** وبالتالي الطريقة التجريبية التي ادت الى نشأة العلوم الوضعية الرياضية والفيزيائية وغيرها وانتقلت من العرب الى الغرب. وارساء قواعد الطريقة التجريبية الاستقرائية هذه في العلوم التي اخذتها مدرسة اوكسفورد وروجر بيكون من بعد كانت اكبر مساهمة للعرب في نهضة الغرب بل واكبر من اية نظرية علمية ابدع فيها الغرب . لقد تأخر علماء الغرب في الاعتراف بهذه الحقيقة ولكن علماء امثال Sarton و Briffault و Randale من كبار مؤرخي النهضة الغربية اخذوا يقرون بهذه الحقيقة . فاذا وجدنا اليوم

اتجاها روحيا فكرياً صوب الغرب فنحن في الواقع كما يقول اقبال لا نأخذمنه اكثر مما اعطيناه في الماضي . لكن روح الثقافة الاسلامية تميزت بامرين آخرين : ١ — الايمان بوحدة الجنس البشري الذي كان دعوة وعقيدة اكثر مما كان في المسيحية بالرغم من ان المسيحية نادت بالمساواة البشرية.
٢ — انتشار الحس التاريخي وخاصة بعد ابن خلدون .

وحدة الانسانية والحضارة الحديثة

توقف اقبال طويلا وجاء بادلة كثيرة لاثبات وحدة الانسانية اولها الدليل الروحي ، ويثبت بالاستناد اليه ان الاختبار النقدي — وهو طريقة الفلسفة القائمة على العقل ، والاختبار الديني، وهو طريقة النبي — كلاهما توصلان الى معرفة ذات ازلية اولى وارادة خالقة موحية هي الذات الالهية الواحدة التي تخلق كل ذات انسانية واسباب بقائها في الوجود . وليس انقسام البشرية الى اجناس وامم وقبائل الا للتعارف . وقدر الانسان ان يخرج من حدود ذاتيته الضيقة لينسجم مع الكون الكبير . ومن هنا الفارق الاساسي الذي يقيمه اقبال بين التعصب والتدين . فالتعصب يقف حائلا بين المرء والآخرين والتدين الواعي المسؤول بمثابة جسر يوصل بين المرء وبين غيره ويمكنه ان يرى مواطن الجمال في الكون والاخرين وهي كثيرة لاتحصى .

ولقد توقف اقبال طويلا على الحضارة الغربية الحديثة وهو ان مجد علومها الوضعية التي ادت الى سيطرة الانسان على الطبيعة ، لكنه اخذ عليها انها في تطورها العلمي والتقني لم تستند الى اسس روحية ميتافيزيكية ولم تعط الانسان الحديث الطمأنينة في الوجود والسلام الداخلي العميق . ومن هنا شعور الفرد في الغرب بالوحدة الممضة والقلق المستمر والثورة والتمرد . هذا الشعور الذي كان من افجع ضحاياه نيتشه والذي عبر عنه اقوى تعبير في نظريته عن « الرجوع الابدي » Eternal Recurrence . ويعود يأس نيتشه والثورة الروحية التي يمثلها الى التراث الذي تحدر اليه من شوبنهاور وداروين ولانج اذ اعماه تأثير هؤلاء عن الأزمات الروحية المحررة البعيدة وانتهى به الى ارستقراطية فكرية شبيهة بالسجن . وهكذا فالسبب في فشل نيتشه والروح العصرية الثائرة المتمردة هي ان ثورتها غاية في حد ذاتها . فغاية الذات النهائية ليست فقط في ان ترى الحق بل ان تكون ماتراه وهذا هو معنى الحرية الاصيل . ان الجهد العقلي الروحي النهائي ليس عملا فكريا فحسب غايته المعرفة بل هو ايضاً فعل حي يعمل بالذات غايته « الارادة الحرة » وسط عالم يبني ويكاد بناؤه باستمرار ودون توقف .

تلك هي بعض الخطوط الاساسية في تفكير اقبال ولا أقول انها تمثل مذهبه او كامل تفكيره. فقد تضمن كتابه الذي اشرت اليه الكثير من الابحاث العلمية والفلسفية الدقيقة والعميقة تعكس كلها اصالة في الفكر لا مجرد اجترار لافكار ومذاهب مستوردة وانتحال لها وترديد دون تفكير . وهو في عصره الذي جاء فيه — بل حتى بالنسبة ليومنا — يمثل مرحلة يقظة قوية من يقظات الروح الاسلامية وانطلاقها وتوثبها لمعرفة ذاتها وتأكيد وجودها .



مع انطونيوس بشير[1] كمؤلف ومترجم جبران خليل جبران

أشياء جديدة عن الادب المهجوي

اجرى المقابلة عيسى فتوح

(١) • ولد في ١٥ آذار سنة ١٨٩٨ في دوما ـ لبنان .

• درس في دير البلمند الاكليريكي قرب طرابلس ، وظل فيه حتى سيم شماساً سنة ١٩١٦ .

• درس الحقوق في مدرسة بعبدا الحقوقية والجامعة الاميركية ببيروت حتى سنة ١٩٢٠ .

• عينه رئيس اساقفة جبل لبنان كاتم اسراره ، وانتدبته الجامعة الاميركية **وكلية زهرة الاحسان** الارثوذكسية لتدريس الأدب العربي ، بالاضافة الى تعاطيه المحاماة على يد اشهر رجالات القانون آنذاك كنجيب خلف ، ووراجي أبو حيدر ، ونجم عز الدين .

• كتب في عدد من المجلات ، وترجم كتاب العهد الجديد مع كل من المطران بولس ابو عضل ، ونجيب خلف .

• قدم الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٢٢ مع المطران جراسيموس مسره الذي سماه كاهناً ممثلاً للبطريركية الانطاكية في دمشق ، ثم رقاه الى رتبة ارشمندريت .

• طاف البلاد يبني الكنائس ، ويؤلف الجمعيات الوطنية .

• أسس سنة ١٩٢٦ مجلة « الخالدات » بالعربية ، وكتب الكثير من المقالات الدينية والاجتماعية والادبية ، ناهيك عن الكتب التي ألفها منها : « مراقي النجاح » و « اقرأ وفكر » و « ثلاثة مفكرين في الدين » وله مؤلفات بالانكليزية .

• **وكان أهم ماعرف به بين القراء العرب ترجمة كتب جبران السبعــة ، من الانكليزية الى العربية .**

المطران انطونيوس بشير - متروبوليت نيويورك وسائر اميركا الشمالية - احد اعلام الادب المهجري ذكره مرتبط بذكر جبران خليل جبران . فهو اول من ترجم كتب نابغة لبنان الى العربية ، وكان يومئذ يحمل لقب « ارشمندريت » العمل الذي استحق عليه ثناء المفكرين العرب واطراءهم ، وهذه الكتب هي : « النبي ، المجنون ، السابق ، رمل وزبد ، يسوع ابن الانسان ، حديقة النبي ، آلهة الارض » ...

ثم توالت الترجمات بعده ، فكان احسنها وادقها واقربها من الاصل ترجمة الدكتور ثروة عكاشة التي صدرت عن دار المعارف بمصر ، اثبت فيها النص الانكليزي ومقابله النص العربي .

ومهما يكن من امر هذه الترجمات الكثيرة ، فان ترجمة المطران بشير تبقى في الطليعة ، وسبب ذلك يعود الى ان المطران بشير كان صديقاً وفياً لجبران ، عايشه فترة من الزمن ، وكان يطلعه على كل اعماله الادبية قبل ان يخرجها الى النور ، بالاضافة الى انه استطاع ان يفهمه حق الفهم ، وان اختلف معه في الرأي .

التقيت به في فندق « السمير اميس » بدمشق بمناسبة حضوره مؤتمر المطارنة الذي انعقد في دار بطريركية الروم الارثوذكس بتاريخ ١٩/٥/١٩٦٤ فحدثني في تلك المقابلة اشياء كثيرة عن الادب المهجري عامة وجبران خاصة ... وشعرت بالسعادة المطلقة لأنني استطعت ان اظفر بهذا الحديث الرائع ، بالرغم من زحمة اعماله وكثرة مشاغله ... اشياء لم يسبق له ان تحدث بها قبل اليوم .

ـ صدرت في السنوات الاخيرة ترجمات جديدة لكتب جبران الانكليزية فهل اطلعتم عليها ؟

ـ لم اطلع ... اما ترجماتي لكتب جبران فكانت بطلب منه ... كان عندما ينتهي من تأليف الكتاب يوكل الى امر نقله ، ثم يقدم المخطوطتين الانكليزية والعربية الى المطبعة ، لتصدرا معاً وبوقت واحد ... جميع كتب جبران التي ترجمتها الى العربية وافق عليها قبل ان تطبع وقرأها كلمة كلمة وهي مسودات .

وعندما صدرت ترجمة النبي كتب الي يقول : « لقد البست النبي حلة عربية لم اكن قادراً ان البسه افضل منها » .

ـ انت رجل دين ، وجبران كان حرباً عليه ، فكيف اتفقتما على الترجمة ؟

ـ من قال لك اني كنت على وفاق معه دائماً كثيراً ما كنا نختلف في الرأي ، واحاول اقناعه بوجهة نظري ، فافشل حيناً وأنجح حيناً آخر ... نقل الافكار لا يعني الايمان بها ... « فناقل الكفر ليس بكافر » ... كنت وانا اترجم كتب جبران الس فيها التطرف والثورة ومع ذلك لم ارفض ترجمتها ... ولو خيرت في نقلها الآن لكان لي شأن آخر ، فقد كبرت وتغيرت نظرتي اليها ... انني ما زلت اذكر قصة خلافي الكبير معه حول فصل (الله والمجنون) .

ـ ما رأيك بموقف جبران من الدين ؟

ـ لاشك في ان جبران كان اكثر المفكرين فهماً للدين ، نظر اليه نظرة واسعة ، فيها منتهى التسامح والمرونة ... لم يحارب من رجال الدين الا المتعصبين والدجالين والمتاجرين ، اما الذين يقدسون الحق ويعملون به فقد احبهم واحترمهم وفضح في الوقت نفسه المرائين والمتظاهرين بالغيرة على الدين ، والدين منهم براء .

ان اعمال العنف التي كان يرتكبها بعض رجال الاكليروس في لبنان حركت في نفسه الثورة عليهم ... كانت سلطتهم واسعة ، وحكمهم قاطعاً ، ونفوذهم لايقوى على احتماله احد ...

ـ مارأيك بكتاب نعيمه عن جبران ؟

ـ اعتقد ان هذا الكتاب ، بالرغم مما وجه له من انتقادات ، هو افضل ما كتب عن حياة جبران ذلك لأن نعيمه كان اكثر اصدقاء جبران فهماً له ... انه يمثل جبران كحقيقة واقعة ، ذنب نعيمه انه جرد جبران من تلك الهالة السحرية التي احاطها به المزيفون والمعجبون ، وقشع عنه ضباب الوهم والاسطورة ... كل ماقاله ان جبران كبـاقي الناس احب وغامر وتمرد ، وكانت له مباذله وعلاقاته الخاصة... وانه ليس الهاً ليكون معصوماً عن الخطأ .

ـ هل طبعت جميع آثار جبران المخطوطة ؟

ـ نعم ، ولم يبق الا بعض رسائله التي كان يبعث بها للسيدة ماري خوري وهي من اجمل ما كتب .

ـ لقد جمع الدكتور جميل جبر رسائل جبران وطبعها تحت عنوان « رسائل جبران » فهل اطلعتم عليها ؟

ـ لم اطلع عليها ، ومع هذا فانا واثق من انها ليست كل ما كتب جبران ... في حوزتي الآن سبعون رسالة كتبها لي ، ارجو ان تسعفني الظروف لنشرها .

ـ ورسائل ماري خوري ؟

ـ هـذه السيدة اللبنانية كانت وثيقة الصلة بجبران ، ساعدته واتفقت عليه ... كل مااعرف، انها سلمت هذه الرسائل الى المرحوم عبد المسيح حداد لنشرها ـ او انه حصل عليها بمدوفاتها ـ الا ان المنية عاجلته ، ولست ادري مصيرها الآن.

ـ لمـاذا لاتتولى انت طباعتها والاشراف عليها ؟

ـ « ذلك عهد من حياتي قد مضى ... » ان اعمال الابرشية الكثيرة تكاد تصرفني عن كل شيء حتى عن الادب تقريباً؛ عندي مئات الرسائل، غير رسائل جبران ... عندي رسائل ايليا ابي ماضي ، وهي لاتقـل روعة واهمية عن رسائل جبران .

ـ متى واين كنت تلتقي بجبران ؟

ـ الواقع ان نعيمه ، وايليا ابي ماضي ،وعبد المسيح وندره حداد ، ورشيد ايوب ، ونسيب عريضه وباقي أعضاء « الرابطـة القلمية » كانوا اكثر ملازمة له مني ، لأن مهنتي ـ ككاهن ـ كانت تفرض علي عدم الاستقرار ... كنت التقي به خلال جولاتي في بوسطن وبروكلن ونيويورك فنمضي معظم الوقت معا .

ـ أتذكر كيف بدأت صداقتكما؟

ـ عندما كنت استاذا للادب العربي في الجامعة الاميركية وزهرة الاحسان ببيروت ، وقعت في يدي نسخة من ديوانه (المواكب) فقرأت قوله :

وسارق الزهر مذموم ومحتقر

وسارق الحقل يدعى الباسل الخطر

وكان يجب ان يقول : (الباسل الخطرا) بالفتح لا بالضم على اعتبار انها مفعول بـه فكتبت له على الفور مصححا ، دون معرفة، وابلغته اعجابي الشديد ، واقترحت عليه تغيير العجز كما يلي : « وسارق الحقل ممدوح ومعتبر » . . . ومن يومها بدأت صداقتنا، بالرسائل اولا حتى التقينا.

ـ هـل تغيرت نظرة الاميركيين لجبران ؟

ـ ابدا ... وسيظل عندهم الافضل ... ان كتبه تباع الآن بشكل هائل ، وتزداد عدد قرائه ومعجبيه يوما بعد يوم ... أما ريع كتبه فيعود لبلدية « بشري » مسقط رأسه .. وثمة مشاكل حالياً بين الناشر الاميركي والبلدية .. وقد حاولت اخته « مريانا » استرداد حقـوق الطبع من شركة « وليم نوف » بعد انتهاء العقد، إلا انها اخفقت.

وكدليل على اتساع شهرة جبران اذكر ان احدى الشركات الاميركية تتولى الآن تسجيل كتبه على اسطوانات واشرطة، مع موسيقى تصويرية لاأبدع ولا أحلى. .ولم تزل آيات كتابه النبي ترتل وتتلى في الكنائس البروتستانتية بصورة خاصة .

ـ هل نقلت جميع مخلفات جبران الى بشري ؟

ـ نعم ، ولم يبق إلا بعض لوحاته التي كان قد أهداها الى اصدقائه ، وأنا مثلا عندي لوحتان اثنتان احتفظ بهما لنفسي ...

ـ ماذا بقي من حـــركة الادب المهجري حالياً ؟

ـ لقد ركدت لا بل تراجعت تراجعاً هائلا، وخاصة بعد غياب وجوه أكثر الرعيل الأول .. الجيل الحالي ـ للأسف لا يعرف العربية ، وقليلون جداً هم الذين يدرسونها .. « جريدة الهدى » التي كان يصدرها نعوم مكرزل اصبحت في حوزة احدى بناته وهذه الأخيرة لا تلم بالعربية ، فكيف تراها تهتم أو تراقب مايكتب في الجريدة ؟ تصدر ثلاث مرات في الاسبوع .

وهناك « البيان » لراجي ضاهر ، تصدر مرة واحدة في الاسبوع .

و « الاصلاح » لألفونس شورير ، وتصدر مرة واحدة في الاسبوع أيضاً .

أما أنا فأصدر شهرياً مجلة « الكلمة » باللغة الانكليزية ، وهي لسان حال الابرشية وكتابها من كهنة الطائفة ورعاياها .

من منهل الأدب الخالد

دراسة تحليلية لنصوص من القرآن

تأليف الاستاذ محمد المبارك
نشر دار الفكر في دمشق

تحليل ونقد وداد سكاكيني

شغلت الدراسات القرآنيـــة العالم العربي والاسلامي في القديم والحديث ، وكانت علوم القرآن المنبثقة من كتاب الله اول تأليف في الاسلام ، ومن اجل هذا الكتاب الخالد كانت علوم البلاغة والبيان ومؤلفات في اللغة واللسان وكأن القرآن شمس دارت من حولها الكواكب في أشتات البحث والدراسةوالتفسير ، وقد اتسع نطاق التفسير باتساع المعرفة والآفاق ، فقام الأوائل بتأليف كتب فيا يتعلق بالتفسير ، بحثوا فيمفردات القرآن وأحكامه وتعاليمه، ومارسوا وجوه الاعراب والقراءات ، ولم يكن تأويل بعضهم يتجاوز ناحية اللغة والبلاغه ودليل الاعجاز فيا اشتمل عليه كتاب الله حتى جاء عصرنا الذي تطور فيـــه الفكر العربي والاسلامي بتطور العلم والحضارة ومفهوم الحرية والفلسفة ، فأخذت الدراسات القرآنية مجالاً في استجلاء الخصائص الفنية والبيانية الى جانب التفسير الديني وتحليل المعاني التي تعددت فيها الصور والآراء ،واتصلت بالحياة والمجتمع وما فيها من شؤونومشكلات.

فمن ابرز الذين جددوا في التفسير والتعبير في نهضتنا العربية المعاصرة كان الامام محمد عبده وبعض صحبه من العلماء والمصلحين كالشيخ

محمد رشيد رضا وعبد القادر المغربي وغيرهما من رموا بالبصائر والتفكير وراء الآيات والسور واعطوا العالم الاسلامي أفكاراً وصوراً لم تكن مألوفة لدى المفسرين القدامى ، وقد استعان هؤلاء المجددون بالعلوم العصرية في التفسير الذي جمع بين الدين والدنيا .

اما الدراسة القرآنية التي تألقت فيها صور البيان والاعجاز فقد سبق اليها في نتاجنا الفكري الحديث الكاتب البليغ مصطفى صادق الرافعي في كتابه « اعجاز القرآن » الذي قال فيه سعد زغلول خطيب الوطنية في مصر ورائد هباتها التحررية « كأنه تنزيل من التنزيل » .

لقد عني الرافعي الاديب في كتابه هذا عناية بالغة في اجتلاء الروائع القرآنية من خلال البيان وسحره الحلال الذي استمده من روعة التعبير .

وطلع من بعد الرافعي الكاتب الكبير سيد قطب بكتابه « التصوير الفني في القرآن » وقد نشر اول فصل منه عام ١٩٣٩ في مجلة المقتطف ومنذ ظهر هذا المؤلف عام ١٩٤٤ ثم في طبعاته التالية وما ترادف بعدها من مؤلفات لصاحبه وأخيه كان النقاد والمفكرون يتلقون هــذه الدراسات القطبية بشوق وتقدير لأنها اضافت للأدب والتفسير جديداً بما تناولت من تحليل فني وبياني على نسق ومنطق ينقل الصور والمعاني الى أعماق النفوس والشعور من خلال التصوير .

أما التفسير التقليدي للقرآن الكريم فقد بقي على نهجه المعهود حتى تصدى لهذا الموضوع بعض الأدباء الجامعيين في القــاهرة ودمشق ، ممن أتيحت لهم ثقافة قرآنية مكينة الى جانب اختصاصهم بالبحث والتعليم ، وكان لجامعة دمشق فضل في ادخال التفسير الادبي لنصوص من القرآن في اطار الدراسة المنهجيـــة ، وكان الاستـــاذ محمد المبارك اول من حقق هذه الدراسة عام ١٩٥٣ .

كانت طريقته في هذا التفسير تلخيص الفكرة العامة للسورة او الآية ثم بسط ما احتوت من سمات وصور مع شرح الخصائص الفنية والبيانية ليعود بهــا طلاب الادب الى مراجع التفسير واستخلاص المعاني التي تضمنتها السورة او الآية مستعينين بما تلقوا من دراسة ودراية في هــــذا الموضوع الدقيق .

وهذه الدراسة التحليلية الادبية لنصوص من القرآن ظهرت في طبعتها الاولى عام ١٩٦٠ وفي طبعتها الثانية هذا العام ، قدمها الاستاذ المبارك لطلاب الجامعي والقارىء الواعي وانه لمؤلف ثقة علّم الأدب وتمرس بالثقافة العربية والتربية، وكانت هذه العناية مرجوة منه لما كان من انصرافه على الحداثة الى الدراسة القرآنية منذ تلقاها عن أبيه العلامة الشيخ عبد القادر المبارك ثم في حلقات المفسرين وفي طليعتهم محدث الشام الشيخ بدر الدين الحسني وغيره من العلماء الثقات .

قدم المؤلف دراسته هــذه بتواضع الباحث الدائب في استجلاء الحقيقة والخير العام وتذوق الجمال الفني الذي تراءى له في صور البيـــان والاعجاز ، معترفاً بجهود الذين سبقوه أو شاركوه في هذه البحوث الجديدة المسددة التي فازت بنصيب

حول أعـــلام المنجد

بقلم : منير العبادي

ظننت باني حين انتهيت من التنبيه على الأغلاط والأخطاء التي عثرت عليها في مطالعتي العابرة لكتاب « المنجد في الأدب والعلوم ، معجم لأعلام الشرق والغرب » لن اقع ، اذا ماعدت الى مطالعته ثانية ، الا على القليل النادر مما يجب التنبيه عليه ، ولكن محبتي للبحث من جهـــة ، والشكوك التي لازمتني من جهة ثانية ، استبدت بي ، فكانت ميّارة لي على تحمل مشاق المطالعة ومتابعة المراجعة الدقيقة فحطت بي على اغلاط واخطاء لايذكر بأزائها ما كان قد عرف منها من قبـــل (١) ، ومع ذلك فلا ادعي أني استوفيت كل ما يجب ان يكون مرشداً يهتدي بـــه مقتنو هذا المعجم الى مايعول عليه من الصحيح ، فأنه يجوز أن يخفى علي فيه الكثير مما لم انتبه اليه .

واود قبل أن آتي على تنبيه وتصحيح مايتسع لي بهذه الدفعـــة ان اقول أن الأغـــلاط والاخطاء التي وقعت عليها بقراءتين تبلغ نحو الفاً وخمسمائة غلطة وزلة وسقطة وهي على انماط فنها التاريخي ، ومنها الجغرافي ، ومنها اللغوي ، ومنها الانشائي ، ومنها المحرف عن مواضعه وحقيقته ، ومنها ماليس في تبيانه فائدة ، ومنها

(١) اشارة الى مانشر في الاعداد ٨و٩و١٠ للسنة الثانية من (المعرفة) .

سوء النقل ، ومنها المكرر ، ومنها مايبدو فيه التعرض القبيح ، ومنها ما لا اصل له وفيما يلي بعض الامثلة والشواهد على ماذكرت .

جاء في الصفحة ٦ قوله **«الأثر الشريف او الذخيرة** وهي بعض مخلفات قيل انها لمحمد (صلعم) مثل شعره واسنانه وقطع من ملابسه ونماذج من خطه وبعض ادواته وطابع اقدامه بنوع خاص .. الخ» ولقد كان ينبغي ، في ايراد مثل هذا النص ، ان يأتي على المصدر الذي اعتمد عليه في روايته ، فانه ليس كافياً « قيل انها .. الخ » ولا سيما قوله « ونماذج من خطه » وذلك ان المتفق عليه ان محمداً صلى الله عليه وسلم كان امياً ، وقد بعث في الأميين وأرسل اليهم . ولو قال نماذج من كتبه التي بعث بها مبشراً ونذيراً لصح القول واستقام ، وهذه الكتب لم تكن بخطه بل كان يكتبها له من كان يحضر ممن يكتبون ، واكثر من كتب له علي بن ابي طالب «رض» ابن عمه ، ثم يبصمها بخاتمه وترسل الى اصحابها .

وفي ص ١٤ عند ذكر ارفع رأسه قال « له تأليف شذور الذهب في فن السلاحات ! » ولم اقع على ديوان بهذا الاسم ولعله كتاب آخر يبحث في أنواع السلاح واستعماله ، والسلاح يجمع على اسلحة . لا سلاحات .

وفي ص ٤٨ يقول « **اونكيـــار اسكيليس** » وقعت فيهـــا معاهدة لفتح المضائق ، وفي هذا البيان عدة اخطاء وذلك ناشيء عن سقم الترجمـــة اولا ، ان العلم هو « **خنكار اسكله سي** » ميناء لقصر غلطه سراي في استانبول ، كانت خاصة بالسلاطين دون غيرهم ، وخنكار تعني السلطان معدوله عن خداوندكار ، « واسكله » تعني ميناء و« سي » اداة نسبة ويعني ذلك ميناء السلطان ، والغرض من هـــذا الشرح هو ايضاح كيف ان سقم الترجمة جاء بها ممسوخة حتى عادت لايعرف لها معنى ولا مكان .

ففي الموسوعة الانكليزية وردت مبدوءة بحروف « HUN » وفي الفرنسية بحرفي « UN » بينما ان اصلها « خنكارا اسكله سي » .

وفي ص ٥٩ عند ذكر باسيليوس القديس قال الثلاثة اقار خطأ ، **والصواب الثلاثة الأقمار** .

وفي ص ٦٥ قال جمال الدين التبني ولد في نهر والي خطأ والصواب في **نهـــروان** او النهروان ، مدينة .

وفي ص ٦٥ قال (بحدل) بضم الباء الموحدة وسكون الحاء وضم الدال خطأ والصواب بفتح فسكون ففتح ، اسم رجل .

وفي ص ٧٧ يقول **عن قبة الفاتيكان** ان عرضها ٤٢ م غلط والصحيح هو ان قطرها ٤٢ م ، اذ الدائرة لاطول لها ولا عرض ، بل محيط وقطر .

وفي ص ٨٠ يقول **بقيـــع الغرقـد** ، بضم الباء وفتح وسكون الياء « على التصغير » خطأ والصواب بفتح الباء وكسر القاف بعدها ياء مكسورة ، وزن شفيع وصنيع ثم يقول

« يؤمها الحجاج » وقد يخيل لبعض القراء بهذا القول ان البقيع من مناسك الحج والحقيقة ان هذا الموضع هو مدافن اوائل الصحابة من المهاجرين والانصار في المدينـــة ، ولا علاقة للحجاج بها اللهم الا الزيارة والترحم والدعاء للشهداء .

وفي ص ٨٨ يقول **بوازايج** ، مدينة قرب الموصل على جانب الزاب الأصفر خطأ والصواب **« بوغازايجي »** وتلفظ الجيم فارسية teh .

في ص ١١٦ عند ذكر التوقاتي ، له مصنف في علم الحساب ، وله **تضعيف المذبح** « هكذا » فما هو تضعيف المذبح ؟ ليته جاء بتعريف يزيل جهل المطالع ، ولعل هذه الرسالة تعالج **تضعيف الربح او المربح** مادامت في علم الحساب ، اما تضعيف المذبح فلا يمكن ان تكون ذات معنى .

وفي ص ١١٧ عند ذكر تيطس يقول « المشرة فصول » خطأ والصواب **العشرة الفصول** بتعريف الصفة والموصوف .

وفي ص ١٣٢ عند ذكر طسم **وجديس** يقول انهم من العمالقة خطأ والصواب **انهم من العرب البائدة** .

وفي ص ١٣٥ عند ذكر **جرهم** يقول انهم من العرب البائدة خطأ والصواب ان جرهم جرهمان **الأولى والثانية ، فالأولى بائدة ، والثانية عاربة** ونيها نشأ اسماعيل بن ابراهيم الخليل وتزوج .

وفي ص ١٣٨ عند ذكر **جساس بن مرة** قال انه احد ابطال حرب البسوس خطأ والصواب انه كان سبب حرب البسوس بقتله كليب بن ربيعة صهره زوج اخته ـ اخت جساس ـ جليلة .

وفي ص ١٤٨ يقول **الحارث الهمذاني** « بفتح الباء والميم والذال بعدها الف ونون » خطأ **والصواب الهمداني** « بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة لا ذال معجمة » نسبة الى **همدان** قبيلة يمانية مشهورة ، واما **همذان** فدينة في فارس وفي ص ١٤٨ وعند ذكر الحارث ابن حلزة يقول اشتهر بمحاماته عن قبيلته امام **عمر بن الهند** ملك الحيرة خطأ **والصواب عمرو بن هند** وهو اسمه المعروف .

وفي ص ١٥٣ يقول عند ذكر حجر بن عدي قتل بالقرب من دمشق في مرج **عذري** خطأ **والصواب مرج عذراء** وهو معروف الى اليوم بهذا الاسم وفي ص ١٥٤ يقول الحديبية بتشديد الياء الثانية خطأ والصواب بتسهيلها ثم يقول وادي على مرحلة من مكة خطأ والصواب واد « خبر الحديبية » وفي ص ١٥٧ **عند ذكر مقامات الحريري** اورد بيتين قالها الزمخشري في المقامات هكذا .

اقسم بالله وآياتـــــه
والحج وميقاتـــــه

ان الحريري حوى بـــان
تكتب بالتبر مقاماتـــه

وقد اثبت على «تكتب» ضمة فجاءت مضارعاً مجهولاً ، هـــذا الى ان عجز البيت الأول لا يستقيم وزنه مع صدره ، وتضطرب القافية وتختلف في البيتين بين الرفع والكسر ، وهذا من قلة التدقيق او الاهمال ، بل وقلة الذوق ، اما صحة البيتين فهي :

اقسم بالله وآياتـــــــهِ
ومَشْعَرِ الحجّ وميقـاتهِ
ان الحريري حري بــــأن
نَكْتُبَ بالتبر مقامـاتِـــهِ

بجعل نكتب منصوباً بأن التي سبقتها وكسر مقاماته على صيغة المؤنث السالم وبذلك يخلص الى المعنى والوزن المستقيم .

وفي ص ١٥٨ عند ذكر حسن باشا اليمشجي قال ادخل استعمال العملة خطأ والصواب النقد ، ولكنه لم يذكر اي نقد او عملة فهل كانت الدولة العثمانية في تاريخ ١٦٠٠ لا نقود مسكوكة لها هذا الى قوله اليمشجي بفتح الياء وسكون الميم وفتح الشين خطأ والصواب بكسر الياء بامالة خفيفة وكسر الميم وسكون الشين .

وفي ص ١٧١ **عند ذكر الخابور الأكبر** يقول «نهر من اعظم روافد الفرات يتصل برأس العين وماردين ونصيبين ويصب في الفرات عند الميادين » وفي هذا النص تخليط عجيب وعدة اغلاط فظيعة ، لو جاء بها طالب في مدرسة ابتدائية لكان التخلف في صفه جزاءه ليس فقط لكسله بل لغبائه .

فأولا ، ان الخابور ينبع عند رأس العين أو في رأس العين ويجري منحدراً شمالا بشرق فيمر ببلدة السفح ثم بالحسكة ويصب من ثم في الفرات عند بلدة البصيرة ، «على صيغة التصغير» وكل هذه المواضع سورية ، وما ادري من اين جاء بماردين ونصيبين وهما في تركيا وبينهما وبين الخابور او رأس العين مسافات ليس شأني هنا تعيينهـــا .

وفي ص ١٧٧ عند ذكر **هند ابنة الحسن** يضبطها بفتح الحاء خطأ والصواب بضمها ، وهند هذه احدى حكيمات العرب وبليغاتهم .

وفي ص ١٥٨ عند ذكر **داحس** احب ان اورد هـــذا النص بكامله ، قال « داحس حصان كان سبباً لحرب داحس استمرت نارها بين بني ثعلبة وبين بني رياح بحجة ان الفرس جلوى التي ولدت داحس وكانت تخص بني ثعلبة حبلت من الحصان « ذى العقال من غير رضى ثعلبة ، أما الحصان فكان يخص رياح » وقوله ولدت داحس خطأ والصواب داحساً ، وقوله يخص رياح خطأ والصواب يخص رياحاً .

وفي ص ٢٠٠ عند ذكر **« أبو الأسود الدؤلي »** قال كان ابوه من أنصار علي بن ابي طالب خطأ ، فأبوه لم يعاصر علياً ولم يك مسلماً ، بل ان أبا الاسود هـــو الذي كان من اكبر انصاره واكثرهم حباً له وغلواً في محبته وكبار شيعته وهو شاعر وفارس ومن الدهاة والولاة

وواضع علم النحو ومخترع تنقيط الكلام للعربية وكان من الاشراف كذلك .

وفي ص ٢٠٨ يقول « أبو ذويب الهذلي » خطأ والصواب ذؤيب بأثبات همزة على الواو ، ثم يقول خرج مع عبد الله بن ابي سرح بكسر السين المهملة خطأ والصواب بفتحها وسكون الراء ، والسرح كبار الذكوان والذكوان تجر حسن العاليج جمع علوج والعلوج الغصن الناعم ، واسم ابي ذؤيب خويلد بن خالد .

وفي ص ١٩١ يقول **درانيس** خادم سكينة شفاها من مرض ، خطأ والصواب اسمه درافيس بالفاء لا بالنون .

وفي ص ١٩١ يقول **دربند** بكسر الدال خطأ والصواب بفتحها ، ودر بالفارسية : باب في العربية وبند منطقة ومعنى دربند باب المنطقة أو باب الاقليم .

وفي ص ١٩٣ عند ذكر **دريد بن الصمة** يقول وهو مسن ، ويقصد من ذلك انه شيخ ، أو طاعن في السن أو انه اسن حين خطب الخنساء ، اما مسن بضم الميم وكسر السين وتشديد النون فلا تقال الا للدواب .

وفي ص ٢١٤ وردت كلمة **رحلة** بفتح الراء في ثلاثة مواضع لثلاث نبذ وذلك خطأ فالرحل والارتحال : الانتقال ، وهو الرحلة بكسر الراء . والرحلة بضمها والرحلة بالكسر اسم للارتحال للسير .

وفي ص ٢٢١ يقول **عبدالله بن رواحة** بضم الراء خطأ والصواب بفتحها وفي ص ٢٢١ يقول **رؤبة بن العجاج** ، وينعته بالشاعر خطأ والصواب انه كان راجزاً وبذلك اشتهر وعرف .

وفي ص ٢٢٤ يقول عند ذكر الروضة في الفروع ، **اعتنى به جماعة . . . الخ** خطأ والصواب **عُني به جماعة** من العلماء .

وفي ص ٢٣٣ يقول الزرقاني عبد الباقي ، **بفتح الزاي خطأ والصواب بضمها ،** ثم يقول له شرح الزرقاني على مختصر الخليل ، خطأ والصواب على مختصر الشيخ خليل ، ويقضي البيان بذلك لكيلا يحصل اللبس بين الخليل الأزدي والشيخ خليل .

وفي ص ٢٣٥ يقول **الزهرة «الكوكب»** بضم الزاي وسكون الهاء خطأ والصواب بضم الزاي وفتح الهاء والراء «الزُهَرَة» وما دام قد ذكر شأنها عند الرومان واليونان والفينيقيين فقد كان يجب ان لا ينسى ان اسمها عند قدماء العرب **عثتر** وعنهم انتقلت الى الكلدان باسم استار أو استارا والى الفرس باسم آستر ... الخ وهي عشتروت .

وفي ص ٢٥٠ يقول « **سدرة المنتهى** » بفتح السين خطأ والصواب بكسرها .

وفي ص ٢٥٤ عند ذكر **سعدي الشيرازي** قال تعلم في ناظمية بغداد خطأ والصواب **النظامية** وفي ص ٥٣٥ ورد اسم نظام الملك وانه اسس المدرسة النظامية .

وفي ص ٢٥٥ قال عند ذكر « ابوسعيد » تاسع امراء المغـول ١٣١٦ — ١٣٣٥ **وعادت العملة** على ايامه تضرب باسم الخلفاء الراشدين ، قوله عادت العملة ، اين كانت لتعود ولو قال **اعيد ضرب العملة** لأمن الزلل ، ثم قوله **العملة** خطأ والصواب **النقد** ،وقوله باسم الخلفاء الراشدين ، فان عهد الخلفاء الراشدين ينتهي سنة ٦٦٠ م كما في الصفحة ١٧٩ من هذا المنجد !! وابوسعيد هذا هو آخر ملوك ايلخان من نسل هولاكو التي انتهت ايامها بعد منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، ولعله يقصد الخلفاء العباسيين .

وفي ص ٢٥٥ يقول سعيد بن علي المغربي **بضم الميم** وسكون الغين وفتح الراء خطأ والصواب **بفتح وسكون وكسر المَغْرِبي** .

وفي ص ٢٦١ قال **عند ذكر سليم بن منصور** ، كان لها عناية بتربية الخيل ، خطأ ، والصواب كانت تعنى بالخيل ، عنى بضم العـين وكسر النون بالأمر اشتغل واهتم به .

وفي ص ٢٦٢ قال عند ذكر سليمان المهري ، **من اشهر البحـــارين** العرب خطأ ، **والصواب ، البحارة** ، او الملاحـــين او الربابنة ، او القباطنة العرب .

وفي ص ٢٨٠ قال عند ذكر السيد الحميري توفي في **الواسط** خطأ والصواب **واســـط مدينة في العراق** .

وفي ص ٢٨٠ عند ذكر **سيون** يقـول بلدة في حضرموت خطأ والصواب سوان .

وفي ص ٢٨٢ قال عند ذكر **شاطبة** كان يعمل بها الكاغد الجيد ، كان يجـــدر ان يأتي بتعريف الكاغد وهو ورق الكتابة والكلمة تركية او فارسية .

وفي ص ٢٨٢ قال عند ذكر الشاطبي ، اول بيت من قصيدته في القرآن

بدأت باسم الله في النظم اولا
تبارك رحمانا رحيما مؤئـــلا

انصحة عجز البيت هو : تبارك رحمانا رحيما وموئلا

واسم الشاطبي ، ابو محمد قاسم بن فيره بن ابي القاسم الرعيني الشاطبي نسبة الى شاطبة مدينة اندلسية ، ووالده فيره اصلها حديد في الاسبانية لقب به لشدته وقوته .

وفي ص ٢٨٤ عند ذكر **الشاهنامة** يقول فيها ٦٠,٠٠٠ شعر خطأ والصواب ٦٠,٠٠٠ بيت من الشعر .

وفي ص ٢٨٨ يقول **شرحبيل** بن الحارث ، وشرحبيل بن حسنة ، بفتح الشين وسكون الراء وفتح الحاء خطأ ، والصواب : بضم الشين وفتح الراء وسكون الحاء شُرَحْبِيل .

وفي ص ٢٩٨ **يقول شيركوه** بفتح الكاف وفتح الواو خطأ والصواب بضمها معاً ويعني الاسم اسد الجبل او الأسد الجبلي ، فان

شير الفارسية تعني الاسد في العربية وكوه بالفارسية تعني الجبل بالعربية .

وفي ص ٣٠٣ يقول **صالح بن مرداس** بفتح الميم خطأ والصواب بكسرها .

وفي ص ٣٠٤ يقول الصحراء في اواسط **افريقيا** خطأ والصواب **إفريقية**

وفي ص٣١٣يقول ضرار **بن مالك الأزور** خطأ والصواب ضرار بن الازور .

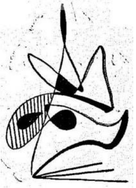
وفي ص ٣١٤ عند ذكر ضرية يقول كانت لهم **فيهامراعي** خطأ والصواب **مراع** .

وفي ص ٣٣٢ عند ذكر « **بنو العباس** » قال جدهم ابو العباس خطأ والصواب ان جدهم هو العباس بن عبد المطلب .

وفي ص ٣٣٢ عند ذكر عباس . يقول **ادمن في شرب الخمرة** خطأ والصواب ادمن الخمرة وفي اللسان فلان مدمن الشرب والخمر اذا لزم شربها .

وفي ص ٣٤٢ يقول **عبس** اسم عـدة قبائل عربيـة خطأ والصواب ، ان عبساً قبيلة واحدة وهي احدى جمرات العرب والجمرة هي التي لاتطفأ اي لم تدخل في قبيلة غيرها .

وفي ص ٣٤٥ يقول **عجـــل قبيلة** في شمالي جزيرة العرب ، ثم يقول فصيلة من بكر وائل خطأ والصواب ان يقول ، عجل من بكر وائل ، وهي قبيلة ينتسب اليها كثير من الاعلام .





غازي خالدي — شجرة الجوز — مجلة المعرفة

وثائق الفن

الفنان : غازي الخالدي

الفنان غازي الخالدي من مواليد دمشق عام ١٩٣٥ . درس الفن على نفقتـه الخاصة في كلية الفنون الجميلة بالقاهرة وتخرج عام ١٩٦٢ بدرجة جيد جداً وقد مارس النقد الفني ، وكتابة القصة بالاضافة الى اختصاصه الاصلي ، وكلف بتدريس مادة التربية الفنية في مدارس دمشق الثانوية وهو الآن يشغل منصب رئيس مركز الفنون التطبيقية بدمشق .

اللوحة : مئة سنة من عمر الزمن

اسلوب الفنان غازي الخالدي يمتاز بالنزعة التعبيرية بحيث يعطي الاشكال التي يعالجها مدلولات نفسية وحضارية ويحافظ في اكثر اعماله على الواقع ويعتبر الطبيعة هي المصدر الاصلي لكل عمل فني . والخط عنده له دور كبير في تحديد الاشكال ، اما اللون فله تجربة خاصة به يعتمد فيها على الشفافية اللونية وفي لوحته هذه (مئة سنة من عمر الزمن) تبدو المقارنة بين جذع الشجرة الذي يوشك على الموت وبين فرعها الصغير الذي يصر على النمو والحياة . ويلاحظ مدى استخدامه لعملية شفافية الالوان من خلال الازرق والاحمر واللوحة تعبيرية من خلال الواقع ، وهي من مقتنيات وزارة الثقافة والارشاد القومي .

الطريق

تاليف : نجيب محفوظ
الناشر : مكتبة مصر

عرض وتحليل سعد الله ونوس

في دراسة تتناول احد اعمال نجيب محفوظ الاخـــيرة التي اعقبت « الثلاثية » تجد نفسها مضطرة الى التمهيد بنظرة فاحصة لخصائص الرمز في هذه الاعمال خاصة ، وفي خلق محفوظ عامة.

فالرمز وسيلة فنية قديمة لجأ اليهـــا الانسان فراراً من العسف الخارجي أو الداخلي ، متملصاً بها من سلطة الدولة ممثلة العسف بمعناه الخارجي ومن رقابة « الأنا » الذي يفرض على اتجاهات الغرائز واندفاعاتها قيوداً وكوابح يستلهمها من ضـــرورات الواقع ومستلزمات التكيف الاجتاعي وقد لايكون التحديد دقيقاً ، لكنه أقرب التحديدات الموجزة الى الدقة . والترميز وسيلة فنية صعبة فهو مرحـــلة اشق في الخلق الفني ، والسقطات التي تتأهب لثغرة كثيرة ... ليس اقلها تقييد الحياة بمبادىء نظرية يتلمس الكاتب تأكيدها . ذلك ان معظم الرمزيين يعطون أولية للمطلقات الفكرية . أما الحيـــاة فتأتي في الدرجة الثانيـــة — انها الكيس الذي ستعطيه الافكار شكله — ولذا فهم ينساقون مع برهناتهم على الافكار مضحين بالحياة مما يطبع أعمالهم باليبوسة وفقر الحيوية ، وبروز الذهن خلف الجلد الجاف كهيكل رياضي منفر . ومادام

الترميز تسللا خفياً عبر الانفعالات الجمالية والتجاوب الوجدانية ، فان العمل حين يغدو هذه الصورة المتحجرة يفقد فاعليته التأثيرية .

ولقد وقى حدس ذكي نجيب محفوظ من التردي في مهاوي مثل هذه الخيبات . اذ انه لم يعط الاولية للفكر ، بل للوجود الانساني . ثمة الحياة .. وثمة الانسان ، وبعد ذلك ينبعث الفكر كأعمق محاولات التكيف مع وضع محير ومربك ، لكنه يؤمل بلا ملال بالمتخفي الذي سيكتشف فيما بعد اثر محاولة اخرى او مغامرة تالية .

واذن فالواقع لدى محفوظ يتلبس افكاراً وليست الافكار تتلبس واقعاً . والبون شاسع بين الحالتين . فالاولى تعطينا زخماً حياتياً يرفده زخم فكري لا نلتقيه في الثانية . وبهذا تمثل شخوصه أحيانا مجردات ذهنية مثل (الله .. العلم .. الانسان) دون ان تتخثر دماؤها ، او تتوقف دورة الحياة في أوصالها . وما ذلك بمدهش ، مادام يعطي للوجود الانساني اولية في خلقه ، ثم بالمحل الثاني يتقدم الفكر ليشكل صورة هذا الوجود ، ويمنحه هيئة مميزة .

وروايات الفترة الاخيرة كلها ابتداء من اولاد حارتنا وحتى الطريق مروراً باللص والكلاب والسمان والخريف ، تجلو هذا الامتياز الذي يتفرد به محفوظ ، وتبرز ذاك التازج السيمفوني بين كثافة الواقع وعمق الرمز وشفافيته ، بحيث تتحد الحياة والفكر في تركيب فني معقد يتوخى بدون التبسطات التجريدية حل جملة المتناقضات التي يغرق الانسان في طحالبها وسط حقبة تاريخية معينة .

وهكذا كانت رواية « الطريق » آخر الصور الممثلة لوحدة الحياة والفكر في بوتقة عمل فني . وابطالها بشر حقيقيون يصطخب في عروقهم الدم الحي ، والواقع ، لكنهم يتشكلون على مستويات اخرى رموزاً ذات خلفيات ذهنية عميقة . وانه لوصف دقيق القول بأن « الطريق » تروق في عين قارىء الروايات البوليسية ، أو الواقعية الوصفية ، بنفس الحرارة التي تروق بها في عين القارىء الجاد ، الباحث عن اغناء وعيه وتوسيع أمدائه .

وهذا المديح يمكن ان يكون حكماً على الروائي نجيب محفوظ بصورة عامة وليس على روايته الاخيرة فحسب .

والطريق ، حركة درامية تتمحور حول « البحث » مستقية مادتها من النبع الذي نهلت منه اساطير كثيرة لدى مختلف الشعوب ، واعمال فنية ظهرت خلال تعاقب القرون . تدور كلها حول البحث عن الغائب الذي يملك الحرية والكرامة والسلام ؟

والمستحدث في رواية محفوظ هو المغزى الجديد الذي شحنها به . فصابر شاب بلا علم او مهنه او عمل عاش حتى وفاة امه في وهج الذهب . كان الام ماخور . وكان المال يتدفق سيولا ، فلم يكترث باتقان شيء الا اغواء النساء واستعمال القبضات (والسمعة لا تحميها الا القبضة الحديدية) .. ثم تكفهر الايام ، ويشي بالام موتور . ويلقيها اباؤها في السجن بعد مصادرة

كل املاكها . وحين تخرج تموت في نفس اليوم بعد ان جفت سيول المال ، وانحسرت موجات الذهب ، لكنها قبل ان تموت تعطي ابنها هبتها الاخيرة ، اذ تخبره ان اباه لم يمت كما قالت له في صغره ، بل انه غني ووجيه ، ولديه ان يجده سياق مخرجاً اكيداً من وكسة الفقر واليتم والسنة السوء .

ويستقطب البحث عن سيد سيد الرحيمي وجود صابر برمته ، فتتحلق آماله كلهـــا حول الوعد الذي يختزنه الغائب . وتتجسد مبررات حياته وغاياته في العثور عليه . وعنده ستنجاب الغمة ، وسيتزاح ثقل الماضي الأسود ، وسيلتقي الحرية والطمأنينة .

ويحمل صابر وثيقة زواج قديمة ، وصورة لأمه وأبيه ، ويبـــدأ بحثه عن الرحيمي . في الاسكندرية .. لا ضوء .. ولا أمل . فيقرر الرحيل الى القاهرة بعد ان يبيع كل مالديه . وفي القاهرة ينزل بفندق رخيص . . زوجة صاحبه العجوز جميلة مثيرة تدفع الى ذهنه طيوف ذكريات قديمة ومرعشة . ومنذ النظرة الاولى تنغزل أول حلقـــة في سلسلة مستقيمة تفضي الى المصير . وغداة وصوله انغزلت الحلقة الثانية .. أعلن في جريدةأبي الهول منادياً أباه ، وتعرف على إلهام السمراء ذات العينين الزرقاوين الموحيتين بعالم نقي متناغم .

والاحداث تتدافـــع عجلى لا تترك فرصة لتدبر أو تأمل . الأب عنيد لا يجيب ، ولا يومىء باشارة .. والنقود تتناقص . وصابر يتمزق كل لحظة بالخيبة والحيرة والخوف . وكلما نما اليأس من التقاء الرحيمي ، انزلق وجوده الى ميعة اضطراب شامل يفقده المقوم والدافع والرجاء (ووضحت له تعاسة مركزه اذ يعتمد كلية على شبيه السراب) .

وعبر الخوف المتوتر ، تستجيب كريمة — امرأة صاحب الفندق — لاغوائه ، فتسقيه من اضطرام جسدها لهاث النشوة البدائية التي تشده الى ماضيه ، والى اليقين الوحيد الذي يتجذر في باطنه . يقين الحواس تخرها اللذة . وعندمـــا كان آخر الليل يتكشف رقصة غابية تحت لهب الجسد ، كان سيد سيد الرحيمي يتلاشى ويخرس طنين الدوامة . ويطيف شعور بالرسوخ . لكن ضرورات ضوء النهار لا تنهزم الا الى حين ، فلا تلبث ان تطفىء النار ، وتيبس الرقصة . ويستيقظ صابر عـــلى وضعه المخلخل والمزدحم بالتهديدات . كريمة لا تملك الا ساعات في أذيال ليـــل ، والنقود تتبدد وتتبعثر . وسيد الرحيمي ساخر لا تكرثه نداءات ابنه المبحوحة.

ومـــا يفاقم تجاذبات الدوامة حـــدة توثق علاقتـــه بالهام الفتـــاة الناصعة التي تمثل الشق المناقض للماضي الذي يبهظ كتفيه ولكريمة عازفة ألحان الغابات وموقظة سالف الايام . وكلما تغلغلت نظراته في صفحة وجهها المترقرقة بنقاوة لم تعكرها الشرور إرتفع بشعور من التسامي يغص به حلقه لعجزه عن الحياة على مستواه . هي منار لطيف الضوء سامق ، بيد أنها - مع هـــذا - (تقلق مخاوفه وعقده ، وتزعزع أركان العالم الذي بناه لنفسه واطمأن اليه) .

وهكذا يتقاسمه عالمان متناقضان يزيدان ضياعه الذي يعمق حاجته للأب المجهول مالك « الحرية والكرامة والسلام » وبينما تقتنطه كريمة بلفح الرغبات ، وتنكص به الى الخلف الى الكنار الليلي والعيش البهيمي ، فان الهام تستميله بسلاسة ، وبلا ضجيج الى الامام .. الى سماء المثل والتجاوز الروحي ويتردد مشلولاً .. حائراً : (وشد ما يهرب من هذا السؤال المزعج من تختار اذا خيرت ، ولكنه يدأب على جسه كدمل كامن) .

والدلالتان الرمزيتان لكريمة والهام تلتمعان بوضوح خلال الاحداث المتعاقبة فكريمة .. هي عالم الغرائز الذي كان ينتمي اليه بكليته في الماضي ويالها لفتة رائعة اذ اوثقها الكاتب ، بذكرى قديمة تجيش في الذهن ، عطفة الانفوشي المشبعة بهواء البحر وانفعالات الجنون الملقمة بالظلام ، وحتى حينما تأكد أنها لم تكن تلك الفتاة النحيلة ظل يسلكها في ماضيه بعناد مدهش رغم طبيعته أفليست كريمة من نسيج ذياك الماضي ومعدله . اليست الدم حين يفور ، والشهوة حين تفح ، والقلق حين يهدأ واختيارها يوازي الحنين الى الحل الآخر الذي اقترحه الفقر : البلطجة والبرمجية.

اما الهام ، فانها عالم التألق الشفاف ، عالم القيم والمثل والامـان ، تومىء له كي يتخطى الحنين والمثيرات ، ويرتقي عبر نفسه الى حياة جديدة منقاة من الخوف والكرب .(وكريمة مثله تغلي في شرايينها دواعي الفطرة والغريزة والعمى والقحة لا كالهام نسمة تستقر في ذروة لا يرقى اليها احد) .. فاذا يختار ؟

بازاء هذا السؤال يتراكم مغزى الرواية في تكتل درامي يمنح الحركة الداخلية منحاها .. والمصير سبيته ؛ اذ ان نجيب محفوظ يعتمد هنا على (الموقف) بشكله السارتري ، لا ليكشف عن حرية ، بل ليحكم على اختيار قبلي . فالسؤال الذي واجه صابر أمام علاقته الانقسامية مع كريمة والهام ليس ضوءاً ينير بعض ظلمات نفسه ويحدد معنى وجوده من خلال اجابته الحاضرة عليه ، بل هو توكيد وتقييم لاجابة قديمة تسم ماهية انسان بيسمها الخاص .

لقد اختار صابر البحث عن سيد سيد الرحيمي . وهذا هو موطننا للولوج الى مأساته . وفي كل تساؤل جديد تطرحه الحوادث لن يغمغم بطلنا بسوى أصداء مترددة للاختيار الاول . ولكي نفهم معنى هذا الاختيار ، لنتساءل : من هو سيد سيد الرحيمي ؟

هنا ، تنبعث من مؤلفات محفـوظ شخصية أخرى تطل خلف الاستفهام كوجه آخر لقيمة خفية . ان سيد سيد الرحيمي يذكر بزعبلاوي في القصة القصيرة (زعبلاوي) وهما معاً رمزان « للمجهول » الذي يملك كل ما نحلم به فيجتذبنا للبحث عنه خروجاً من آلامنا . وهذا « المجهول » يتطابق الى حد ما مع « الله » منظوراً اليه من خلال اعتبارات الحدود الانسانيـة .. الله الذي يستمد من حاجات الانسان هيئته ..

والتصوير النسبي المطلق لدى محفوظ ينبثق عما سميناه أولية الانسان الواقعي في رمزيته ، ومن حسه النافذ بأن المشكلة الميتافيزيكية انما تتحدد أبعادها في انعكاساتها على حياة الانسان فقط ، ولهذا اتخذ « الله » في مؤلفات محفوظ

سمة « الصورة الذهنيـــة » المنتزعة من تكوين انساني ، لا « الاطلاق المجرد » الذي ورد في التبشيرات الدينية . ويمثل هذه النظرة يمكن ان نعتبر سيد سيد الرحيمي رمزاً لله الواهب القادر ولكن ينبغي الا نضيّق أفق هـــذه الشخصية بتحديدات نهائية ، فهي تحتمل الى جانب ذلك كل الاوهام اللامعقولة التي تنبت حـــولها شجيرات آمالنا ، وكل الخيالات التي تضفي عليها قدرات لانهائية تؤمل بمخارج سحرية من العذاب (وماتت الام ، ولم تترك الا وهماً) .

ولما اختار صابر خروجاً من مأزق الافلاس ومصير القوادين البحث عن الرحيمي أزاح عن كاهله مسؤوليته وعلق كل شيء بالخافي الذي يعد العثور عليه بحياة جديدة مشرقة .. اي انه هرب من حريته ، ومن تبني نفسه ليربطها ربطاً محكماً بالمجهول .. وبذا أصبح وجوده مشروطاً بسبب غامض يمده بالمعنى والمبرر .. وتجلب سلبية لهـــا مذاق العبودية .. سلبية حددت مسار المأساة منذ البدء ..

وصابر كان يحيا في ظلام اللذة الآنية وسيادة القبضة القوية ، لكن حين أصبح الاستمرار مستحيلاً ، لم يفكر باعادة النظر في نفسه لتشييدها من جديد ، ولم يحـــاول السير بمفرده حاملا صليب مسؤوليته على كتفه ؛ بل آثر الهروع الى قوة مبهمة يحتمي بها من نفسه ، ومن ضرورات الواقع متحاشياً الصراع ، وراسماً بذاتـه لذاته قدر الضحية .

الصبر .. الانتظـــار ، خاصيتان تطبعان وجوده ، فيمثل بها الشخصية القدرية التي تستلهم موقفها التسليمي من جذور دينية معينة . والصبر المنتظر يتكرر عند محفوظ كثـيراً كرمز للعبودية المستقاة من اتكالية دينية ، وغالباً ما يتخير أشخاصه أنفسهم في مواجهته . وسعيد مهران – بطل اللص والكلاب – نبذ الصبر . . أما صابر الرحيمي فقد ظل مخلصاً لاسمه ...

ولهذا عجز حينما تجسد قطبا حياته : الماضي باثاراته ، والمستقبل بوعوده بكريمة وإلهام . . عجز عن الاختيار بينهما ، مع انه منح فرصته . ومضى يتذبذب بمجانية مائعة تاركاً للالحـــاح الخارجي تسيير دفة سلوكه في الدروب الاسهل .

كانت نقوده لاتفتأ تتناقص ، والرحيمي ابداً صامت .. وخليل زوج كريمة لايموت .. وينادي الماضي في عتمـــة آخر الليل . هو لايختار ، ولكنه ينفذ مقتضيات ضرورة قاهرة ألقى نفسه في حمأتها منذ فضل الانتظار الغيبي . والعودة الى الخلف ايسر لانه يتقن دروبه .. اما الصعود الى الهام فسير موئس .. ويقتل عم خليل آملا وراثة امواله وزوجته فتنفرج الغمة . وتجري التحقيقات .. وتذيقه الهام الندم .. كانت ذروتها التي خشي تشوفها مهيـــأة له لو حاول .. ولم يحاول لانه باع كل المحاولات بالبحث عن الرحيمي . والندم عبث يزيد والعذاب امضاضاً .. ويخنق صابر كريمة شاكاً بخيانتها لكأنه يخنق ماضيه ، ثم يزج به في السجن .

ونحسب ان الضربة كافية للايقاظ من الاوهام ، الا ان صابر رغم هذا ، يبذل في السجن جهداً اخيراً للعثور على الاب القادر على انتشاله من

ترجمة : قلم التحرير

الجراح يوجه النوم

عن الروسية : لبوريس كازانسكي

لقد توصل الطب الى القضاء على الاحساس بالالم خلال العمليات الجراحية وذلك بواسطة التخدير ، ومنذ مدة طويلة كان الكلوروفورم المادة الوحيدة التي تستخدم للتخدير العام . وفيما بعد استبدل الكلوروفورم بالاثير الذي يقل عنه خطرا ، او بمزيج من الاوكسجين وبروتوكسيد الازوت . الا ان ابحاث الكيميائيين لم تتوقف عند هذا الحد .

وقد وضع نيقولاي زيانسكي ، من اكاديمية العلوم السوفيتية ، مع فريق من الباحثين برئاسة الاكاديمي بوريس كازانسكي ، وضعوا في معهد الكيمياء العضوية، طريقة جديدة لصنع السيكلوبروبان وقد طلب مراسل وكالة انباء نوفوستي من الاكاديمي بوريس كازانسكي ، التحدث عن هذه المادة التخديرية ، فقال :

— ان للتخدير مساوىء كبيرة : وضع عام سيىء ، وتقيؤ بعد العمليات . وغالبا مايقول الجراح : « لقد اضطررت ان استعمل التخدير الموضعي ، اذ ان وضع المريض لايسمح بتطبيق التخدير العام » وعلاوة على ذلك فان التخدير العام يتطلب مهارة قصوى من جانب الاختصاصيين بالتخدير . اما السيكلوبروبان فليست له هذه المساوىء .

ان استعمال المزيج من السيكلوبروبان والاوكسجين وبروتوكسيد الآزوت ، يسبب دورانا خفيفا ، ولكن فور ان يأخذ المريض منوما ما ، فان هذا المزيج الذي يدخل فوراً بواسطة انبوب الى حنجرة المريض يخدر هذا الاخير المدة التي يحتاج اليها الجراح لاجراء العملية .

ان الاختصاصيين في التخدير يعرفون جيدا حالة مابعد التخدير ، ويتوجب على احدى الممرضات ان تسهر على المريض جيدا حتى بعد

استيقاظه ، في حين ان استعمال السيكوبروبان يغني عن هذا السهر — فالمريض يستيقظ فور التوقف عن استعمال السيكوبروبان .

ان دور السيكوبروبان يتعاظم نظرا لظهور فرع جديد للتخدير — التخدير المستعجل.

فالسيكلوبروبان ، لايمكن الاستعاضة عنه في حالة الحوادث الجماعية حيث يجد الجراح نفسه امام عدد كبير من الاشخاص الذين يحتاجون لمعالجة ، والاختصاصي في التخدير — لتنويمهم وايقاظهم بسرعة .

غير ان الميزة الرئيسية للسيكلوبروبان هي خلوه التام من الضرر . فمن المعلوم بان التخدير العام ليس مستحسنا في حالة امراض الكبد وجهاز القلب والاوعية . الا ان السيكلوبروبان يمكن استعماله لجميع المرضى بدون استثناء ولايمكن ان يسبب اي ضرر بعد التخدير .

هذا وقد اجريت جميع التجارب العيادية بنجاح على هذه المادة ، في معهد التدليك التجريبي وفي معهد امراض القلب والاوعية التابعين لاكاديمية العلوم السوفيتية .

ليس الانسان بالمخلوق الوحيد الذي يصنع ادواته بيده

كان العلماء الى عهد قريب ، يعرفون الانسان بانه المخلوق الذي يصنع الادوات ويخترعها . الا ان عالمة انجليزية اسمها جين غودول ترى وجوب تغيير هذا التعريف . لقد قضت العالمة المذكورة سنوات عدة في براري تنجانيقاواجراشهاتدرس عادات الشمبانزي وقد وجدت بان هذا الحيوان يقوم هو الاخر بصنع كثير من الادوات التي يحتاج اليها في معيشته مثل اواني الشرب وشبكات صيد الحشرات من اوراق الاشجار . وترى الآنسة غودول بانه يفعل ذلك عن طريق المراقبة والمحاكاة . فقد رأت صغار الشمبانزي تراقب والديها ساعات طوال وتحاول تقليدها . وترى العالمة المذكورة ان هذا التصرف هو بداية المرحلة الثقيفية لدى هذه المخلوقات .

وفي خلال السنوات التي قضتها في دراسة حياة هذه المخلوقات تكشفت لها حقائق مثيرة . لقد لاحظت بان الشمبانزي من الحيوانات الآكلة للحوم بينما كان العلماء يعتبرونه نباتياً . واتضح لها كذلك ان هذه المخلوقات تعيش في ظل نظام عائلي له روابطه .

فقد لاحظت ان صغار الشمبانزي تعيش في ظلال الجماعة وانها لاتنهر من الكبار ولا توبخ ولا تعمد الصغار الى اختطاف ماليس لها ولكنها تتعلم عندما تكبر بان تطلب ماتحتاج اليه من الغذاء لا ان تستولي عليه بالقوة .

وقد لاحظت العالمة المذكورة ايضاً بان هذه المخلوقات تستخدم مناشف صنعتها من اوراق الاشجار لتنظيف ايديها مما يكون قد علق بها من اوساخ اوغير ذلك .

ولاحظت كذلك ان هذه المخلوقات مختلفة في طباعها كما هي الحال بين الناس ولكنها كجماعة تتميز باللطف والوداد .

آلة جديدة اطلق عليها اسم «الوحش» تفكر لوحدها ، وتقوم باعمال لايقوم بها غير الانسان المفكر .

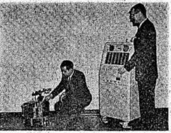
تمكن العلماء في جامعة جون هوبكنز من صنع آلة في مختبرات الجامعة ، تفكر .

والآلة المذكورة تأكل اذا ما شعرت بالجوع ، وتام اذا ما شعرت بالراحة وتنام عندما تشعر بالتعب وتصرخ مذعورة عندما تواجه خطراً .

يصف العلماء هذه الآلة بانها عبارة عن آلة اوتوماتيكية متحركة ولكن مخترعيها يطلقون عليها اسم «الوحش» لقد عمدوا الى صنع هذه الآلة الاولى من نوعها في العالم ، لتعيش في بيئة ليس فيها بشر .

ويطوف «الوحش» قاعات المختبر ومناجي الموظفين في مكاتبهم فيقرع عليهم الابواب .

وعندما تشعر الآلة (الوحش) بالجوع ، تمد ايديها لتبحث عن وسائل تعبئة بطارياتها الاثنتي



الآلة «الوحش» وجهاز الامر التلمتري

عشرة ، وتشبه الالة صندوق القبعات ولها عنق طويل يشبه عنق الزرافه تمده اثناء طوافها وكثيرا ماتصدم به الجدران في خلال بحثها عن المخرج .

وفي جهازها الالكتروني ما يمكنها من تجنب العقبات والاشياء والناس الذين تجدهم في الطريق مثل الاسلاك الكهربائية والدرج .

ويرى مخترعو هذه الآلة بانها ستمهد الطريق الى صنع آلات الكترونية لسبر غور المحيطات والمغاور والكهوف والكواكب .

وعندما يحين وقت النوم ، تتلقى امراً عن طريق جهاز تلمتري . وتحتفظ بهذا الامر ساعات عديدة قبل ان تعمد الى تنفيذه .

هل توجد حياة في المريخ ؟

توصل لفيف من العلماء الامريكيين بعد اختبارات عديدة اجروها بواسطة التحليل السبكتروسكوبي (الطيفي) على الضوء المنبعث من ذلك الكوكب السيار الاحمر ، الى ان جو المريخ مليء بالغازات السامة . فقد ثبت لهؤلاء العلماء بعد الدراسات الحديثة التي اجروها ان جو المريخ الذي يتكون بصورة رئيسية من النتروجين ، يحتوي ايضا على غاز النتروجين بيروكسيد . Nitrogen peroxide وهو غاز سام احمر اللون .

ويرى العلماء ان وجود غاز النتروجين بيروكسيد في اجواء المريخ يلقي ضوءاً على اختلاف لون بعض المناطق في المريخ من فصل لآخر ، والتي يطلق عليها العلماء المواصف الترابية وتغير لونه

الاحمر من حين لآخر . وقد تكون هذه الظواهر دليلاً على وجود أكسيد النتروجين وتأثره بالتقلبات الجوية . ويذهب العلماء الى القول بانه اذا كان هذا الغاز موجوداً في المريخ ، فلا يمكن ان يكون هنالك اي اثر للحياة على الاطلاق كما هو الحال على سطح الارض وعلى هذا الاساس يثبت بطلان النظرية القائلة بوجود الحياة على سطح المريخ فتتلاشى الاحلام التي داعبت خيالات العلماء في غزو المريخ او الاتصال بسكانه .

برنامج دراسة التغيرات الجوية العالمية بواسطة البالونات وغيرها من الوسائل العلمية الحديثة

لقد اتم العلماء الفرنسيون برنامجا لايجاد طريقة جديدة في مراقبة اجواء العالم ، باستخدام البالونات والكواكب الصناعية . ويقدرون بانه ستقام شبكة من هذا النوع تغطي اجواء العالم كلها في عام (١٩٧٠) وستكون هذه العملية اول تجربة تدفع بمنظمة الارصاد الجوية العالمية بأن تقوم بأول تجربة فوق المحيط الهادي في سنة ١٩٦٧ ، مستخدمة ٢٥٨ بالونا وقمرين اصطناعيين فرنسيين .

أما البالونات التي تحمل اجهزة ارسال واستقبال فسيكون بامكانها الوصول الى ارتفاع (٣٢٠) الف قدم . اما الاقمار الاصطناعية فستطلق اما من الصحراء الافريقية الكبرى او من غيانا الفرنسية فستقوم بقياس سرعة الرياح واتجاهها وارسال هذه وغيرها من المعلومات مثل درجة الحرارة والضغط الجوي والرطوبة الجوية الى محطات الاستقبال على سطح الارض .

وقد عرض في لندن جهاز اوتوماتيكي وهو عبارة عن محطة رصد جوية اوتوماتيكية تستخدم في الاماكن المنعزلة البعيدة . والجدير بالذكر ان المحطة المذكورة كانت تحت التجربة فترة طويلة في مكاتب الارصاد الجوية الرسمية في لندن . فيقوم الموظف الخاص بطلب رقم خاص من تلفون عادي فيتصل بالمحطة الاوتوماتيكية التي تقرأ له اوتوماتيكيا كميات المطر التي هطلت ، وسرعة الرياح واتجاهاتها ومقدار الضغط الجوي والرؤية وضوء الشمس .

ويعمل الجهاز المذكور على بطارية وبالكهرباء ويوصل بالشبكة التلفونية .

تصوير الخلية الحية

اصبح في امكان العلماء اليوم رؤية اية خلية حية بواسطة الضوء الضعيف الذي يوجد فيها . فقد تمكن الدكتور جورج رينولدز من جامعة برنستون من صنع جهاز من نوع جهاز مزيد الشدة intensifier يمكنه تكبير الضوء الضعيف الذي يوجد عادة في كل خليـة حية في طريقة اشبه ماتكون بطريقة شاشة التلفزيون في اظهار صورتها لامعة . ويقوم الجهاز المذكور بتكبير الصورة بمقدار مليون ونصف من المرات . وقد استخدم العالم المذكور جهازه هذا مع المجهر في اخذ صور بعض المخلوقات البحرية الدقيقة التي تجعل المحيط يبدو مشعاً عندما توجد باعداد كبيرة.

فكل كائن حي له من الاشعاع الضوئي الضعيف مايجعل بالامكان اخذ صورة له بجهاز تضخيم الضوء الآنف الذكر . وهكذا يصبح بالامكان دراسة الكائن الحي بدون اي ازعاج خارجي .

ويبدو ان الاشعاع الضوئي مصدره بعض البقع الخاصة الموجودة على سطح الخلية .

ويتوقع العلماء استخدام هذا الجهاز في التصوير الفلكي .

جولة الشهر

مع تيارات الفكر العالمي

بقلم فؤاد الشايب

اشتعال الفكر السياسي في آسيا وافريقية ، يمنح الفكر العالمي محاولات رائعة في استنباط ايديولوجيات ذات ثقافات سياسية واسعة — قسمنا المجتمعات الاسيوية والافريقية التي ندرسها ، بحسب ولائها الثقافي الى طائفتين : طائفة النهج الديموقراطي المكيف بالجو الاشتراكي — وطائفة النهج الاشتراكي المعزز بنظام الحزب الواحد، ومبرراته الواقعية والفلسفية.

عندما يبدأ الفكر السياسي بالاشتعال، فنلمح عن بعيد او قريب صور لهبه ، ونحس من بعيد اوقريب باشعاع دفئه ، فان ذلك يعني في حياة مجتمع من المجتمعات أن الوعي الثقافي ، غدا يطوف حول الحقائق التي يتألف منها واقع المجتمع ، لا ليتعرف اليها وجها لوجه ، فحسب . بل ليحللها ويتأمل في دقائق عناصرها ، وتركيبها ايضاً . ولا يقف عند حدود تحليلها وتشريحها ، اذ هو الآن في الموقف المناسب حيث يتاح له أن يعمل في تحويلها وتبديلها ايضاً . ولولا ان ذلك الوعي منوط الى هذه القدرة — القدرة على التبديل — لما كان سوى وعي ابتر ، ان

هو استوفى حدة الشعور فانما تعوزه حدة الرؤية، وان اسعفته العين، لا تسعفه معها اليد. والفكر، في حالة ما من الرشد الموصوف، ليس تأملا فحسب بل حركة، وليس ابتعاداً عن الموضوع للاحاطة به كما كان يقال، بل اقتراباً منه وعناقاً له واندماجاً فيه. وان ما سميناه بالوعي الثقافي ليس مجرد معرفة بصيرة بالواقع الاجتماعي بل هو اوسع من ذلك وأجل إنه قدرة على تبديل هذا الواقع حيثما وجب التبديل. ولولا أن المعرفة تمييز وتبديل معاً، لظل كل شيء راكداً على سطح هذا الكوكب ركوداً ابديا.

نحن مع المجتمعات الآسيوية والافريقية في المنتصف الثاني من القرن العشرين، وقد تفجرت استقلالاتها متتابعة في اقل من ربع قرن، كأن جبال براكينها مرتبط بعضها الى بعض، بفتيل سري موقوت الاشتعال. كانت لاشيء منذ عشرين عاماً، فاذ بها اليوم تملأ رحاب الامم المتحدة، ولا تلبث اصوات دولها أن تبلغ اكثرية اصوات دول الأرض الماثلة في المنظمة العالمية. وان العالم القديم لينظر الى هذه الظاهرة العجيبة بشيء من الدهشة، وبكثير من الهلع، لأنه وقد ألف التسلط والتحكم بمليار او يزيد من سكان الارض، اصبح مدعواً الى التخلي المطلق عن اساليبه وعقليته نفسها من وراء تلك الأساليب بل هو مسوق الى النظر فيما هو أبهظ عبئاً على عاتقه واشد ايلاماً لكبريائه، وهو المشاركة في تقرير مصير المستقبل الانساني ليس في ضوء التوزيع الجديد للثروة العالمية فقط، بل في ضوء التقييم الجديد للقيم والمبادىء ومناهج السلوك أيضاً.

ليست صورة العالم الرأسمالي المنظورة في القرن التاسع عشر هي التي تبدلت وحدها، اليوم. بل قد تبدلت أيضاً صورة العالم الاشتراكي، كما قد نظر اليها يومئذ. فاذا كان عدم الاستمرار من طبيعة ماندعوه بالحقائق، واذا كانت العين البشرية في كل ظرف زماني ومكاني هي الميزان والقياس اللذين تخضع لهما تلك الحقائق. فان حقائق العصر، ونحن نسير في الربع الثالث من القرن العشرين، ليست ماتراه عين الدول الرأسمالية وحدها او

عين الدول الاشتراكية وحدها ، بل هي بالاضافة ،ماتراه عين هذا العالم القديم الجديد ، المسمى بالعالم الثالث . وسواء أحسن ظن العلم الاشتراكي أو العلم الرأسمالي في قوة الرؤية والتمييز لدى شعوب العالم الثالث وقياداته ام لم يحسن ، يبقى أن الحقيقة ليست ما كان يلقى عليها من اضواء من جانبين متناظرين فحسب ، بل هي أيضاً ، ومعها، مايلقى عليها اليوم من جانب لا تفوته مهارة الوسطية في النظر الى واقع العصر . وهي وسطية فرضها عدل النظر ، وفرضها قبل ذلك حرص عقلي ووجداني ، على ألا يكون الناظر طرفاً في زاوية أحد المتناظرين .

مثال ذلك أن اوروبة في نظر الانسان الاسيوي الافريقي وحدة لا يقسمها أنها جغرافياً أو سياسياً مقسمة الى شرقية وغربية . كذلك فليس يكترث هذا الانسان لكون الصراع بين معسكرين شرقي وغربي ، أو رأسمالي واشتراكي ، إلا بمقدار مايحدد هذا الصراع ، فروقاً مميزة بين دول غنية ودول فقيرة . دول متقدمة ودول متأخرة . والا بمقدار مايبرز هذا الصراع أن انتاج الثروة لتعميم الرخاء ، وليس لتعزيز السلطان ، واسترقاق الجماهير في معسكرات . كذلك فان المادية الاشتراكية ليست نقضاً للمادية الرأسمالية وشجباً لها الا بقدر ماتحفظه في صفحة ماديتها الاقتصادية من كرامة للانسان بالذات . فالانسان الآسيوي الافريقي ، المثقف بماركس ، يرى في (فائض القيمة) — مثلا — كما تحللها الماركسية فتصورها سرقة لعمل العامل ، لتكون رأس المال ، وأن السرقة من أجل هذا التكوين حلقة مفرغة سيظل العامل يدور في عبوديتها الى الأبد ما لم يكسر طوق الحلقة كسراً — نقول ان المثقف الماركسي يرى في هذه الصورة ، مجهوداً ثورياً لتحرير الانسان ، وليس مجرد اكتشاف قوانين اقتصادية مادية ، ستحكم الانسانية الى الابد ، حكماً محتوماً مقدوراً .

لسنا نلخص افكار من سندرس افكارهم عما قريب .. بل هو مدخل لا بد منه ، لكي نفهم ملامح الوعي الثقافي في المجتمعات الآسيوية والافريقية ، وهو الوعي الماثل خاصة في سطور النظرية

السياسية، ومجموعة الافكار والمبادىء التي تقرر مناهج الحكم، وسلوكية العمل السياسي او تبررها. ومعنى ذلك اننا هنا مع النخبة من المثقفين في القارتين الذين ليس في ماضيهم بعض الشعر، والادب والمقالة الاجتماعية فحسب، بل هم القادة الذين وضعوا النظرية، ونظموا الفكر، وهندسوا اركان العقيدة، وهم في صميم المعركة الضارية مع المستعمر. حتى اذا انجلى لهم صبح الاستقلال، وكانوا على رأس القيادة النضالية، كان لا بد ان يتابعوا المعركة السياسية والفكرية، تخطيطاً وتنفيذاً مع الاجنبي دائماً، ومع انفسهم الآن، بالاضافة اليه.

ان بعضهم - من ماوتسه تونغ الى نهرو - قد ساهم في تحقيق مفاهيم وافكار وعقائد شاملة العالمية، حتى لتدخل في عداد الافكار الحاسمة في التاريخ، تقيم وتقعد وتهدم وتبني. وبعضهم الآخر احدث عهداً - من نكروما، وسيكوتوره الى يونو، ونيريره، وسنغور - قد خرج من حوضه القاروي، خلال الاعوام الاخيرة، الى المحيط العالمي، وغدا مرجعاً في دراسة الدارسين، وبحث الباحثين.

ولعل اعجب مايعجب في هؤلاء الرجال من اهل النخبة الفكرية والقيادة النضالية، انهم قد حفروا لانفسهم ولبلادهم خطوط سير، تؤكد الاستقلال الثقافي في اساس الاستقلال السياسي والاقتصادي وقد طالما سمعنا صيحات مندوبيهم في مؤتمرات التضامن الآسيوي الافريقي، وفي مؤتمرات اوروبية - آسيوية افريقية مشتركة، تطالب بنزع اللكنة الغربية او الطابع الغربي عن الثقافة المحلية Désocidentalisation de la culture ولم يكن ذلك ليعني، اغلاق الباب دون التيارات الفكرية العالمية، والرجوع الى التراث المحلي للرسوب حوله والركود عليه، بل كانت الدعوة قوية غير متلكئة، الى تناول ثقافات الامم وتجاربها مع ضرورة هضمها وتمثلها (١) حتى تصبح مع التراث

(١) باصطلاح جديد للرئيس سنغور رئيس السنغال وهو يتحدث عن تراث افريقية الغربية كتراث زنجي - بربري وعربي - Negro - Berbére - Arabe يقول ان الدخيل من الثقافات على الثقافة الزنجية يجب ان (نزنجه) وبالانكليزية Negrofy

المحلي ، لحماً ودماً وقوة ،للحياة والحركة، لا مجرد اعلاق الزينة ، او اغلال ترسف بها الاقدام التي لا تطيقها .

ولكي يسهل علينا تناول بعض من تلك الأفكار التي تحكم المجتمعات الآسيوية الأفريقية يمكن ان نردها الى مصدرين رئيسيين : اولها شعور هذه المجتمعات انها الى عهد قريب كانت مستعمرات او مناطق نفوذ استعماري — بأي شكل من اشكاله — وان همها الأوحد ، في المرحلة الحاضرة ، أن تقطع صلتها بماضيها الرجيم ، وأن تمارس استقلالاً فعلياً مكتملاً غير منقوص سياسياً واقتصادياً وثقافياً .

وثانيها شعور هذه المجتمعات بأنها كيانات بشرية حية ، ذات تراث ثقافي وتقاليد شعبية ومقدسات لم يستطع الاستعمار ان يقضي عليها،وانها بينا يجب ان تعود الى هذا التراث لتستحم فيه وتتجمل به وتسترشد بوحيه ، لا تنسى انها بالأولوية انما يجب ان تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ، مهما يفرض عليها هذا التحول الحاد من مغامرة وجرأة ومقارعة خطر ؛ ومن تعرض — على الأخص — لرياح التبدل ، وتحمل لما تحدثه نفسياً وعضوياً من ازمات ومضاعفات .

ولعل ثمة مصدراً ثالثاً ، يشغل مساحته على حدود المصدرين الاولين ويمتح من نبعها المشترك ، وهو طموح هذه الدول الجديدة الى المساواة مع دول الارض قاطبة ، والانطلاق من تحقيق المساواة الى المشاركة الفعلية في بناء العالم الجديد ، الذي يبني حضارته على المشاركة لا على الفرض . ومن البين ان هذه الارادة لا تخلو من تحد ترسله هذه المجتمعات النامية بوجه الدول الكبرى ، التي لا تزال تطمع أو تتمنى ان تفرض على العالم ثقافاتها وطرز حضاراتها . كما لا يخلو معنى الطموح الى المساواة ، من تصغير للدول ذات الحول والطول ، التي قد تظن أن المساواة هذه ليست سوى اخلال بناموس كان سائداً تعامل الدول خلال حقب ماضية . وقد تذهب الى ابعد ، فتتوهم انه ناموس يقيم صلب الحضارة وتوازن العالم ، وسلامه ، بالرغم من انه ليس سوى اصطلاح مفروض كان وراء الكثير من الثورات والحروب

التي اضرمت للاطاحة بتوازن الدول الكبرى ، وسلمها القائم على التسلط والظلم والانحصار .

وقد كان من المسلم به نظريا ، اثر الرضوخ للحركات الاستقلالية ، والاذعان لأمرها الواقع ، أن المساواة بين الدولة الكبرى ، والدولة الناشئة ، قد تمت مراسمها بمجرد أن تحول الحاكم العام في المستعمرة السابقة الى سفير ، ومقر الحاكمية الى سفارة . ثم توالت تلك العواصف والزمجرات التي ترافق عمليات التمزق ، والتي لم يستطع الدهاء الدبلوماسي العريق كبتها فدلت احداثها الضخمة في الكونغو ، وحول قنال السويس ، وأحداثها الأخرى المتفرقة ، في غانا وغينيا وفي الهند واندونوسيا ، مثلا ، على ان الدول صاحبة الاستعمار ليست تفهم المساواة الا بالمراسم الدبلوماسية ، وأما المشاركة التي تنهض لها الشعوب الجديدة لتقرير المصير العالمي ، فان المستعمر القديم يريدها مشاركة في ادارة الدولة الجديدة نفسها — المستعمرة سابقاً . وقد رمى أكثر من زعيم افريقي وآسيوي ، قفاز التحدي بوجه الدول الاستعمارية منفردة ومجتمعة واستقر في الذهن الآسيوي الأفريقي أن الطموح الى المساواة والمشاركة ، ومعها وقبلها تحقيق الاستقلال الثقافي في قاعدة الاستقلال السياسي والاقتصادي ، لن يتحقق من امرها شيء الا بالتنازع ، واستمرار النزاع النضالي ، مع حفنة محصورة العدد من دول الاستعمار القديم ، أصبح امرها مشهوراً .

إن رد التيارات الرئيسية للفكر السياسي الآسيوي الأفريقي ، الى هذه المنابع الرئيسية الثلاثة ، سيساعدنا في توضيح المذاهب الفكرية السياسية ثم تصنيفها على تنوع مفاهيمها وتعددها ، وهي اليوم تجارب شتى متباينة بين مجتمع وآخر ، مهما يكن من شأن صلات الجوار والولاء والعرق التي تشد بعضها الى بعض .

التصنيف تبعاً للولاء السياسي

وطالما أننا نبحث اليوم في اتجاهات فكرية ، وثقافات سياسية ، فانه يجوز لنا أن نصنف هذه المجتمعات في طائفتين اثنتين ، تبعاً لولائها السياسي الفكري الغالب ، والأكثر وضوحاً .

الطائفة الاولى ــ وهي مجموعة من الدول تسير على النهج الديموقراطي الغربي إجمالا ، بسلوكيات مختلفة يحددهـا ويقررها ظرف تاريخي وتكوين بشري . بالاضافة الى مايفرضه الولاء الثقافي الخاص الذي ينتمي اليه القائد او مجموع القيادة .

ويجب أن نؤكد هنا رجحان العامل الشخصي القيادي في تكوين الاتجـاه الفكري السياسي ، ان على مستوى النخبة او على مستوى الجمهور ، بالرغم من انفتاح النظام الديموقراطي البرلماني ، لتسرب شخصيات سياسية متعددة الى مراكز القيـادة . فالرئيس نهرو مثلا ، لم ينقذ الهند من روح التبعية للاستعمار ومن شرور العصبيات القبلية والأمارات فحسب ، بل قد انقذهـا قبل ذلك ، من التردي في السلبية الرجعية التي حسب المهاتما غاندي ذات يوم ، أنهـا سلاح ماض لمقاومة الاحتلال البريطاني . وسيقول لنا التاريخ أن غاندي بكل ما اتفق له من جـلال الزعامة وقدسيتها ، لم يكن سوى دليل الى النهر المقدس الذي ظهر على ضفتيـه الرجل المنقذ ، وسوى مبشر بقدوم القائد الذي اعلن استقلال الهنـد ، وقصف جناحي الاستعمار البريطاني .

ولم يكن دور ايوب خان ، بعـد عام ١٩٥٨ بالدور الهـين في تقرير مصير الباكستان . فهو الذي انقـذ بلاده من البرلمانيـة الحزبية ، على الطريقـة الانـكليزية ، عندما استشرى الفساد ، ولم تصب الباكستان من الديموقراطيـة سوى مساوئها ومظاهر ممارستها . وأمـا قائد افريقي مثقف مثل سنغور ، رئيس جمهورية السنغال ، فالديموقراطية الغربية ان تنجح كثيراً بكون هـذا العـالم الافريقي من رجال الولاء لها ولثقافتهـا . ومن آرائه التي كان يحاول فرضهـا على مجموعة الافريقيين في السنغال ومالي (*) انشاء اتحـاد افريقي ، يوسعه الى فرنسا بالذات ، بقصد انشاء كومونولث اوروبي

(*) أنشأت جمهوريتا السنغال ومالي ـ السودان الفرنسي سابقاً ـ اتحاداً سياسيا ، عام ١٩٥٩ ، وانفرط عام ١٩٦٠ .

افريقي على الطراز الانكليزي . ويزعم — متفائلا — ان المساواة ستكون شعار الاعضاء كبيرهم وصغيرهم في هذا الكومونوك .

يجمع هؤلاء الثلاثة انهم على ولاء ثقافي بيّن للنهج الديموقراطي الغربي ، مع حرص كل منهم ، على تكوين شخصية امته غير مثاومة ولا مجرّحة بأي قلامــــة شك من جانب ولائها الثقافي السياسي للغرب . فالرئيس نهرو يعتقد أن الشر البريطاني في جمهورية الهند المستقلة هو شر اقتصادي — لا اكثر — ويجب أن يقلع من جذوره العميقة . وهو انما يفعل ذلك ويخطط له بدأب وصبر ، — كما سبق ان رأينـا في جولة سابقة — بينما تستمر جمهوريته عضواً في الكومونوك البريطاني . فلا يضيره هذا الاستمرار — كما يبدو — ولا يأبه لقالة الناس فيه : لماذا . لأن الكومونوك من الضعف بحيث لا يؤثر فتيلا في تقرير مصير الهند . وهو ، هذا الكومونوك ليس سوى مجمع للناس تقليدي ، يلتقي فيه الهندي بمشاكل اوروبة والعالم ، ويضمن فيه على الاكثر ، عدم استغابة الهند ، بحضور الباكستان ، في قضية كشمير — مثلا —

وأظن أن الهند لا يمكن ان تمنح بريطانيا ابة فائدة من وجودها في الكومونوك ، الا بقدر مامنحت القاضي الانكليزي ، حتى الآن ، تشكيلة الشعر الأبيض المسترسل على كتفيه فوق منبر المحكمة !!

كذلك لا يضير ولاء ايوب خان للديموقراطيات الغربية أنه وجد بديلاعن سلوكية الاقتراع العام لانتخاب نواب لا يعرفهم الناخبون ولا يعرفون كيف انتخبوهم ولماذا . وسنرى اي نظام بديل اوجده القائد الباكستاني .

أما سنغور فقد أخذ من ماركس ماطاب له — وهو يعتبر من كبار دارسيه في اوروبة وافريقية — ونقد ماركس فيما لم يأخذ عنه ، ليبني مما قبل ورفض نظرية اشتراكية افريقية ، تمتح من آبار اوروبيـــة على كل حال ، ومن فرنسا الاشتراكية الثورية ، التي مثلها (برودون) و (فورييه) بوجه خاص :

الطائفة الثانية : وهي مجموعة دول آسيوية وافريقية أخذت على الغالب بنظام

الحزب الواحد، وطفقت تبرر هذا النظام بالرجوع مرة الى الاشتراكية الماركسية ومرة الى تقاليدها المحلية، أو ظروفها التاريخية. ويمكننا حصر هذه المبررات في نواح ثلاث :

الاولى ظرفية ، وهي تستند على أن مرحلة التخلف التي تمر بها الدولة المستقلة، حديثاً، تفرض فرضاً عدم تشتيت المجهود السياسي، وعرقلة جهاز الحكم، وهدر الوقت المضاف مركباً يوماً بعد يوم على تركة الفقر والتخلف. فالوقت المكسوب، هو رأس مال ايضاً .

وقد تعيد هذه الفئة نظراً في شأن ديموقراطيتها عندما يتوفر لها الاستقرار والسلامة الوطنية ومستوى معين من التربية .

والثانية ثقافية تراثية ، تقول أن الحكم بالمعارضة على الطراز الغربي ليس في تقاليد هذه الأقوام، وليس من الضروري أن يكون نظاماً عالميا شاملاً، ينتفع به جميع الناس، وتصان به جميع القيم. ففي تقاليد بعض المجتمعات الأفريقية والآسيوية، ما يشير الى قيام حكم الشورى، على اساس (المشاورة والموافقة) (*) اي المناقشة حتى الاجماع وهي اقوى من التنابذ حتى التصويت. لذلك ينفي وجود المعارضة، على أساس أن نظام الشورى قد أمن بذل الرأي، والحصول به على القناعة العامة، وهي نظرية يقول بها بعض مثقفي هذه المجتمعات كما سنرى .

والثالثة ايدلوجية تنظيمية ـ وهي تتكىء على النظرة الاشتراكية في رفض البرلمانية الغربية، على انها عملية خداع يمثلها على المسرح الشعبي احزاب يطمح افرادها الى الحكم طموحاً شخصياً لاصلة له بمصالح الجماهير الحقيقية. ومن جهة ثانية فان المجتمعات المتخلفة، لا يمكن ان تنهض الا بالتخطيط الاشتراكي. والتخطيط عملية تحشيد وتجميع وتوحيد

(*) وردت المشاورة والموافقة بالحروف الانكليزية على لسان بعض القادة هكذا : - Musjawara - Muafakat وترجمتها الى الانكليزية : Consultation and agreement قال بها كل من سوكارنو ـ اندونسيا ـ وجوليوس نيريره ـ تنغانيكا ـ وشن بي ـ الصين الشعبية ـ وسواهم من الافريقيين الحاملين ثقافة التراث العربي الاسلامي

وراء الخطة، لاسيما اذا كان النهوض بالعبء من الحضيض عسيرا وكان ثمة من يتربص بالحكم الوطني، لاذلاله، والعودة به الى احضان التخلف والاستعمار. وقد اتفق ان مارست هذه المجتمعات، تجربة النظام البرلماني الى جانب السلطة الاستعمارية فكانت حصيلة التجربة تدعيما لاستمرار الاستعمار ومن عمل في بيدره من مرتزقة الاقطاع والاستغلال الاقتصادي. وكثيراً ما استطاعت السلطة الاستعمارية أن تفصل الشعب عن البرلمان، لتتخذ من هذا الاخير ستاراً لشرعية البقاء الاجنبي، أو تمويهاً له — كما جرى في بعض دول الشرق الاوسط — بنصوص من المعاهدات والاتفاقيات، الجائرة، المفروضة بالواقع فرضاً والمزورة بمراسم التساوي والتكافؤ بين الطرفين المتعاقدين. من اجل هذا، وبالاضافة الى النظرة الاشتراكية، فان البرلمانية موصومة بالسمعة السيئة في تاريخ كثير من هذه الشعوب، على أنها أحصنة طروادية من جهة، وتجارب فاخرة في ممارسة حرية فاشلة، من جهة اخرى.

ومن اركان هذه الطائفة: سوكارنو، وسيكوتوره، ونكروما، ونيريره، وماديرا كيتا، وسواهم ممن يؤلفون بالواقع أكثرية ساحقة، في مجموعة الدول الأسيوية والأفريقية المستقلة.

الديموقراطية المكيفة

نعود الى نماذج الطائفة الأولى، ذات النهج الديموقراطي الغربي المكيف بقدر قليل او كثير، من الاشتراكية الماركسية لنحلل بعضها او أهمها، ونراقب معاً تجربة جديدة فريدة في كيماوية التركيب الثقافي على الطراز الأسيوي والأفريقي.

نبدأ بواحد منهم ليس له شهرة نهرو، اوسنغور ولكنه، كما يبدو لنا، لا يقل عنهما براعة في اختيار الأفكار ومزجها مزجاً تركيبياً دقيق التناسب في عجينة من مادة التراث والاعراف المحلية. وهو يونو U - NU الزعيم البورمي، الذي نشأ وترعرع في رانغون، وحارب الاستعمار الانكليزي، ثم الفاشستية اليابانية، وقاد بورما نحو الاستقلال عام ١٩٤٧، ولايزال زعيماً مرموق المكانة وقد تنازل عام ١٩٦٢ برئاسة الدولة الى صديقه وزميله الجنرال ـ نه وين ـ وقد اشتهر يونو بأنه بوذي ـ على ماركسية. فلنحاول جمع خطوط صورة عن ثقافته وفلسفته السياسية.

في مدى التنظيم الاقتصادي والاجتماعي

يبدأ يونو من الزاوية الاشتراكية في النظر الى رأس المال ، على ان الربح وحده هدفه، وعلى ان الربح يرافقه الاستغلال، والاستغلال يرافقه أبداً تقسيم الناس الى مستغلين ومستغلين فيقود الى الفقر في ظل الثروة ، والى الحرمان في ظل بسطة العيش ووفرة الرزق ، ثم الى سوء الحال وانحطاط الاخلاق .

هذا ضمن الجدران الأربعة للمجتمع الموبوء بحمى التسابق الى الربح، والانتاج في سبيل الربح .أما خارج هذه الجدران فان شهوة الربح تقود الى التفتيش عن المواد الاولية والى الأسواق الخارجية لتصريف السلع المصنوعة من تلك المواد الخام . ثم الى التنافس على هذه الأسواق بين الدول الاستعمارية ، ثم الحرب فيما بينها وهذا هو التحليل الماركسي اللينيني للاستعمار وحروبه .

فاذا كان الربح وراء كل هذا الشقاء والدمار وجب ان يستعاض عن الانتاج من اجل الربح ، بالانتاج من اجل حاجة الشعب . ولكي تتبدل سياسة الانتاج او قاعدته ، لا بد من تبديل أناسه وهم الرأسماليون ، واحلال العمال محلهم ، على أن الرأسماليين يعرفون ماذا يضمر لهم ، فهم يقاومون ، ويبدو أنه لا بد من مقابلة المقاومة بالثورة. على ان بعض الاشتراكيين يجدون بديلا عن الثورة ، في الوسائل الديموقراطية البرلمانية المألوفة ، وعلى هذا فالاشتراكيون فريقان في تنفيذ استراتيجية التطويق الشعبي لمقاومة رأس المـــال . والزعيم البورمي يختار الاستراتيجية الثانية. وهنا ينفصل يونو عن الاشتراكية الماركسية ليجمع بينهـــا وبين اجزاء الديموقراطية بالاقتراع والتمثيل .

ان انفصال يونو عن الماركسيـة في هذه النقطة الدقيقة ليس انفصالا استراتيجياً بالواقع ، بل هو عقائدي جذري حقاً . اذ ان بعض المجتهدين ، كما سبق أن شرحنا، في جولات سابقة ، يقتي بجواز الطريق البرلمانية في معركة العمل مع رأس المال ، كما هي الحال مع الحزب الشيوعي الايطالي على ان هذا الاجتهاد لايخرج النضـال البرولتاري عن اهدافه البعيدة ، بينما قد اختار يونو طريقاً جديدة للاستمرار في خط منكسر مع زاوية حادة . يعني انه يترك للبرلمانية الديموقراطية اطلاقاً عملية تبديل الانتاج المربح ، بالانتاج للشعب . ولماذا ؟! لأنه يخشى بالثورة على عزيزين اثيرين لديه كبوذي وكمثقف ديموقراطي هما : حرمة القوانين ، وحرية المواطنين . فاذا فقدا ، فلا شيء يبقى عزيزاً في دولة

الاشتراكية . ان هذه الدولة ، لا تفرض فرضاً على الناس من فوق . كذلك وهي مقرر ان تبنى بالاختيار عن طريق الاقتراع دائماً ، يجب أن لا تهمل في مادة بنائها عناصر التقاليد ، والثقافة والدين ، لكي يقال أن الدولة الاشتراكية هي لجميع البورميين وليست لبعض الأفراد ، او لفئة منهم .

وبهذا يعلن يونو أنه يمشي في سبل شتى ودليله ماركس ، دليل بين الادلة ولكنه ليس بماركسي . انما الماركسي القح هو من أخذ بالأقانيم الثلاثة للاشتراكية الماركسية بلا تفريق وهي المادية الجدلية ، والمادية التاريخية ، والحتمية الاقتصادية . ومن أخذ بجزء منها دون آخر فهو ليس بماركسي وان كان يستطيب مرافقة ماركس والاهتداء به .

كذلك فان الماركسي القح ، لا يقبل بدين سوى الماركسية ، لانها دينه الاوحد . ومن كان يعرف دينه حق المعرفة ، واتيح له ان يدرس الماركسية فيعرفها كذلك ، فلا غنى له ان يختار . فاذا أخذ بالماركسية ، فان ذلك يعني انه ترك دينه الأصلي ، ولا منطق يجمع بين دينين بل لا سبيل الى ذلك ، لدى من يحترم نفسه وعلمه .

وينطلق يونو الى تحديد اركان الدولة الديموقراطية الاشتراكية من منطق غربي مشهور بأن (السلطة تفسد ، والسلطة المطلقة تفسد اطلاقاً) والاستيلاء على الحكم بالقوة ، حلقة مفرغة ، ستظل تدور على الدولة حتى تنتهي بها الى الخراب لذلك فان اركان الدولة الديموقراطية هي خمسة : حرية الكلام ، وحرية التعبير ، وحرية التنظيم ، واستقلال القضاء ، وحق الشعب في اختيار الحكومة التي يفضلها ، بحسب القانون .

على ان هذه الاركان الخمسة في نظام حكم ديموقراطي لا يمكن ان تخدم اهدافها اذا سمحت باستغلال العمال ، واباحة مبدأ الانتاج للربح . انما سيئة الاستغلال ام السيئات ، أياً كان ممارسها ، الدولة ، أم الافراد . وقد تبلغ الاساءة ذروتها في ظل رأسمالية الدولة ، حيث يسود المبدأ الهيغلي الذي نادى به الفيلسوف الالماني بأن وجود الفرد انما يبرره انه من اجل الدولة وحدها . أما كيف تتحقق القاعدة الاقتصادية الاشتراكية في حياة المجتمع كما وصفها يونو — ضد الانتاج للربح — بلا عنف ولا ثورة ، وبالقانون الذي لا يبدله او يعدله سوى واضعه وهو الشعب ، بالاساليب الانتخابية المعهودة ، فيبدو أن الاخلاقية

الوذية هنا ، تريد ان تكون الاخلاق حكماً وحاكماً . وليس من المفروض دائماً يسر القاعدة الاخلاقية فلنتبعها على عسر. ان من قواعد الديموقراطية والاخلاق الا نغالي في النظر الى آرائنا ، والى انفسنا فالغرور مرض ، ومرض شديد العدوى ايضا فاذا اصيب به فرد ، فظن في نفسه انه (الأفعل) ، كالافضل ، والاعدل ، والاقدر .. الخ . لايلبث ان ينتقل غروره الى زميله ويصبح المرض وباء جارفا عندما ينظر كل فرد كثيراً الى فضائله وقليلا الى مساوئه . وبينا يحاسب الآخرين على اخطائهم لا ينظر قط الى اخطائه.

ويستمر يونو في طرح سلسلة من المبادىء الاخلاقية ، المسلم بها في مجتمع بوذي ، هادىء ، شعاره الصدق والامانة ، والتواضع وعدم العنف . . . الخ حتى يرسو اخيرا ، شأنه شأن كثيرين ممن سبقوه من افلاطون الى الفارابي الى انسانيي العصر الحديث ، على المثالية الاخلاقية ، خشبة للنجاة ، فوق خضم هائج مضطرب . لان يونو يعترف انه ليس من اليسير احداث نظام ، يكفل تحقيق مبدئه الاقتصادي الماركسي ، مادام الطمع شهوة اصيلة في طبع الانسان . وهذا ما يجب ان نتغلب عليه ونكبح جماحه . وهو يرفض ان تكون دكتاتورية البروليتاريا ، سبيلا الى وضع العامل ، موضع السلطة القادرة المطلقة لتحقيق الانتاج في سبيل الشعب . لان الدكتاتورية فاسدة ، ومفسدة حيثما وضعت في يد ابناء البشر.

الهند ـ نهرو

لاشك ان يونو البورمي من مدرسة نهرو ، روحياً وثقافياً ، مع الفارق بان عقل نهرو لم يقف قط ساكنا امام عقبة او لغز مجهول ، فانحنى واستسلم . ان نهرو يؤمن بالعلم . والعلم يستطيع ان يلبي حوافز العقل الى فهم الكثير من الاسرار والاعماق المجهولة .

ان فهم الحياة من الزاوية الاخلاقية ـ يقول نهرو ـ يعني ، بالرغم من انه يصعب علي أن ابرر ذلك بالمنطق دائماً . ويدعو نهرو الى التأمل في الكون ، بغية الوصول الى جواب في معضلته . ولكن بعض الناس ، يتصهم التأمل حتى الذهول والخروج عن حوض المشاكل الفردية والاجتماعية التي يعانيها الانسان المعاصر . وعندما ييئسهم البحث ، ينصرفون عن العمل الى الخور والركود ، أو قد ينشدون العزاء في بعض مقررات مذهبية . فالأدواء الاجتماعية ، ومعظمها قابل للمعالجة والشفاء ، ينسبها اليائسون

الى الخطيئة الأزلية ، او الى الطبيعة البشرية التي لا تتحول ، او الى بنية اجتماعية ما ، ليهربوا من التفكير العقلاني والعلمي ، الى كهوف التشاؤم ، والخرافيات . وان يكن العلم — كما يقول نهرو — غير قادر حقاً على مجابهة كل سؤال ، وحل كل معضلة ، وشفاء كل شك ، لأن ثمة عدداً لا يحصى من العوامل والعلاقات التي تؤثر في الاحداث وتحددها بدرجات متفاوتة ، لا يمكن الالمام بها كلها ، فمن الميسور بعد ، أن نحيط بالقوى الفاعلة الاساسية ، عن طريق ملاحظة الحقيقة المادية الخارجية ، ثم نمضي بالممارسة والمعالجة ، عبر التجربة والخطأ ، في طريق متوسعة باستمرار من المعرفة والحقيقة » .

وهكذا فان الفرق بين العقلية المتطيرة المنكمشة عن المغامرة ، والعقلية المتفائلة المفتوحة لتطورات العصر ، كالفرق تماماً بين عقلية نهرو وغاندي . ان هذا الاخير قد وصف الآلة الحديثة كمصدر شر للهند واوروبة وبريطانيا . فالآلة في نظر المهاتما هي رمز المدنية الحديثة حقاً ، ولكنها لا تمثل سوى جريمة كبرى بحد اصطلاحه . والهند قد تثري مع اللاأخلاق — كما يقول — ولكنها لن تقوى على استعادة حريتها المسلوبة . ولكن نهرو بدلاً من ان ينظر الى الآلة كمصدر شر واجرام ، فقد نظر الى واقع بلاده قبل ان ينظر الى القوى الخارجية من استعمار وآلة ... فوجد ان التخلف وحده هو مصدر الجريمة ، وأن الهند لا تستطيع ان تنهض الا بما نهض به الغرب العامل المنتج ، وهو العلم والتكنيك العلمي . فالآلة ، كالشيطان اللعين ، لم تكن يومئذ ، سوى التسمية التي يلعن بها اليائسون المجهول ، ثم يبركون في اليأس والندب مع صرير الاسنان .

أما وأن التخلف ، هو مصدر الجريمة ، فقد كان لا بد من تحديد مصدره ومنبعه ، ولم يكن عقل نهرو ليتردد في الجزم بأن الاستعمار هو مصدر التخلف . والاستعمار هو الذي حرم الهند من نعم العلم الحديث ، والآلة في مقدمتها نعمة كبرى ، لتبقى الهند بلداً تقدم المواد الخام لمانشستر ، ويشتري اهلها المواد المصنوعة في مانشستر . وليس الاستعمار هو مانح الآلة الشيطانية ، كما قد خيل لغاندي ، بل هو لو يستطيع لحجبها لنفسه عن العالم الى الأبد . وكان على نهرو ذات يوم ، ان يكافح الاستعمار والتخلف معاً . فقرر حزب المؤتمر ، حتى في حياة غاندي ، البدء بتصنيع ما يمكن تصنيعه في الهند ، مع عدم اللين في مجابهة الاستعمار عدو الصناعة الهندية الحديثة .. ، العدو الاقتصادي في المقام الاول . بل كان على نهرو أن يقاوم كثيراً روح اللعنة التي نشرها

غاندي ضد الآلة ، وكاد أن يجعل من المغزل وحليب المعزة ، عبادة جديدة (*).

ان نهرو كسواه من كبار مثقفي العالم الآسيوي الأفريقي ، حاول منذ كتب مؤلفه المشهور (اكتشاف الهند) the Discovery of india عام ١٩٤٦ أن يصب في كأس هندية تركيبة كيماوية من مزيج الماركسية والليبرالية الغربية . انه يعلن في هذا الكتاب فرديته وحماسه للحرية الشخصية . ولكنه لايلبث أن ينظر الى تنظيم الحرية في مستويات صغيرة ، لكي يصونها في حوضها الاكبر . فالبناء الاجتماعي كما يقول ، اصبح على درجة من التعقيد لاغنى له معه عن تحديد الحريات وتوجيهها ، كسبيل للحفاظ عليها . وبالطبع فان تحديد الحرية او تنظيمها ، لا يعني الغاءها.

على ان مايقبض على مجمل تفكير نهرو واهتمامه ، هو أن الديموقراطية الغربية ، على ماعرفها الغرب في القرن التاسع عشر ليست صالحة بعد عملة للتداول في العالم الحديث ، غرباً وشرقاً ، فكيف في بلد شديد التخلف كالهند ، يعاني معضلات ، يتفرد بها ، من معضلات الأقليات ، والأمارات ، والمصالح الدينية المكرسة المفروضة ، الى معضلات الملاكين الكبار ، والتجذر الصناعي البريطاني ، هالك الزرع والضرع ، ان هذه المعضلات كلها قوى اجتماعية ترفض التحول الاجتماعي الذي تنشده الهند ، وتأمل أن يكون هذا التحول مضمون الديموقراطية نفسها. فالديموقراطية اذن ، مسؤولة عن تبنيها التحول الاجتماعي والسير به لا تعطيله ، والا اعتبرت هي ايضاً قوة اجتماعية معادية للتطور والتقدم والتحول الاجتماعي .

بل ان المعضلة الهندية بمجموعها ، كما ينظر اليها نهرو من تحليقه عالية ، ليست معضلة تتفرد بها الهند ، مهما تنوعت وتفرعت ، ويقول أن اوروبة تعاني هذا النزاع المرير بين توازن اجتماعي قديم فرضته قوى قديمة سائدة ، وبين الحاجة الى توازن جديد ، يليق بالقوى الجديدة والى أن يقوم التوازن الجديد ، لا بد من التوتر والاضطراب والنزاع . ومن هنا ، ترانا مع أحدى القضايا الرئيسية في عصرنا الحاضر وهي : كيف نجمع الديموقراطية مع الاشتراكية ؟! كيف نبقي على الحرية الفردية ، والمبادهة ، الى جانب الرقابة المركزية والتخطيط الاجتماعي الذي

(*) لاننسى أن التخطيط الهندي الحديث لم يهمل ابداً الصناعات الحرفية اليدوية المنتشرة في جميع ارجاء الهند . بل قد شجعها التخطيط الى حد بعيد ، لتكون الى جانب الآلة الحديثة عوناً في امتصاص اليد العاملة الهندية وفي مضاعفة الانتاج القومي .

يشمل حياة الشعب الاقتصادية ، على الصعيد الوطني ، وعلى الصعيد الدولي ؟! » .

طرح الرئيس نهرو هذا السؤال منذ عام ١٩٤٦ حيث لم تكن بلاده مستقلة او منفصلة عن الباكستان في وضعها الحالي. ولاشك في ان الهند الجديدة قد حققت الكثير من الاشتراكية ، ضمن الحوض الديموقراطي كنظام حكم جوابا على السؤال الكبير. ولعل الهند تتفرد بالتجربة الكبرى تفرداً ، نسبناه في حديث سابق الى سيطرة حزب المؤتمر الهندي ، والى شخصية الرئيس نهرو بالذات . ولقد تجاذبت التجربة وتوازنها الدقيق احزاب هندية من ذات اليمين وذات اليسار ، فلم تستطع زحزحة القبضة الراسخة الممسكة بقبة الميزان ، وسار نهرو على صراط دقيق يتهادى ويترنح احيانا ولكنه لا يفقد سيطرته على سلك التجربة . وبينما يتهمه المحافظون الانكليز بانه يخطط للتشريك الواسع ، دون ما نظر الى رخاء الشعب ، ورفع مستواه وانه خاضع لسلوكية التشريك على الطريقة السوفيتية ، يتهمه بعض اليساريين بأنه يمثل انساناً بورجوازيا صغيراً من حي المال في لندن .

أما ان نهرو مثقف ماركسي من الطراز الرفيع ، فهذا مما لاريب فيه . فان ماركس ولينين قد مارسا تأثيراً كبيراً على تفكيره ، ويقول انهما قد ساعداه على ان ينظر الى التاريخ ومايجري من احداث ، في ضوء جديد حقاً . « ان هذا الضوء بدأ يعطي معنى لما يجري ويحدث . والمستقبل كذلك قد ازاح عن نفسه بعض ما يكتنفه من ظلام »

ولكن الماركسية على سعة الشحنة الكهربائية التي سلطتها على الأحداث لم تستطع أن تعطي الجواب على كل سؤال. بل قد حدث بعد ماركس من الوقائع مالا ينسجم مع المنطق الماركسي ، وما يناقضه ايضاً . فجاء لينين من بعده ليحقق بنجاح انسجاماً اكثروضوحاً بين الايديولوجية والتجربة ، ولكن تطورات العصر كانت متسارعة الى حد أنها سبقت لينين نفسه. ويضيف نهرو قوله : ان سرعة نمو التكنولوجيا ، مع سعة تطبيق مستحدثات العلم تغير صورة العالم تغييراً مذهلا ، وتخلق قضايا جديدة ، لم تكن في الحساب...

في الجولة القادمة

رغبة في عدم اختصار أفكار نهرو اختصاراً منحلاً في آخر جزء من هذه الجولة نرجىء تتمة البحث الى الجولة القادمة حيث سنعرض نظرية نهرو فيما سماه (الجماعية الديموقراطية) توفيقا بين الديموقراطية والاشتراكية اومزجاً بينهما . ثم نتابع البحث كما خططنا عن (الديموقراطية الاساسية) كما يدعوها الرئيس ايوب خان ، وكما طبقها في الباكستان فعلا. ثم (الاشتراكية الافريقية) كما يريدها الرئيس سنغور. ثم نتابع البحث في اتجاهات الطائفة الثانية ، وفق منهج البحث.